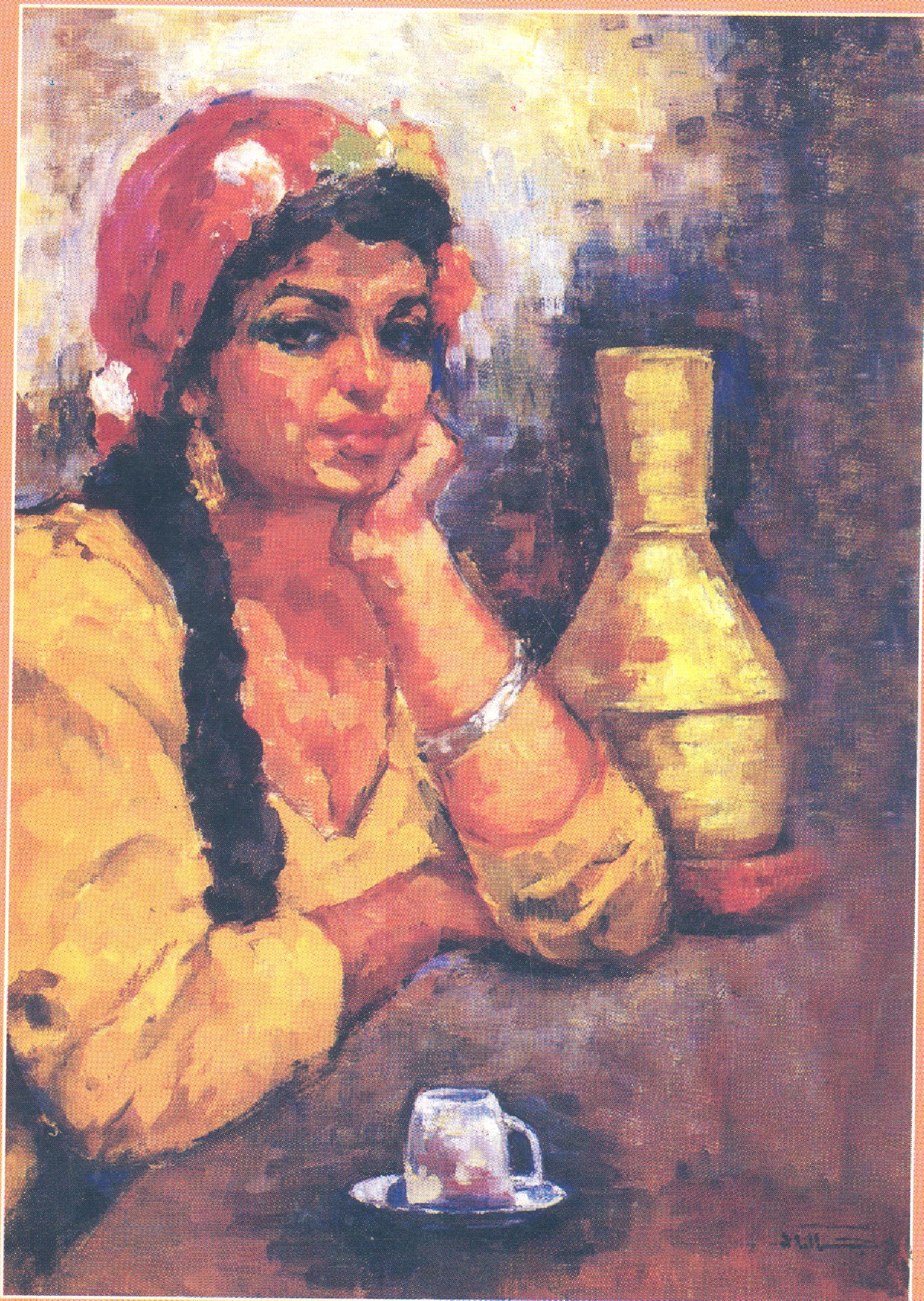
ناصر الدين النشاشيبي

نساء من الشرق الأوسط

السياسة إسمها إمرأة



دار الحكمة
- لندن -

نساء من الشرق الأوسط

ناصر الدين النشاشيبي

نساء من الشرق الأوسط

السياسة إسمها إمرأة

الثانية

ترويض سماحة المفتي!

* اسم الكتاب : نساء من الشرق الأوسط
* اسم المؤلف: ناصر الدين النشاشيبي
* طبعة أولى: ٢٠٠٢م
* الناشر: دار الحكمة - لندن

88 Chalton Street, London, NW 1, 1 HJ
Tel: 0207 / 3834037 Fax 0207 / 3830116

DAR AL-HIKMA
Publishing and Distribution



88Chalton Street , London NW1 1HJ Tel 0207-3834037 Fax 0207 -383 0116

الإهداء

إلى الجيل القادم من أبناء «الشرق الأوسط»
للعلم والاستفادة والتشبه

ناصر الدين

مقدمة

عندما تخرج المرأة من عالمها الصغير وتصبح منافساً للرجل في عالمه الواسع، يصبح من حق أي كاتب ان يتصدى لها بالسرد والعرض والنقد والتحليل.

وليس في الكشف عن الأسرار العامة المتعلقة بحياة اية امرأة في العالم، ما يؤذي المرأة او يعيب الكاتب. وكما ان من واجب الكاتب أن يلزم حدود اللياقة والادب فيما يكتب، كذلك فإن من واجب المرأة ان تلزم حدود الرفعة والحياء في خطوات حياتها. وقبل ان نحاسب اي كاتب على ما خطه قلمه عن هذه المرأة او تلك، يجب ان نحاسب المرأة على ما اقدمت عليه من اعمال في مشاوير ايامها قد لا تكون كلها متسمة بالورع والتقوى والخوف من غضب السماء. فليست نساء العرب كلهن خديجة، او عائشة، او فاطمة رضي الله عنهن وارضاهن. وليس هناك الكثيرات بين نساء العرب من امثال شجرة الدّر او رابعة العدوية أو الخنساء أو هدى شعراوي أو أم المصريين. وكذلك ليست كل نساء اوروبا واميركا من طراز مدام كوري وجان دارك وميمي ايزنهاور والسيدة الاسطورة «ايفيتا بيرون» التي اقتسمت الحكم مع زوجها فاصبح هو «الاستراتيجية» الحاكمة واستقلت هي بفلسفة الحكم وشعاره ومبداه.. واسطورته! لقد عرف «القرن العشرين» طرازاً من النساء اللواتي ارتفعن بأزواجهن الى اعالي السماء وتميزن بالحكمة والقناعة والسرية والزهد في المال والأضواء والنفوذ. كما عرف هذا القرن نساء من طراز السيدة «شيانج شنج» ارملة زعيم الصين «ماو» والسيدة «ايملدا ماركوس» حرم ديكتاتور الفلبين السابق والسيدة «بندرانيكا» زعيمة سيلان، وجاكلين كيندي، ونانسي ريغان، وغيرهن من النساء اللواتي ـ من جانب او من آخر ـ تسلطن على ازواجهن، وحشرن انوفهن في مسؤوليات الحكم، وتسللن الى ملاعب الصفقات السرية والأعمال المثيرة، حتى قيل ذات يوم ان اعظم سيدة اميركية في حياة «البيت الابيض» هي السيدة الاميركية التي

لم تدخل البيت الابيض، وان أعظم زوجة لأي رئيس اميركي في التاريخ هي السيدة التي لم تصبح زوجة لأي رئيس اميركي في التاريخ!».

وليس في اختياري لأسماء النساء المدرجة بين دفتي هذا الكتاب اي معنى خاص سوى معرفتي الشخصية بهن. انني لست في معرض حرق البخور او غرس السكاكين، ولم يكن همي المدح او الذم، ولم يكن غرضي الاساءة او الاحسان. انني بصدد كتابة بضعة سطور في دفتر التاريخ النسائي المعاصر، وكاتب التاريخ يخضع للعلم وللحقيقة وللضمير الشخصي قبل اي عامل آخر. انني لم اكتب الا عن بعض من عرفت ـ شخصياً ـ من نساء هذا الشرق العربي، ولا تهمني عشرات من اسماء النساء ـ غير العربيات وغير الشرقيات في مختلف انحاء العالم. لقد سمعت باذني السيدة «ايملدا ماركوس» وهي تقول لي انها ـ بالذات ـ قلب زوجها الديكتاتور، وان زوجها هو عقل الفلبين وقائدها! ولم أصدقها! وسمعت الامبراطورة «فرح ديبا» وهي تؤكد لي بأنها كانت تصر على ان تمشي الى جانب زوجها الأمبراطور، وليس امامه، وليس وراءه. ولم اصدقها! وسمعت صوت ملكة «تايلاند» وهي تقول لي بانها مجرد «ضابطة اتصال» او مديـرة علاقات عامة لخدمة شعبها ووطنها. ولم اكترث لقولها ولم أصدقها. وحدثتني المذيعة العالمية «بربارة والترز» عن قلبها الرقيق واعصابها الشفافة وكيف ان راتب المليوني دولار في العام الواحد من شركة «أ.ب.سي» الاميركية للتلفـزيـون لم يزدها الا حُباً لشقيقتها المريضة وتعلقاً بأمها الكسيحة! ولم يعجبني هذا الكـلام ولم يزدني احتـراماً لصاحبته! وعندما حدثتني الأميرة الالمانية الصبية «كلوريا فون تاكسيس» زوجة أغنى رجل في المانيا، وفي اوروبا عن حبها لزوجها الذي يبلغ الخامسة والستين بينما هي لم تتجاوز الثانية والعشرين، وكيف انها لم تتزوجه من اجل ماله وانما لانها وقعت في غرامه منذ اللحظة الأولى... لم أملك الا أن اضحك. فقد كنت اعرف ان زوجها الملياردير لم يتـزوجهـا الا لكي ينجب منها طفلاً يرث بعده وعنه اللقب والمليارات، وانه يعيش في قصر منفرد يبعد عن قصر زوجته مسافة تزيد عن عشرين ميلاً، وانه غارق حتى اذنيه في الملذات بينما ترك زوجته الشابة تغرق حسب مزاجها في ملذاتها الخاصة! وقد ضحكت كثيراً عندما سمعت السيدة الاميركية ـ الأنيقة جداً ـ المسز «هلمزلي»، صاحبة اكبر مجموعة من فنادق نيويورك، والملكة غير المتوجة على عرش ناطحات السحاب، وبينها عمارة «امباير ستيت بلدنج» اعلى ناطحة سحاب في قلب حي «مانهاتن» بمدينة نيويورك، سمعتها تداعب زوجها الذي بلغ سن الثمانين وهي تناديه بالاسم المدلل وتقول له:

ـ «هاري».. يا صغيري!.. انت وحدك نقطة الضعف الوحيدة في حياتي.. لأني احبك!!»

ثم تسحبه من يده الى حلقة الرقص وتحتضنه وتشدّه الى صدرها وتغمره

بالقبلات على انغام التانجو الخافت العاطفي.. اللذيذ!

إن هذه البضاعة من نساء العالم ـ غير العربيات ـ لم ترق لي. لقد عرفت نماذج مختلفة منها، باعمار مختلفة، ومناصب مختلفة، ومستويات مختلفة، وبلاد مختلفة، ولكنها بقيت عندي بلا طعم ولا لذة. وبقيت كلها غريبة عني وبعيدة عن طبيعتي ولا اجد فيها ما يطربني او يشدني او يدفعني للكتابة عنها. لعلي كنت، دائماً، ابحث عن عنصر «البلد» في كل امراة عرفتها. او لعلي كنت اطرب للغة المراة ولهجتها وسحر عينيها ومشاكل بلدها قبل ان اطرب لجمالها. إن الانسان في مجموعته مجرد تفاعل بيولوجي وكيمائي بين الماء والدم واللحم والتراب والهواء، وانا ـ كما ولدت وكما عشت ـ احب الرمل والصخر وشجر الزيتون وحبات البرتقال، لاني احب بلدي واحب ـ بالتالي ـ بنات هذا الشرق المليء بالسحر والغموض، وزيت الزيتون!

ولا يخفى على احد، ان في الساحة العربية، عشرات من النساء الشرقيات اللواتي نجحن في غزو ميادين السياسة وممارسة المناورات الدبلوماسية، وتسلطن بشخصياتهن على عشرات من رجال هذا الشرق، وتركن بصماتهن على وجوه اكثر من زعيم واكثر من ملك واكثر من رئيس عربي، وكل واحدة من هؤلاء النساء جديرة بان يُفرد لها فصل خاص يكشف عن دورها وخطواتها على مدى السنوات الطوال. ولكني لم اكتب عن واحدة من هذا الصنف من النساء لاني لم اشأ ان اكتب عن اناس لا اعرف عنهم الا ما هو منشور في بعض الكتب وبعض المجلات!. إن السيدات مود فرج الله و «مي عريضة»، وزاهية قدورة، و «عادلة بيهم» في سورية ولبنان، و «صبيحة الشيخ داوود» في بغداد، وهدى شعراوي في مصر، مع «درية شفيق»، وام كلثوم، وجيهان السادات، وعشرات غيرهن من نساء تونس ـ كالوسيلة بن عمار مثلاً ـ ونساء المغرب مثل «لالا عائشة» ـ وغيرهن، قد لعبن ادواراً كبيرة، ومعروفة، في حياة بلادهن العامة وفي سراديب السياسة والاعيب الحكم، وكذلك، في حياة المجتمع الادبي والثقافي والحضاري بين شعوبهن، ولم يكن اي دور من تلك الأدوار مجهولاً بالنسبة للمؤرخين او المراقبين او المطلعين على جوانب السياسة والمجتمع في العالم العربي! ولكني لا ازعم لنفسي بان معرفتي بهذه المجموعة من نساء الشرق تزيد ـ عمقاً او اتساعاً ـ عن معرفة غيري بهن، وان من حقي ان انفرد بالكتابة عنهن بسبب اي شعور خاطىء لدي بأني اقدر بالكتابة عن حياتهن من اي فرد آخر. لقد اعتدت ان اسطر الأحداث من زاوية تجاربي الخاصة، وان اثق بالاطلاع المباشر اكثر من ثقتي بالسمع البعيد او القراءة العابرة، وان اسرد التراجم وقصص الحياة عن الآخرين من خلال معرفتي بهم ومقابلاتي معهم واستماعي لآرائهم وكشفي عن اسرارهم، لا من خلال الروايات والهمسات والشائعات التي قد تنفع للتسلية ولكنها لا تنفع الصحافي المؤرخ، او الكاتب المسؤول.

وبعد..

هذه ليست تراجم عشر نساء من اهل الشرق الأوسط وانما هي لمحات خاطفة، ولقطات سريعة، وصور مستعجلة، وملامح قصيرة، عن عشر نساء من بين اهلنا وعشيرتنا في دنيا الوطن العربي، بعضها ما زال على قيد الحياة، وبعضها مضى الى العالم الآخر بكل ما له، وما عليه.

ارجو صادقاً، ان لا اكون قد أسأت الى احد من حيث لا ادري، ولا اكون قد نافقت احداً من حيث لا اريد.

يكفيني من هذا الكتاب ان اخرج منه كحامل الهوى عند ذلك الشاعر العربي: «لا عليّ ولا ليَ!».

والله معنا...

ناصر الدين النشاشيبي

الاولى

عبلة في القرن العشرين

كان فندق «الملك داوود» بالقدس يُشبه عُشّ البلابل الذي يلجأ اليه العشاق كلما استبدّ بهم الشوق أو اشتعلت في قلوبهم نار الحنين.

وما أقوى الصلة بين الحب والمجد، أو بين راحة القلب وراحة البدن!

وكذلك، ما أشد الرباط بين القلب الذي يخفق بالحب وبين العقل الذي يفتش عن المال القادر، وحده، على ان يسعد قلوب العشاق ويلوّن حياتهم بالراحة والرفاهية... والكتمان!

واذا توفر المال لدى صاحب الشأن فإن صالونات هذا الفندق الكبير كفيلة بأن تهيىء له كل اسباب اللهو و «الفرفشة» مع الكثير من احتياطات التستر والحماية الشخصية، خاصة، وان امام مبنى هذا الفندق شرفة واسعة أو «تراس» تشرف على السور التاريخي للمدينة الذي بناه الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك وتركه لكي يصبح اليوم وحياً لخيال العشاق، ونغماً لعزلتهم، وملعباً لنظراتهم، وهدفاً ليتطلعون صوبه عند غروب شمس القدس وعند شروقها!

ولما كان معظم زوّار القدس في ذلك الحين، وخاصة زوار فندق الملك داوود من طبقة الملوك والأمراء وكبار الجنرالات في القوات المتحالفة وأصحاب الملايين، فقد كان العشاق من الباحثين فيه عن السرية والأمن الشخصي، يجدون في أجوائه كثيراً من الاطمئنان والراحة النفسية الكفيلة بحجب انظار الفضوليين عن خصوصياتهم، مع تخفيف اي شعور بالقلق قد ينتابهم.!

من أجل هذه الأسباب، والكثير غيرها، كانت السيدة «عبلة» تحب فندق «الملك داوود» ولا تنقطع عن زيارته.

هل تعرفون السيدة «عبلة»؟

كان جميع موظفي فندق الملك داوود يعرفون من هي السيدة «عبلة»! كانت «إيملدا» عاملة التلفون في الفندق تناديها بلقب «البرنسيس آبله». فقد كانت «عبلة» لبنانية الأصل وتتمتع بكل الصفات التي تتمناها أية سيدة من طبقة «الهاي لايف»! كانت مثقفة وذكية وكريمة ونشيطة، ولا يتعبها سهر ولا يذهب بعقلها خمر ولا يستبد بها غمّ ولا همّ! وكانت متزوجة من شاب فلسطيني ينتسب الى أعرق العائلات اليافاوية ويعمل موظفاً كبيراً في إدارة حكومة فلسطين بمدينة حيفا. وفي عام ١٩٣٥ - ويجوز للصحافيين كما يجوز للحكومات نشر الأسرار التي يملكونها بعد مضي فترة ثلاثين سنة على تاريخ حدوثها - بدأت شركة بترول العراق ويرمزون اليها بالأحرف اللاتينية الثلاثة: .I.P.C ، تفتح فروعاً ومكاتب لها في مدينة «حيفا» بفلسطين لكي تتولى مهمة الاشراف على مدّ الانابيب التي ستحمل البترول العراقي المار من «كركوك» عبر الصحراء الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

وعندما بحثت الشركة المذكورة عن موظفين عرب - وأكفاء - لتولي مسؤولية العمل في مكاتبها بمدينة «حيفا»، لم تعثر على أفضل من شاب عربي اسمه: «أ.ت» ويشغل في ذلك الوقت وظيفة «قائمقام» المدينة..

وكان هذا الشاب - بالذات - هو زوجِ السيدة «عبلة»..!

وهكذا، وعندما ذهب صاحبنا الشاب المذكور لمقابلة المستر «ستوكي» Stucky - المدير العام الانجليزي لمكاتب شركة بترول العراق في فلسطين من اجل البحث في تفاصيل العمل، وقيمة الراتب، ومدة الاجازات، وبدل التمثيل، ونفقات السفر، لم ينس مطلقاً ان يصحب معه زوجته السيدة.. «عبلة»!

وعندما وقع نظر المستر «ستوكي» على وجه السيدة «عبلة» قرر الاستسلام أمام جميع طلبات زوجها ووافق - في الحال - على كل شروطه وقال للزوج وهو يودّعه على مسمع من زوجته الساحرة:

- يجب ان تقدّم استقالتك من عملك في الحكومة خلال «٢٤» ساعة وتنضم الينا قبل نهاية هذا الأسبوع!

وقبل انقضاء مدة يومين فقط، استقال السيد «إميل» - وهذا هو أسمه

الأول ـ من منصبه الإداري في حكومة فلسطين، وانضم الى مكاتب شركة بترول العراق كضابط ارتباط رئيسي وبراتب يفوق أضعاف راتبه الذي كان يتقاضاه في منصب القائمقام الاداري. ولعلّه أراد ان ينسجم في مظاهر حياته، مع وظيفته الجديدة، فانتقل للسكنى في فيلا أنيقة تقع في سفح جبل «الكرمل» وتحتضن في حلاوة موقعها مناظر البحر الأزرق النائم سعيداً عند أطراف حديقتها الغناء!

وتوثقت العلاقة بين هذا الشاب العربي وبين مديره المستر «ستوكي».. الانجليزي!

وتكررت الزيارات. والسهرات. والمناسبات! ومعها تبودلت أثمن الهدايا واكبر باقات الورد وأرق عبارات الاهداء! وكان طبيعياً ان تتوثق العلاقة ـ ايضاً ـ بين المدير الانجليزي الرقيق، والزوجة التي اسمها: «عبلة»! فقد سحرته بطلاقة لسانها ووسع ثقافتها ولونها الخمري وشعرها الأسود وعينيها الواسعتين. حتى ارغمته في نهاية المطاف على ان يقع في حبها.

واعلنت الحرب في خريف عام ١٩٣٩. وقرر المستر «ستوكي» لأسباب لا علاقة لها بالحرب ولا بالمجهود الحربي أن يتخلص من رقابة الزوج «إميل» ومن كل ما يشعر به اي زوج تجاه من يقع في غرام زوجته، فأصدر امراً مستعجلاً يتضمن تعيين الزوج الغيور في وظيفة المفتش العام لخطوط الأنابيب التابعة للشركة على ان يكون مقر عمله ـ ليس في مدينة حيفا ـ وانما في مدينة طرابلس بلبنان!

وهكذا خلا الجوّ المطلوب للمستر «ستوكي» ولحبيبته العربية السمراء.

وقال لها ذات يوم وهو ينفرد بها في شرفة منزلها المطل على خليج «حيفا» الجميل:

ـ انني أحسدك على جمال منزلك، واريد أن أعمل على توسيع منزلي الذي اقيم فيه ثم اجري تعديلاً شاملاً في الديكور الداخلي وفي الأثاث وفي الحديقة، بشرط ان تتولي بنفسك مهمة الاشراف المباشر على هذه العملية بعد ان تختاري لي المهندسين والعمال الاكفاء لكي تأتي النتيجة كما

اتصورها من حيث الطابع واللون والهندسة.. والذوق الجميل!
ثم ضمّها الى صدره وراح يُحدق في وجهها الخمري ويقول لها هامساً:
ـ أريد لون الاثاث خمرياً كلونك.. والحيطان سوداء كلون شعرك.. وحجارة الحديقة بيضاء كابتسامتك.. والمقاعد في لون الورد كلون خدك!.
وقبل ان تتركه يطبع على فمها إبتسامة طال إنتظاره لها، سمعها تقول له:
ـ انني اعرف شاباً لبنانياً يعمل مهندساً في دائرة الأشغال المدنية بمدينة «شفا عمرو» بالقرب من حيفا. واسمه «إميل»، تماماً كأسم زوجي، وله شريك يعمل معه اسمه «ك».. وسأتفق معهما على البدء فوراً في تنفيذ ما تطلبه بحيث ينتهي العمل قبل مجيء فصل الشتاء!
ومالت برأسها على وجه المستر «ستوكي» وسألته:
ـ هل توافق؟
وغمرها الرجل بقبلاته الحارة وقال لها والنشوة تصرع نبرات صوته:
ـ أنت تأمرين! أنت المديرة العامة في هذا البيت..!
ثم اضاف:
ـ وفي المكتب ايضاً. وفي كل مكان!
وأجابت «عبلة» وهي تسحب رأسها المدفون بين كفي المستر ستوكي الانجليزي لكي تحدثه عن هذين المهندسين الشابين:
ـ انهما يا عزيزي شابان صغيران ولكنهما ينتميان الى العائلات المعروفة بحسن السمعة! والأول من اصل لبناني وقد درس في جامعة بيروت الاميركية ثم اكمل علومه في اميركا ومشهود له بالطموح والجرأة الأدبية..
ثم راحت تضحك وهي تقول له:
ـ ولكني لا أريد لك ان تظن بأنني قد اخترته بسبب كونه من لبنان، فقط، انا أحب بلدي دون أن اتعصب له. ان «اميل» سيعجبُك لأنه يتكلم الانجليزية بطلاقة ويشرب الويسكي بلذة، وله اتصالات واسعة مع الأوساط اللبنانية والفلسطينية، وكان يقول لي دائماً انه سيعمل لكي يجمع المال الكافي ثم يعود بعدها الى بيروت ويدخل معارك انتخابات

البرلمان ويصبح نائباً او وزيراً او رئيساً للجمهورية! اما عن شريكه ـ او رفيقه المستر «كامل» ـ فانه شاب كفؤ ومن عائلات «حيفا» المعروفة ويملك مالاً كثيراً. هه.؟ قل لي ـ يا عزيزي ـ هل أتصل بهما حالاً، واطلب منهما الحضور الى هنا لمقابلتك؟

ومدّ المدير الانجليزي أصابع يده الى رأس «عبلة» وشدّها الى فمه وراح يغمرها بقبلاته وهو يهمس في اذنها:

ـ أفعلي ما تشائين! كل ما تشائين!

وعلى الفور، نهضت «عبلة» الى جهاز التلفون وأدارت الرقم المطلوب وسمعت صوتاً يقول لها على الطرف الآخر:

ـ هالو؟ انا «اميل»!

وعلى طريقتها في جذب الرجال وكسب الناس ضحكت «عبلة» وقالت في دلال وهي تسأله:

ـ هل أنت سعادة المهندس المعماري الكبير المستر «إميل»؟

وأجاب «اميل» وقد خفض صوته:

ـ ما زلنا يا ستي مجرد مهندسين صغار.!

ثم سألها وقد رفع صوته من جديد:

ـ نحنا بأمرك.. ماذا تطلبين منا؟

وردت «عبلة» بلهجتها اللبنانية العذبة:

ـ لك عندي مشروع عمار بياخذ العقل! ان مدير شركة نفط العراق يريد ان يجري تعديلات واسعة في المنزل الذي يسكنه بحيث يضيف الى المبنى طابقاً جديداً ويبدّل الفرش ويغير لون الحيطان وليس هناك من هو أقدر منك على تنفيذ هذا العمل. فهل انت مستعد؟

ثم استطردت قائلة على الفور:

ـ انا أريدك انت و «كامل». أريد الشركة كلها، وليس واحداً بمفرده!

ورد «اميل» بلهجته الخطابية وصوته الأجش:

ـ نحنا كلنا بأمرك! ولكني أقترح عليك ان تسألي «سعادة» مدير شركة البترول لماذا لا يوفر فلوسه، وبدلاً من ان ينفق ماله في التوسيع والتبديل يعرض عليك شراء منزلك الحالي الذي لا يحتاج إلا الى رجل مثله قادر

على ان يعيش الدنيا بالطول وبالعرض وان يقيم الحفلات ويدعو الناس ويعرف قيمة البيوت الحلوة..!؟

ودهشت «عبلة» من كلام «إميل» وقالت لصديقها المدير الانجليزي وهي تغالب حياءها:

ـ حقاً إنه شاب غريب! إنه يقترح عليّ ان ابيعك منزلي بدلاً من ان تشغل نفسك بتوسيع منزلك. فماذا تقول؟

وأجاب المدير وقد بدأ الويسكي يأخذ مجراه:

ـ اطلبي منه ان يحضر الى هنا فوراً!

وقبل ان ينتصف الليل، كان «اميل» يدق بيده جرس منزل «عبلة»، ويدخل من الباب الرئيسي ومعه شريكه... «كامل»!

* * *

كان «كامل» لا يقل دهاء أو شطارة عن شريكه «اميل»! لقد عرف سلفاً مدى نفوذ «عبلة» لدى مدير الشركة وأدرك مدى قدرتها على اقناعه بأن يشتري منها منزلها. وكل ذلك قد يعود بالربح المطلوب على «عبلة» وحدها. فلماذا لا تشمل عملية البيع إتفاقاً يوصي باجراء «بعض» التعديلات الجوهرية في منزل «عبلة» بحيث تقوم شركة «اميل وكامل» بتنفيذ هذه التعديلات مقابل الرقم المتفق عليه ويتحقق بذلك الربح الكافي للشركة، و «لعبلة» معاً؟

باختصار شديد، لم تكن الساعة قد بلغت الثانية صباحاً، الا وكان «سعادة» مدير شركة نفط العراق قد إقتنع، تماما، بضرورة شراء منزل «عبلة» مع ضرورة إجـراء بعض التعديلات الجزئية في غرف الصالون والشرفات والحديقة مقابل خمسين ألف جنيه فلسطيني فقط لا غير..!

وعندما سألهم المدير عن نفقات تغيير الأثاث، أجابته «عبلة»:

ـ عندما تنتهي عمليات البناء والترميم، سنبحث بعدها في موضوع الفرش والاثاث..!

وفي اليوم التالي انتقلت «عبلة» مع حوائجها الخاصة الى جناح كبير في فندق «بوتاجي» على جبل الكرمل بعد ان بدأت عمليات التوسيع والترميم في منزلها الذي باعته الى مدير عام شركة بترول العراق في الليلة الماضية!

وكان من الطبيعي ان تتكرّر زيارات المهندس «اميل» وشريكه «كامل» الى مدام «عبلة» بحجة الاشراف على اعمال البناء الجارية في الفيلا والاطمئنان على سرعة العمل. كما كان من الطبيعي جداً ان تحتفي مدام «عبلة» بكل من المهندسين الشابين وتدعوهما الى حفلات العشاء والسهرة حتى ساعات متأخرة من الليل.! ومع مرور الايام، وكثرة اللقاءات، ووفرة الحفلات، استطاعت «عبلة» أن تدخل الى قلب «اميل»، وقلب شريكه «كامل»، واستطاع كل منهما ان يشعر بمحبة «عبلة» وبتقديرها.. وبثقتها ايضا!

وذات مساء، وقد طالت السهرة، وتعددت الكؤوس، ودارت الرؤوس، وانطلقت الالسنة، قال المهندس «اميل» وهو يسأل «عبلة» تحت ضوء القمر المشع على شرفة فندق «بوتاجي» بجيفا:

ـ لماذا لا تنضمين الى شركتنا وتصبحين بذلك العضو الثالث في هذه الشركة الهندسية... المباركة؟

ورغم مفاجأة السؤال، الا أن «عبلة» كانت على الدوام تنتظر مجيء مثل هذا العرض اليها، خاصة وهي السيدة المحظية لدى رؤساء الشركات وأصحاب البنوك و.. مدير عام شركة بترول العراق! لعل هذا السؤال لم يدهشها فقد أجابت على الفور ضاحكة وكأنها تهزأ بالسؤال وبصاحبه معاً:

ـ انا دائما مستعدة لقبول مثل هذه العروض يا عزيزي.!

وقال المهندس «كامل» مُعلقاً:

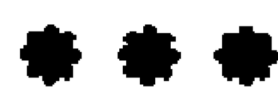
ـ إذن، ستصبح شركة «الكات» مُثلّثة الاطراف!

وضحك المهندس «اميل» وصاح سعيداً وهو يلثم يد «عبلة»:

ـ انت يا سيدتي هي الرئيسة، ونحن الخدم.. والأعضاء!

ومنذ ذلك اليوم، اصبحت أول واكبر شركة هندسية عربية للانشاء والتعمير، تضم شابين وامرأة!

فقد دخلت «عبلة» الى شركة «الكات» اللبنانية ـ الفلسطينية للهندسة من أوسع ابوابها وجلست في مقعد الرئيس!



تعددت نشاطات «عبلة» في الترويج لأعمال الشركة، وغزت بذكائها وسحرها معظم قطاعات الحكومة في ميادين الهندسة والبناء والمقاولات والتجارة! لقد أصبح اسمها على ألسنة الناس، واشترت منزلاً جديداً أصبح في مدة قصيرة ملتقى كبار الجنرالات الانجليز ومجمع الشخصيات العربية من امثال رئيس البلدية «حسن شكري»، والمليونير «خياط»، وبوتاجي، وأصحاب شركة «قرمان ديك وسلطي» للدخان، ومديري المطاحن والمصارف وشركات تصدير الحمضيات وغيرها! لقد جمعت من المال كثيراً، وقطفت من ثمار الحياة اكثر! كسبت مئات الآلاف وانفقت مئات الآلاف! اقتنت أغلى الجواهر وامتلكت سيارات «الباكارد» و «الرولس رويس»، واستوردت حاشيتها وخدمها من جنوبي السودان، وتصدرت الحفلات ولفتت الأنظار وجلست على قلوب العشرات من زعماء العرب والأجانب واصبحت حديث الناس، بعيدهم قبل قريبهم!

وجاء عام ١٩٤٧ وجاءت اللجنة الدولية الى فلسطين للتحقيق في قضيتها.

وفي اواخر شهر نوفمبر من العام نفسه أصدرت الامم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين، فأصدر الانجليز قرارهم بالجلاء عن فلسطين وانهاء الانتداب البريطاني على البلاد.

وبكت «عبلة» وهي تستمع لبيانات الأخبار من إذاعة القدس، ومشت صوب جهاز التلفون، وقالت لزوجها وهي تغالب دموعها:

ـ سنذهب في هذا الأسبوع الى القدس، ونسهر في فندق الملك داوود ونودع اصدقاءنا هناك لكي نبدأ في ترك هذه البلاد ونعود الى بيروت.. معاً!

ثم أنهت كلامها وهي تصرخ بزوجها في التلفون على مكتبه بطرابلس:

ـ تعال من طرابلس الى حيفا، وسأكون في انتظارك لكي نكمل السفر الى القدس.. بعد يومين اثنين!

وبعد أن لزمت لحظة من التفكير القلق، عادت الى سماعة التلفون وأدارت القرص على الرقم الخاص للجنرال «ايفلن باركر» القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين، وراحت تقول له وكأنها العاشقة المتيّمة

وهي تناجي حبيبها في ساعة فراق:

ـ هالو يا عزيـزي الجنرال! اننا سنبكي على فراقكم! إن صالونات «الملك داوود» ستفتقد وجودكم! إن القدس ستلبس لون الحداد حزناً على رحيلكم!

ثم أدارت التلفـون على رقم السـير «جايلز أيشم» رئيس المخابرات العسكرية في رئاسة قوات الحلفاء بالقدس وقالت وهي تدعوه الى حفلتها التي ستقيمها بعد يومين:

ـ سنـرقص بعـد غد حتى الفجر وسنبصق جميعاً على وجه جميع اليهود في العالم!

حقـاً ما كان أحلى من جمال «عبلة» إلا جمال وطنيتها! كانت تكره اليهود بقلبها قبل عقلها. وقد استطاعت من خلال نفوذها لدى المستر «ستوكي» ـ مدير الـ «آي.بي.سي» ـ ان تحول دون دخول يهودي واحد الى شركة بترول العراق! كانت تحب العرب بعاطفتها وتكره اليهود بقلبها، وتحب المال والثراء والأضواء بعقلها! وكانت وطنيتها تنسجم مع طبيعتها. فكان طبعها حاداً ونزقاً ومتطرفاً. وكانت تلجأ الى الشتائم كلما أعياها المنطق او خانها التعبير. وكانت شتائمها مقبولة لا تدعو الى الإنزعاج. كانت كالطفلة الكبيرة كلها حياة وكلها جنون!

وفي ذلك المساء ذهبت «عبلة» الى القدس وحجزت لنفسها ولزوجها الجناح الملكي رقم «٢٢٨» و «٢٢٩» في فندق الملك داوود، وهو الجناح نفسه الذي كانت تنزل فيه الملكة «نازلي» ـ ملكة مصر السابقة ـ والمطربة «اسمهـان» والملك السابق «احمد زوغو» ملك البانيا خلال ايام الحرب العـالميـة الثـانية، وكذلك كان ينزل في الجناح المذكور الجنرال كاترو والجنرال سبيرس!

وعندما بلغت الساعة العاشرة مساء ارتدت «عبلة» أحلى فساتينها، وتزينت بأثمن جواهرها، واستعانت بأدق أنواع «المكياج» النسائي، ثم نزلت الى بهو الفندق لكي تلتقي بأكبر مجموعة من سيدات لبنان والقدس وحيفا، مع اكبر مجموعة من رجالات الجيش والسياسة والمال في فلسطين ولبنان!

وهرول المدعوون جميعاً الى مقصف «الريجنس» التابع للفندق حيث كانت تعزف أشهر الفرق الموسيقية النمساوية، وحيث كان الخدم يرتدون ثياب «الفراك» والسفرجية يظهرون بلباسهم السوداني المزركش بالأحمر والأزرق والذي كان معروفاً لكل النزلاء في فنادق مصر الكبرى، كفندق «شبرد» وفندق «سميراميس» وفندق «الكونتننتال» وغيرها..!

وعند منتصف الليل، قررت «عبلة» ان تلقي خطاباً! فأمسكت بيدها «شوكة» فضّية من مجموعة الشوك الكثيرة المطروحة على المائدة وراحت تدق على أحد الكؤوس المرصوصة امامها بعنف، حتى هدأت الضجّة وسكت الحضور وتطلّع الجميع صوبَ السيدة التي انتصبت واقفة كعمود من نور وراحت تخاطبهم بلهجة انجليزية متقنة وعبارات دبلوماسية رائعة وتقول لهم انها جاءت لكي تودّعهم.. فرداً فرداً.. وتحتضن صديقاتها من سيدات القدس واحدة بعد واحدة.. لأنها تبكي فراق صديقتها حرم «شوقي بك»، وصديقتها «عايدة» حرم عابدين بك، وصديقتها «شفيقة» وصديقتها حرم «جايلز بك» مدير البوليس العام والسيدة «سلامة» والسيدة «الجمل» والسيدة «طنوس» والسيدة «ابكاريوس» والسيدة «مغنم» وكذلك فهي تشعر بالحزن لأنها - وهي اللبنانية الأصل - تشعر وكأن فلسطين قد اصبحت وطنها الثاني، وان حيفا أعز على قلبها من بيروت، وان مغادرتها الإجبارية للبلاد بعد نشوب القتال وصدور قرار التقسيم وانتقال مكاتب شركة بترول العراق الى خارج فلسطين، سيبقى اشبه بالجرح الدامي في قلبها لأنها تحب فلسطين وتحب أهلها... وتحب أصدقاءها وصديقاتها!

ثم توقفت «عبلة» عن الكلام لحظة ارادت خلالها ان تستجمع اطراف شجاعتها، وسمعها الجميع تقول لهم بعدها:

«... سأطلب منكم ان تشربوا كأس مدينة حيفا! ثم أطلب منكم أن تشربوا نخب الرجل الذي لا احاول ان أخفي حبه لي! إنه ذلك الانسان الشريف الذي أحبَّ عمله، وأحب هذه البلاد، وأحب العرب، وأحبني، ولم يسمح لأي فرد يهودي ان ينضمّ الى الآلاف من الموظفين العرب في مكاتب شركة بترول العراق! لقد نجح على مدى عشر سنوات في ان يحفظ للشركة

استقلالها، وان يصارع ضغوط «الوكالة اليهودية»، وان يرفض توصيات حكومة الانتداب، وان لا يفتح ابواب مكتبه أمام زائر يهودي واحد..! اشربوا معي في صحة صديقي الكبير المستر «ستوكي» مدير شركة بترول العراق وصديق هذه البلاد العربية!».

وكان المفروض ان يكون المستر «ستوكي» في تلك اللحظة بين المدعوين! لقد رفع الحضور كؤوسهم تكريماً له وفتشوا عنه ونقلوا ابصارهم وتهامسوا وسألوا، ولكنهم لم يعثروا له على أثر! لقد كان المستر «ستوكي» في تلك الليلة واقفاً وحده على ظهر الباخرة التي أقلته مع حقائبه من ميناء حيفا الى.. بريطانيا!

وعند ساعات الفجر الاولى، انتهت الحفلة الوداعية التي اقامتها «عبلة» للعشرات من صديقاتها وأصدقائها في فلسطين، وعادت هي الى «حيفا» حيث اشرفت على إعداد أثاث منزلها وحقائبها تمهيدا لشحنها براً الى بيروت..!

واستطيع ان أقول ان سيارات الجيش البريطاني المخصصة لشحن صناديق الأسلحة ونقل الدبابات هي التي حملت حقائب السيدة «عبلة» مع أثاث منزلها من موقعها فوق جبل «الكرمل» الى منزلها الجديد في قلب بيروت!

ولا تسألوني كيف؟؟ ولا تسألوني لماذا؟ ولا تسألوني من؟

فقد دخلت «عبلة» حدود لبنان المتاخمة لفلسطين في موكب يُشبه مواكب الفاتحين الكبار! وكانت صديقاتها ـ وفي مقدمتهم صديقتها الكبرى السيدة «مود».. في استقبالها! وكان كبار رجال البعثة البريطانية الدبلوماسية في انتظارها. وكان ـ ايضاً ـ في شرف استقبالها على الحدود زعيم وسيم ونائب وسياسي لبناني شاب أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية وكان إسمه: كميل نمر شمعون!

ومرّ عام واحد..

ولم تعد «عبلة» تسأل عن أخبار «ستوكي» أو تتحسس حقيقة حبها له. لقد غزا قلبها حب جديد متمثلاً في شخص شريكها المهندس الشاب السيد «كامل»... او «كامل بيك»!

وكان انفصالها عن زوجها قد جعلها تشعر بتيار جديد من الحرية والانطلاق لم تتردد معه في ان تطلب من حبيبها المهندس الشاب ان.. يتزوجها!

ووافق «كـامـل» ان يتزوج من عبلة! ولكن الشريك الثالث، وأعني المهندس «اميل»، اعترض على الفكرة وهدد «كامل» بفسخ الشراكة معه ان هو تزوج من «عبلة»! وأصر كل منهما على موقفه! وتزوج «كامل» من حبيبتـه «عبلة» وخرج معها من شركة «الكات» تاركاً المهندس «اميل» وحيداً.. وحزيناً.. ومتألماً!

ولم تنته القصة بعد..

لقد صحب «كامل» زوجته «عبلة» وطار معها الى «عدن» حيث قرر ان يبدأ هناك حياته الجديدة في الانشاء والتعمير والمقاولات بعيداً عن القال والقيل، وعن اعين الخصوم والحسّاد.. والشركاء!

ولكن.؟

ما أشبه نهاية هذه القصة بالنهاية المآسوية التي اعتاد ان يختارها الممثل الكبير «يوسف وهبي» لأبطال رواياته، حيث لا تسقط الستارة على خشبة المسرح ولا تنتهي الرواية إلا وقد مات أو انتحر «جميع» أبطال وبطلات الرواية بمن فيهم البطل يوسف بيه وهبي... نفسه!!

انظروا ماذا جرى لجميع أبطال القصة في حياة «عبلة»:

لقـد سقـطت الطائـرة بأحد شركائها القدامى وهو المهندس الكبير «اميل» وغرق في بحر بيروت في شتاء عام ١٩٦٤!

وأعلن المهندس «كامل» ـ شريكها السابق وزوجها اللاحق طلاقه منها في عام ١٩٦٥!

ثم مات «كامل» بعد ان دفع لها حوالي المليون ليرة مقابل طلاقه منها.!

اما رفيقها او حبيبها الأول المستر «ستوكي» فقد ترك رسالة مختصرة كتبها لأهله قبل أن ينتحر بدقيقة واحدة في قريته بجنوبي انجلترا شرح لهم فيها لماذا اختار الموت على الحياة!

من بقي؟؟

بقيت «عبلة»، وحدها.. فقط!!

صلّوا من اجلها ان كانت على قيد الحياة، وترحموا عليها واطلبوا لها المغفرة إن كانت ـ مثل بقية شركائها وأحبابها ـ قد طواها الثرى في باطن الأرض.!

فقد عاشت كثيراً، واحبت كثيراً، وانفقت كثيراً، وتلاعبت بالبشر كثيراً! ورعت بعرقها سلامة انابيب بترول العراق من دسائس اليهود. وكانت اصدق سفيرة للبنان في فلسطين! وكانت من أحلى نساء هذا الشرق!؟!

* * *

كل انجليزي يأتي للعمل في أية بقعة من بقاع الشرق الاوسط يتمنى في قرارة نفسه أن يتقمّص شخصية الكولونيل «لورنس» أو يلعب دور «لورنس» او يشتهر شهرة «لورنس» أو يكتب كما كتب «لورنس» أو يموت كما مات «لورنس»!

هكذا كان الحال بالنسبة للكابتين «شكسبير» في السعودية، وبعده «سان جون فليبي» ثم «ابو حنيك» في الاردن ثم «كركبرايد» ثم الجنرال «سبيرز» في لبنان ثم «سمارت» في القاهرة ثم «كورنواليس» وغيره في بغداد وعشرات غيرهم، وغيرهم!

ولكن شخصية الكولونيل لورنس ـ أو لورنس العرب ـ لم تترك بصماتها على رجال بريطانيا وحدهم، بل إنها قد تعدّت الرجال الى النساء بحيث أصبحت كل كاتبة بريطانية تزور الشرق الأوسط وكل روائية انجليزية تمر بالشرق الأوسط، وكل زوجة سفير أو قرينة حاكم او معشوقة دبلوماسي او سكرتيرة وزير من وزراء بريطانيا في الشرق الأوسط، لا تلبث حتى تتقمص روح «لورنس العرب» وتقلد خطواته، وتلبس رداء السرية الذي ارتداه، وتزين رأسها بالقوفية والعقال، وتمتطي ظهور الحمير والجمال وتعشق النوم تحت الخيام، وتشرب القهوة العربية وترطن بلغة العرب!

هكذا فعلت الكاتبة والمؤرخة الشهيرة «فريا ستارك» في رحلاتها بين العراق والاردن. وهكذا فعلت بعدها زميلتها «جرترود بيل» ـ او السيدة «الخاتون» ـ كما كان يُسميها أهل العراق!

وعندما جاء السر «رونالد ستورز» كأول حاكم بريطاني على فلسطين في اوائل العشرينات، قررت زوجته الليدي «ستورز» ان تمشي على المنوال

نفسه ـ منوال الكولونيل لورنس ـ فقد ارتدت ثياب الفلاحات، وبدأت تتعلم اللغة العربية، وأصرّت على أن تتناول طعامها بأصابع يديها العشرة دونما حاجة الى الشوكة أو السكين، وأصبح الناس من أهل مدينة القدس يرونها في صباح كل يوم وهي تركب ظهر حمارها وتهبط من دار «المندوب السامي» البريطاني الكائنة فوق جبل «الطور» وتتجه صوب أسواق المدينة القديمة في القدس وتصل الى الجزء المعروف «بسويقة علّون» لكي تشتري لوازمها من الخضار واللحوم والفاكهة، وحيث يكون في استقبالها عند وصولها الى السوق مجموعة من نساء القدس العربيات اللواتي ينتمين الى أعرق الأسر العربية المسيحية وكل واحدة منهن تطمع بالفوز برضى حرم الحاكم البريطاني وصداقتها، وبالتالي الاستفادة من نفوذها وسلطانها، فما ان تترجل «الليدي ستورز» من فوق الحمار حتى تتسابق السيدات العربيات صوبها وفي يد كل واحدة منهن قطعة من الخبز او حبة تفاح وتأخذ بعنان الحمار وتقول له ـ للحمار ـ ان يتفضل ويقبل منها ما تحمله له من طعام، ثم تنحني بالتحية أمام «الليدي» وهي تلقي عليها عبارة «صباح الخير» ـ بالعربية ـ ولا تنسى بعدها ان تلتفت صوب الحمار ـ حمار الليدي ـ وتلقي عليه تحية الصباح وتمسح شعره بيديها وتغني له وهي تقول له، وبكل دلال ورقة وأدب:

ـ صباح الخير يا حمار الليدي! صباح الخير ايها العزيز!

وهنا ينشرح صدر «الليدي ستورز» ويطفح وجهها بالسعادة والسرور وتتولى ـ نيابة عن حمارها ـ شكر جميع المستقبلين والمستقبلات من حولها وتكرر للجميع مرة بعد مرة ما استطاعت ان تحفظه من عبارات الشكر باللغة العربية قائلة وضحكتها تسبق كلامها:

ـ أنا متشكرة لكم قوي! انا ممنونة لكم كثيرا! انتن صديقاتي!

ثم تترك الحمار في رعاية احداهن وتتجه صوب دكان «الخضرجي» كي تشتري ما تحتاج اليه من خضار وفاكهة ولوازم البيت!

ومع الأيام، أصبح أهل «القدس» يرددون في احاديثهم قصص «الست» و «حمار الست» وصديقات «حمار الست» وكلام «الست» وهي تتجاذب اطراف الحديث، باللغة العربية الركيكة مع صديقاتها الجُدّد من

سيدات القدس العربيات والمسيحيات والنشيطات والطموحات!

وحتى قبل ان تتزوج السيدة «كيتي...» من ذلك الشاب الاكسفوردي المثقف - «جورج» - كانت تصلح ان تكون على رأس قائمة أسماء السيدات العربيات اللواتي فتنتهن المظاهر الأجنبية، وسحرتهن تصرفات الليدي «ستورز»، و أُعجبن بالأخلاق والعادات الانجليزية، وجرفهن تيار الحرص على مواعيد تناول الشاي وحفلات الكوكتيل وتربية الكلاب وبناء الحدائق ومشاهدة لعبة «الكريكت» والتحدث الى الناس بلغة فريدة لا هي بالعربية ولا هي بالانجليزية ولا هي بالفرنسية، وانما هي خليط عجيب يجمع بين هذه اللغات الثلاث دون ان يُميز لغة على اخرى.[1]

وكان يحق للسيدة «كيتي» - أكثر من غيرها - أن تساير التيار الأجنبي وتعجب باللون الانجليزي! فهي قبل كل شيء، وفوق كل شيء، مدينة بحياتها، وحياة والدها، وحياة أمها، للانجليز رغم كونها من لبنان، ومن مدينة «حاصبيا» بالذات[1] قال الراوي ان عائلة كيتي - يعني والدها وأمها - قد هربا من «حاصبيا» وهما أطفال على اثر نشوب حرب «الستين» بين الدروز والمسيحيين، وما جرى يومذاك من اعمال القتل والذبح والسلب حيث فقد اكثر من ألف مسيحي من طائفة الروم الاورثوذكس حياتهم في تلك المدينة على ايدي الدروز مما أرغم افراد عائلة والدها على الفرار الى بيروت والسير مشياً على الأقدام مسافة تزيد على أربعين ميلاً وسط الجبال المقفرة والوديان الرطبة، حتى استقر الجميع في مخيمات خاصة نصبت بين اشجار الصنوبر على شاطىء البحر باشراف عدد من الجمعيات الخيرية الأجنبية ومن بينها جمعيات بريطانية.

وكان من بين اطفال تلك العائلة التي هربت من مذابح مدينة «حاصبيا» واستقرت تحت اشجار الصنوبر على شاطىء بيروت، طفل اسمه «فارس نمر»! وكانت امّه - أم «فارس نمر» - قد تطوعت من اجل الحصول على لقمة العيش في ارضاع طفل انجليزي يمت بصلة القرابة الى القنصل البريطاني العام في بيروت، مما دفع عائلة القنصل الى اسباغ المزيد من العطف على هذه الأم وإحاطتها - مع أفراد عائلتها - برعاية خاصة!

وهكذا قامت القنصلية البريطانية في بيروت بالحاق الطفل «فارس نمر» مع شقيقه بمدرسة «شنللر» بالقدس، ثم نقلتهما فيما بعد الى مدرسة «صهيون» الانجليزية في المدينة المقدسة بفلسطين.

وبعد سنوات، استطاع الصبي «فارس نمر» ان يعود الى بيروت وان يلتحق للدراسة في «الكلية البروتستانتية السورية»، وان يتخرج منها، وأن يتفق مع صديق له يسمى «يعقوب صروف» ـ وقد أصبح فيما بعد صهره وقريبه ـ على اصدار مجلة علمية اسمها: «المقتطف»!

وقفزت «المقتطف» الى الصف الاول بين صحف لبنان ومجلاته!

وعندما وصلت اخبار هذه المجلة الى مصر، واطلع عليها رئيس الوزراء المصري ـ وكان يومذاك هو «رياض باشا» ـ امر بدعوة اصحاب المجلة ـ وعلى رأسهم فارس نمر وصديقه يعقوب صروف ـ لزيارة القاهرة واصدار مجلة «المقتطف» من بلاد «مصر» بدلاً من.. لبنان!

وهكذا كان..

وانتقل «فارس نمر» باقامته الدائمة من بلده لبنان، الى مصر.

ومنذ ذلك اليوم اصبح «فارس نمر» يحمل الجنسية المصرية.

وبدأ الرجل يصعد سلالم المجد والشهرة درجة بعد درجة.

وبعد «المقتطف»، اصدر جريدة «المقطم» وغزا بها قطاعات واسعة من جماهير مصر.

وتزوج الرجل وأصبح أباً لأربع بنات، وولد واحد!

وبين البنات الأربع، كان للرجل إبنة جميلة وذكية اسمها:

ـ كيتي..!

كانت «كيتي» ـ منذ صغرها ـ تتميز بلون خاص من الذكاء والحيوية! وعندما كبرت أصبحت تتميز بوفرة حسها الانوثي ودفئها العاطفي! وكانت شبه مثقفة، تجيد الانجليزية والفرنسية وبعض العربية رغم أنها تلقت نصيباً غير قليل من التعليم في مدارس بريطانيا! وكانت قوية الإرادة، صلبة العود ممتلئة الجسم، تعشق النقاش وتجمع الأسرار وتحب الحفلات... والرجال ايضا!

وفي القاهرة، حيث اعتادت أن تقيم مع والدها «فارس نمر»، التقت

«كيتي» بشاب مسيحي من اصل لبناني، يقيم ـ مثلها ـ في مصر، ويحب ـ مثلها ـ أصوله اللبنانية، ويتمتع ـ مثلها ـ بقوة الشخصية ووفرة النشاط، وكان اسمه: «جورج انطونيوس»!

ولم يستطع «جورج انطونيوس» ان يصبح مثل غيره من الانجليز المستشرقين، ان يمشي على خطى الكولونيل «لورنس»، فقرر ان يكون المؤرخ «العربي» الأول الذي يكتب قصة «اليقظة العربية» وتحرير العرب من عبودية الأتراك مع التركيز المتعمد على دور «لورنس» البارز في مثل هذه اليقظة ومثل هذا التحرير.

وحقاً، جاء كتاب «يقظة العرب» بمثابة السيمفونية التاريخية الرائعة التي سطرت أحداث «الثورة العربية الكبرى» وما سبقها وما تلاها من أحداث، بأجمل أسلوب، وأروع بيان، وأصدق حجج، وأعظم تحليل، وما زال هذا الكتاب، وسيبقى، درة في عقد جميع الكتب التاريخية عن العرب المعاصرين في القرن العشرين، ومرجعاً عظيماً ومهماً لكل من يريد ان يكتب عن قصة العرب قبيل الحرب العالمية الأولى وبعدها، مع التركيز على منابع القومية العربية وتطورها ونموّها.

ولما كانت ادارة الانتداب البريطاني في فلسطين حريصة على ان تفتح ابوابها في التوظيف والخدمة أمام جميع الشبّان القادمين اليها من سورية أو لبنان أو مصر دون اي اعتراض بسبب الجنسية أو الدين أو الأصل أو مكان الولادة، فقد قرر «جورج انطونيوس» ان يترك مصر ويتجه الى القدس لكي يضع نفسه وثقافته وشبابه تحت أمرة حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين.!

ووصل «جورج انطونيوس» الى القدس، ومعه زوجته السيدة «كيتي».. كريمة ملك الصحافة في مصر، السيد «فارس نمر باشا»، صاحب «المقطم»، و «المقتطف»، وصاحب الثروة الهائلة المسيطرة على أسهم معظم بنوك مصر وشركاتها ومتاجرها!

ومن ضاحية «المعادي» في اطراف القاهرة، قرر «جورج انطونيوس» ـ ومعه حرمه ـ ان يسكن في ضواحي القدس، وعلى طريق «جبل الزيتون» ـ بالذات ـ وان يبحث لنفسه عن منزل لائق يوفر له كل أسباب السعادة،

فيقيم الحفلات، ويدعو الناس، ويجري الإتصالات، ويكسب الأصدقاء، ويحقق كل ما في نفسه من طموح وشهرة ونجاح!

وماذا يريد شاب مثل «جورج انطونيوس» من وراء حياته الجديدة في مدينة القدس؟؟

ومـاذا يقدر ان يصنع؟ وماذا يستطيع ان يكسب؟ وماذا يمكنه ان يشتغل؟ ماذا؟

بل، ماذا يمكن لشاب مصري، من اصل لبناني، وبثقافة انجليزية، وبزوجة مثل «كيتي» ان يشتغل في بلد مثل القدس؟

وجاء الجواب سريعاً يقول لجورج انطونيوس:

ـ ضع نفسك تحت تصرف سلطات الانتداب البريطاني على البلاد! أخدم «أغراض» هذا الانتداب! إجمع الأسرار! إفتح أبواب بيتك أمام الناس! اكتب المقالات! أعقد الندوات! أنصح الحاكمين! استغل ثقافتك الجامعية التي كسبتها في «اكسفورد» لخدمة السياسة العامة في البلاد ومن أجل تنفيذ صك الإنتداب البريطاني بحذافيره!

وعنـدما راح «جورج انطونيوس» يبحث لنفسه عن المنزل المطلوب استئجاره في طريق «جبل الزيتون» بأطراف القدس، إذ بأبواب السماء تتفتح، وإذ بالمعجزة تتحقق، واذ برسول خاص من لدن مكتب المندوب السامي البريطاني يذهب لمقابلة جورج انطونيوس كي يقول له:

ـ إن سماحة «المفتي» على استعداد لأن يؤجر المنزل الجديد الذي يملكه على طريق «جبل الزيتون»، وأن عليك ان تفاوضه في الموضوع لأن سكناك في هذا المنزل بالذات ستوفر لك ميزة «القرب» من صاحبه، الذي تحرص الحكومة البريطانية على ضمان الإتصال معه، والحصول على أخباره، ومحاولة «ترويضه» لحساب العقل والاعتدال والتفاهم!

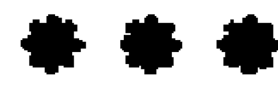
نعم!!. ترويض «مفتي القدس» على يد الساكن الجديد القادم من أرض النيل، والمهاجر من أرض لبنان، والمتخرج من جامعة «اكسفورد» والمتزوج من بنت ملك الصحافة المصرية.!

وليس مهماً ماذا سيطلب صاحب المنزل قيمة للايجار؟! ان المهم ان يتم عقـد الايجـار! إن مكتب المنـدوب السـامي البـريـطاني، ومكتب

السكرتيرية العامة، ودوائر وزارة المستعمرات البريطانية في لندن، كلها تريد لجورج انطونيوس أن يسكن في البيت الذي يملكه مفتي القدس على طريق «جبل الزيتون»، ولأن ذلك هو الضمان الوحيد لكي يصبح «جورج» المذكور قريباً من صاحب البيت، ومن عقله، ومن تفكيره، ومن أخباره.. ايضا، وان يحاول كسب ثقته والتأثير عليه!

ان جورج انطونيوس ـ قد أصبح الشخص المختار ـ الذي سيلعب دور «الجسر الخاص» لكي يعبر من فوقه العرب الى.. الانجليز، ويمر من فوقه الانجليز.. الى العرب !

إنه الصورة الجديدة المطلوبة لشخصية الكولونيل «لورنس» مع الرتوش المطلوبة والتعديل اللازم بحيث تتلاءم هذه الشخصية الحديثة مع الظروف القائمة في البلاد والقضايا المعلقة بين العرب واليهود... والانجليز!



وبعد ان تم اللقاء بين «سماحة المفتي» من جهة وجورج انطونيوس من جهة اخرى، خرج هذا الأخير وفي جيبه صك الإيجار للمنزل الجديد الذي يملكه الأول على طريق «جبل الزيتون»، والذي لا يبعد اكثر من خطوات قليلة من منزل المفتي القديم الذي ما زال يسكنه بعض افراد العائلة ومن بينهم ابناء عمومته وزوج كريمته، وشقيقته!

وراح «جورج انطونيوس» يؤدي مهمته الخفية على الوجه الأكمل! لقد احاط البيت بحديقة غنّاء واستورد الخدم من مناطق النوبة بمصر واشترى أفخم انواع الأثاث، ثم علّق على مدخل البيت الرئيسي يافطة كبيرة تحمل الآية القرآنية التي تقول: «أدخلوها بسلام آمنين» ثم راح يقيم الحفلات ويدعو كبار الشخصيات العربية ويدعو معها، كبار المسؤولين الانجليز، كي يتحقق اللقاء، ويتم التفاهم، وتزول المشاكل، ويسود السلام فوق ارض السلام.!

وكانت معه دائما، وترافقه دائماً وتساعده دائماً وتلتزم بتوجيهاته دائماً، وتستقبل السيدات وتوزع الابتسامات وتملأ الجو بشراً وحبوراً، زوجته المصرية اللبنانية الطموحة الشابة، السيدة كيتي.!

وكان الضيوف يأتون اليها من كل انحاء العالم! فهذا ملك البانيا، وهذا ملك الأفغان، وهذا المستشرق البريطاني العلاّمة الاستاذ «داوتي» الذي تتلمذ لورنس الشهير على يديه. وهذا البروفسور البريطاني المستشرق المستر «لين»، وهذا المؤلف الشهير المستر «ريتشارد بيرتن» مترجم كتاب «الف ليلة وليلة» الى الانجليزية! وهذا الجنرال «ديل» قائد القوات البريطانية في فلسطين، وهذا المندوب السامي السير «أرثر واكهوب»، وهذا المستر «ماكفرسون» السكرتير العام، ثم ها هم الزعماء العرب يقفون معهم ويختلطون في صفوفهم ومن بينهم موسى العلمي، وجمال الحسيني، وعمر الصالح البرغوثي، والمحامي أبكاريوس، وهنري كتن، مع كبار الموظفين والمحامين والاطباء من العرب، والانجليز.. واليهود!

ما أحلى هذه الأجواء الخاصة بالنسبة للسيدة كيتي ولزوجها الأكسفوردي! إن فيها رائحة لورنس الشهير بكل ما تحمله هذه الرائحة من مغامرات وجاسوسية ومال وحب وأسرار ونساء ومؤامرات!

وكان لا بد لجورج انطونيوس ان يلتحق بمنصب حكومي معروف لكي يستطيع الاستمرار في اداء مهمته السياسية الخفية تجاه المفتي. لقد اسندوا اليه مركزاً رفيعاً في دائرة المعارف بحكومة فلسطين. وكان كما يشهد له الجميع مثال الموظف الكفؤ المليء نشاطاً وتنظيماً، واخلاصاً! وعندما مرت السنون، وجاء عليه الدور لكي يصبح مديراً لدائرة المعارف بحكم مدة خدمته وأسبقيته وكفاءته، صدر الأمر بنقله الى دائرة السكرتيرية العامة للحكومة كي لا يتبوأ منصب مدير المعارف رجل من أصل.. عربي، حتى ولو كان اسمه: جورج انطونيوس!

وعلى الفور، وتحت ضغوط «النصائح» التي انهمرت فوق رأسه من كبار اصدقائه الانجليز والعرب، أعلن جورج انطونيوس استقالته من الحكومة وتفرغ ـ تماماً ـ لمهماته السرية الأخرى!

وتعددت زيارات الرجل السرية لزعماء العرب في القدس وبالأخص، لسماحة المفتي! إنه ليس غريباً على القيام بمثل هذه الزيارات المشبوهة لحساب الانجليز! فعديله وصهره هو السير «ولتر سمارت» المستشار

السياسي في السفارة البريطانية بمصر! ووالد زوجته «كيتي» هو فارس نمر باشا، الصديق الحميم للجنرال «كرومر» حاكم مصر! إن حاضره لا يختلف مطلقاً عن ماضيه، وشخصيته وميوله لا يتعارضان مطلقاً مع الشخصيات الأخرى في عائلته وبين اصهاره! لقد انطلق كالصاروخ ابان ثورة العرب في عام ١٩٣٦ لكي يوجه الاحداث من خلال صداقته مع المفتي صوب الاتجاه الذي تتمناه بريطانيا. وهكذا كانت حاله حتى نهاية عام ١٩٣٩ واشتعال الحرب العالمية الثانية! وعندما مات جورج انطونيوس في عام ١٩٤٢، قررت زوجته كيتي ان تسد الفراغ وان تكمل الرسالة وان تحقق ما عجز زوجها الراحل عن تحقيقه!

كانت هذه السيدة ـ بكل صراحة ـ لا تتمتع بقسط كبير من الذكاء الذي تحتاج اليه كل امرأة تعشق المغامرات وتمشي في الدهاليز المظلمة. كانت تعشق الكلام على الناس، لا على المبادىء. وكأنت كريمة في حفلاتها لا بآرائها، ورغم ان زوجها «جورج» لم يكن عبقري الذكاء، الا أنه كان اكثر ذكاء منها! ورغم ان «جورج» لم يدرس السياسة وانما درس الهندسة، ولم يمارس في شبابه الدبلوماسية وانما مارس تجارة القطن مع أبيه، الا أنه كان سياسياً بدمه، وكان دبلوماسياً بطبعه وبميوله. ورغم ان «جورج» لم يكن سعيداً في حياته الزوجية مع زوجته «كيتي»، حيث انفصل عنها لعدة مرات، ثم عاد اليها عدة مرات، الا أنه استطاع ان يكون فارسها المُدلّل، وراعيها الأول، وان يظللها بذكائه فلا يبدو غباؤها، ويحميها بدهائه فلا يظهر جهلها! ورغم انه مات نتيجة انفجار «القرحة» في معدته، وان موته قد وقع في احدى الفترات التي كان فيها الزوج منفصلاً عن زوجته، الا أن موت الزوج نزل كالكارثة فوق رأس زوجته كيتي، فقد تعرّت شخصيتها وظهرت على حقيقتها وتكشفت ابعاد نزواتها واحلامها امام الناس!

وراحت «كيتي» تبذل المجهود المضني لكي تعوّض خسارتها في فقدان زوجها. لقد تضاعف عدد حفلاتها. وتضاعف عدد ضيوفها. وتضاعفت نفقاتها. وتضاعف عدد الأصدقاء الجدد، والعشاق الجدد، ايضاً!

ورغم ان زوجها الراحل كان دقيقاً في اختيار اصدقائه أو اختيار

ضيـوفـه، الا أن «كيتي» ـ من بعده ـ لم تعد تكترث كثيراً للحسابات والمعـايير التي كان يتمسك بها زوجها، ففتحت قصرها للجميع، ودقت بأصـابعهـا المخملية الرقيقة فوق قلوب مجموعات جديدة من الشبان العرب المشهود لهم بالشهرة او النفوذ! وكانت فخورة بأن تحدث ضيوفها دوماً عن الشهادة التاريخية التي أدلى بها زوجها في عام ١٩٣٦ أمام لجنة «بيل» الملكية للتحقيق، ولكنها نفسها، لم تكن قرأت تلك الشهادة، ولم تحفـظ منها كلمة واحدة! وما اكثر ما تغنت «كيتي» بعظمة زوجها «جورج»، وما اكثر ما كانت كيتي تمقت زوجها وتلعنه في سرها! كانت امـرأة ليس كباقي النساء! قلبها مع العرب وعقلها مع الانجليز! تكره النهار لأنه ليس ليلاً، وتحب الليل لأنه لا يكشف العورات التي يكشفها النهار! تعشق الشبان الصغار ولا تستريح الا لحديث الكهول! تبكي على الزيجات المحطمة عند اصدقائها وتسعى سراً لكي تُحطم بيديها كل زواج سعيد! تشتم كبار الانجليز في وجوههم، وتشتم كبار العرب في غيابهم. ولم تترك شخصية بريطانية معروفة في دنيا الشرق الاوسط الا ودعتها للعشاء او السهرة. وقد دخل منزلها من جنرالات بريطانيا ـ من امثال مونتغومري، والكسندر، واوكنلك، اكثر من الجنرالات الذين دخلوا وزارة الحرب في بريطانيا! ولا اعرف صحفياً اميركياً أو بريطانياً مشهوراً الا ودخـل بيت «كيتي انطونيوس» وسهر معها وتعرَّف على أصدقائها من زعماء العرب في فلسطين! كانت تصرخ في وجه الجميع قائلة: «أنا هنا لكي أفسر الانجليز للعرب، وأفسر العرب للانجليز!» وكانت فخورة وهي تقول للجميع في وسط بيتها خلال الحفلات. «أنتم هنا في منزل مفتي فلسطين!» وكانت سخية في توزيع قبلاتها على المدعوين، كسخائها في تقديم أطباق «التبولة» والشورما والحمص، قبل ان يحين موعد العشاء!

وفي عام ١٩٤٨، ومع احتلال اليهود لحي «الشيخ جرّاح» بالقدس، وتعدد المعارك على طريق جبل «الزيتون»، وتبادل اطلاق النار والقنابل، احترقت المكتبة والحديقة والأثاث، في المنزل التاريخي الكبير الذي بناه «مفتي فلسطين» وسكنه جورج وكيتي انطونيوس!

وخـرجت كيتي هائمـة على وجههـا، تبحث عن العـزاء لنفسهـا،

ولأصدقائها ولمجموعة من أولاد قرية «دير ياسين» التي قامت عصابة الأرغون، وبأوامر من «مناحيم بيغن»، بالقضاء على العشرات من شبابها وفتياتها وشيوخها ودفنهم أحياء!

وهكذا ولد في القدس مشروع إنساني واجتماعي جديد اسمه: «دار الاولاد»!

وكأن كيتي انطونيوس قد أرادت ان تضمن لمشورعها المذكور دخلاً مالياً منتظماً، فقررت ان تفتح مطعماً عاماً كي تنفق من الأرباح العائدة اليها منه على إطعام واسكان هؤلاء الأولاد المشردين!

وعاش المشروع بضعة سنوات ثم قررت كيتي ان تتنازل عنه.. فجأة!

لعلها أحست بقرب وقوع «النكسة» في صيف عام ١٩٦٧ فقررت ان تبيع منزلها الذي كانت قد اشترته بعد ضياع اثاثها ومكتبة زوجها في منزلها على طريق «جبل الزيتون»، وان تسافر الى بيروت!

هكذا، فجأة، وبلا مقدمات، وقبل ان تقع النكسة بأسابيع قليلة، جاء أحد وزراء الأردن من المحامين المعروفين، وعرض على «كيتي» أن تبيع منزلها الى مؤسسة تبشيرية اجنبية ليست بعيدة عن الديانة اليهودية ولا عن النفوذ اليهودي! وحاول «سعيد علاء الدين ـ وكان احد الاعضاء في مجلس ادارة «دار الاولاد» ـ ان يعترض على عملية البيع وان يقاومها ويمنع تنفيذها، لولا أن السيدة «توتو» ـ او ثريا ـ ابنة السيدة كيتي قد اتصلت به وطلبت منه ان «يلزم حده» لأن امها مصممة على تصفية املاكها في القدس والهجرة الى... لبنان!

ترى هل كانت كيتي تعلم مقدماً بقرب حلول «النكسة»، وقرب مجيء اليهود؟

يجوز؟!

ترى هل بدأت «كيتي» تشكو من امراض الشيخوخة بعد ان داهمها الروماتزم وآلام المفاصل فقررت ان تستريح؟

يجوز!

لقد مات زوجها وهو دون الخمسين من عمره، وها هي «كيتي» قد بلغت سن السبعين مع كل ما تحمله هذه السن من أمراض وأوجاع

ومتـاعب، فكـان عليهـا ان تسافر الى حيث يتوفر لها العلاج والراحة والاطمئنان بعيداً عن اوجاع «القدس» وآلامها وأحزانها وأطفالها!

وسافرت كيتي مع ابنتها الوحيدة ـ «توتو» ـ الى بيروت!

ولم تكن العلاقة بين الأم وابنتها أحسن حالا مما كانت عليه علاقة «كيتي» بزوجهـا الراحل! تلك هي حياة العظماء والمشاهير. يلتقون مع ضيوفهم ويتفرقون مع انصراف هؤلاء الضيوف! شقاؤهم محصور في داخل بيوتهم، وسعادتهم موجودة في خارجها! يرسمون الابتسامات فوق شفاههم أمام الناس، ويلعنون بعضهم أمام انفسهم! يقضون العمر في الحديث عن فضائح البشر وينسون انهم ـ ايضاً ـ بشر وان لهم فضائح! يتغنون بأصول الإتيكيت بعد غروب الشمس ويحطمون الكؤوس فوق رؤوسهم عند الصباح!

وكانت كيتي تروي لضيوفها بعض الحكايات عن حياة زوجها الراحل، وكيف استهتر بصحته من اجل الخمرة والسهر، وكيف كان يخلع ملابسه ويرقص عارياً أمام الناس، وكيف بدأ حياته في القاهرة كمراسل لمؤسسة الدراسات العالمية الاميركية في نيويورك ثم انتهى كمراقب عسكري على الأخبار لحساب الانجليز على الصحف المصرية!

كانت كيتي تكـره زوجها، ولذا فقد كرهت الزواج وكرهت الزيجات السعيدة وانصرفت الى الحب، والعشاق.

وما اكثر الزيجات «المقدسية» الهانئة التي تحطمت وانتهت بسبب حفلات كيتي وزوّارها وأحاديثها!

وما اكثر الزيجات التي تمت نتيجة مساعي كيتي وتدبيرها ونشاطها واتصالاتها التلفونية!

كانت تقوم بدعوة اصدقائها الى حفل عشاء «صغير» وهي تقسم لهم بأن عدد الحضور لن يزيد عن ثلاثين مدعواً. وعندما يكتمل الحضور يجد الأصدقاء ان عدد المدعوين الى ذلك العشاء يزيد على مائتي شخص!

وكثرت الحفلات، وكثر اللغط والكلام الجارح على حياة «كيتي» وعلى اعمـالهـا، وعـلى الجهات التي تخدم اغراضها! وعندما جاء صديقي

الدكتـور محمود عزمي ـ الدبلوماسي العريق ومندوب مصر الأسبق في مجلس الأمن الدولي ـ الى القـدس مع زوجته الروسية في عام ١٩٤٥ وقـامت «كيتي» بدعـوتهمـا لتناول العشاء معها، رفض محمود عزمي الدعوة وقال لي ضاحكاً:

ـ لا أريد ان اعود غداً الى القاهرة، ويتهمني الناس بأنني تناولت العشـاء في بيت «كيتي انـطونيـوس» مع رجـال المخابرات الانجليزية وأقطاب الامبراطورية!

وقضت كيتي بقيـة سنوات عمرها في بيروت، الى ان اشتعلت حرب لبنان، فسافرت الى الاسكندرية.

ولم تجد احداً في مصر يسأل عنها او يعتني بها!

لقد داهمها السرطان، وأشقاها الروماتزم، واصيبت بالعمى، فدخلت مركـزاً دينيـاً يشبـه «الديـر» تشرف عليـه جماعة من اليوغوسلافيين القـدامى، واحتلت غرفـة نوم صغـيرة كانت تشـاركهـا فيهـا عجـوز يوغوسلافية على شاطىء الاسكندرية.

لم يسأل عن كيتي احد .

ولا حتى ابنتها ثريا.!

ولا حتى شقيقاتها..

ولا حتى أحد من عشرات السفراء والزعماء والجنرالات الذين احتفلت بهم ودعتهم الى سهراتها المشهورة! لقد انفض الجميع من حول كيتي انطونيوس، فقد مات من مات واختفى من اختفى. حتى المنزل الكبير الذي استأجره زوجها من «مفتي القدس» لكي يكسب من ورائه صداقة صاحب البيت، ويُروّضه، ويُعرّفه بالانجليز ويعرف الانجليز به، حتى هذا البيت الأبيض على الطريق الرئيسي الى جبـل الزيتـون، ضاع وتبدلت معالمه وسقط في يد العدو.

لقد تحول البيت المذكور الى فندق. ثم دخل اليهود الى شرقي القدس في عام ١٩٦٧ فصادروا البيت لحساب «ادارة املاك العدو»، وارهقوا اصحاب الفندق بالضرائب والضغوط حتى ارغموهم على بيعه..

وباع احد افراد عائلة «مروّم» منزل «مفتي القدس» الى اليهود!

وكتب السطر الأخير في قصة جورج انطونيوس، وزوجته كيتي، وكتاب «يقظة العرب»، ومؤسسة «دار الأولاد»، والنسخة العصرية الحديثة «للورنس» العرب، قبل، وخلال الحرب العالمية الثانية!

وقالت «التايمس» في رثائها لها في عام ١٩٨٤: «لقد ماتت السيدة التي قضت سنوات عمرها وهي تحاول أن تحفظ «لفلسطين» ذكرياتها، وأسمها، ووهجها، وقضيتها!»

وقالت لي السيدة «كيتي» قبل وفاتها بعامين اثنين:

ـ كنت اكبر من زوجي بقليل، وكانت قضية فلسطين اكبر مني ومنه، وكنت انا وزوجي، أصغر من المهمة التي جئنا الى القدس وتركنا مصر من اجلها!

وعندما سألتها ان تفسر لي كلامها وتخبرني عن هذه «المهمة» التي جاءت مع زوجها في سبيلها، اغمضت كيتي عيناها، ورفعت رأسها الى اعلى وقالت وكأنها تبكي:

ـ انا عمياء. انا لا ارى..

الثالثة

قوت القلوب أم قوت الجيوب ؟

عزيزي الأستاذ ناصر

لا تزعج أعلم أنه كان لنا أحلامنا .

كنت أدركها لأسباب وأسباب . ربما كان لابد أن يكون

التي جمعتنا في قارة منسية . أنه أصالة الأيام والمستقبل

إسمه الآن سوف تعثر على ما لا شيء ولهذا أتمنى

دنيا حزينة . لأنني أعلم أنه ما ستتوقد نابع عن صدق

أدركه . ولهذا أتمنى وأطلعك على ما جرى في . . .

٩

رسالة من قوت القلوب الدمرداشية الى المؤلف

كانت اخبارها تشبه الشائعات: خليط من بعض الحقيقة وبعض التهويش! وكانت قصص حياتها تشبه الروايات: مزيج من المقدمة وصراخ الابطال وحوار الممثلين ثم انتحار مؤلف الرواية او مخرجها أو بطلها الأول! وكانت الشائعات القديمة الآتية من صحراء الجزيرة العربية قبل ألف سنة، تقول أن والي «المدينة» رأى في منامه مجموعة من الحجاج الايرانيين وهم يحفرون خندقاً سرياً تحت الأرض يربط بين موضع خيامهم ومقام قبر الرسول الأعظم ـ صلعم ـ بهدف الوصول الى القبر النبويّ وسرقة الجثمان الطاهر ونقله سراً الى ايران مما دفع بذلك الوالي الى الاستعانة بالجنود ومهاجمة خيام الحجاج الايرانيين ودفنهم أحياء في ذلك الخندق الذي حفروه والحفاظ على قبر الرسول الكريم من اي عدوان خارجي او من سرقة مجبولة بالأثم والعدوان.!

وتستمر الشائعات حول هذا الموضوع لتقول بأن الوالي قد أراد ان يطمئن على سلامة القبر الطاهر من عبث قد يكون لحق به أو أصابه على يد حجاج الفرس فاستعان على الأمر بشيخ جليل يشهد له الناس جميعاً بالتقوى والصلاح وطلب منه ان يزور القبر الكريم ويتفقد الموضع الطاهر وينبىء الناس بما يرى! وكان هذا الشيخ هو السيد «الدمرداش» الذي اصبح فيما بعد محاطاً بهالةٍ من الاحترام والتبجيل، ومعززاً بالكرامات والمكرمات، وأصبح بيته كعبة الناس من كل مكان، وأصبحت مجالسه مقصد الزوار من كافة بلاد المسلمين، واضحى كلامه موضع النقاش والبحث والتفكير مما حمله على ترك «المدينة» والهجرة الى مصر طلباً للابتعاد عن الأزمات والمشاكل... والزوار!

وفي مصر، تقول الشائعات أن علماء المسلمين فيها احتفوا بمقدم

الشيـخ «الدمـرداش» من الجـزيـرة واكرموا وفادته، وأن الشيخ قام بتأسيس «طريقة» دينية جديدة قائمة على المذهب السُنّي وقراءة الكتاب الكريم، وإقامة الشعائر وإحياء الأزكار والاحتفال بالمناسبات، وانه بقي وفياً لهذه «الطريقة» الى ان مات ودفن في المقام المعروف بمقام «سيدي محمد الدمرداش»» بالقاهرة!

وتقول السيدة «قوت القلوب الدمرداشية» انها تنحدر من نسل هذا الشيخ الدمرداشي الجليل!!

وتقـول ايضـاً، وفي روايـة مختلفة، انها قريبة من عائلة السلطان المغربي «سيدي محمد بن عرفه» الذي عيّنه الفرنسيون والياً على المغرب بعد ان حملوا الملك محمد الخامس الى منفاه في جزيرة مدغشقر في اوائل الخمسينات.

ومهمـا اختلف النـاس في أصول هذه السيدة، وهل هي عربية من الحجاز أم بربرية من المغرب، فان احداً لا يستطيع ان ينكر بأن «قوت القلوب الدمرداشية»، كما ولدت وكما عاشت في الستين سنة من عمرها الحـافـل بالأحـداث والذكريات، قد استطاعت ان تفرض شخصيتها وبصماتها لا على المجتمع المصري وزعماء مصر فحسب، بل وعلى المجتمع العربي وزعماء العرب ايضاً!

وسيقول التاريخ ان زعماء عرب المشرق، وخاصة عرب سورية ولبنان، لم يجدوا موئلاً مصرياً يجمع شتاتهم، أو منزلاً مصرياً يحتفي بوجودهم، او شخصية مصرية تسهر على خدمتهم وتدق أبواب الوزراء والزعماء أمامهم، سوى «قوت القلوب الدمرداشية» ومنزلها الفخم بجوار مبنى وزارة الخارجية المصرية، المطل على النيل، بمدينة القاهرة.

وسيقـول التـاريـخ ان أنطون الجميّل باشا، رئيس تحرير جريدة «الاهرام» القاهرية، وأعظم صحافيي العرب في القرن العشرين، لم يفتح مكتبه الشهير في دار «الاهرام»، ولم يضع مجلسه الليلي التاريخي تحت إمـرة زعماء لبنان وسورية وفلسطين وتونس في اعقاب الحرب العالمية الثانية، الا تشبهاً بما كانت تفعله «قوت القلوب الدمرداشية» في خدمة هؤلاء الزعمـاء العرب الذين وفدوا يومذاك الى القاهرة إما للبحث عن

العون السياسي أو الانضمام الى عضوية الجامعة العربية أو بغية شرح قضايا بلادهم لدى الرأي العام المصري وفي صحافة اكبر وأعظم الدول العربية قدراً ومكانة ونفوذاً!

لقد كان انطون الجميل في «الاهرام»، ويساعده «أسعد داغر» رئيس قسم الاخبار العربية فيها هما الملجأ الذي احتفى برياض الصلح، وسليم تقلا، وحميد فرنجية، وسعد الله الجابري، ومردم، والقوتلي، وموسى العلمي، والحبيب بورقيبة، ومعظم رجالات العرب خلال وجودهم في مصر، كما كان قصر «قوت القلوب الدمرداشية» هو «الصالون» الذي احتفى بكل واحدٍ من زعماء العرب وأقام الحفلات الساهرة على شرفه وفتح أمامه مجالات التعارف مع زعماء مصر وسلّط عليه أضواء الصحافة المصرية وأحاطه بكل تكريم وتقدير واحترام!

ولعل نوري باشا السعيد ـ وهو المعروف بذكائه ودهائه ـ كان أسبق رجالات العرب الى اكتشاف قيمة هذه السيدة المصرية، فما أن صدر الأمر بتعيينه وزيراً مفوضاً للعراق في عام ١٩٣٩ بالقاهرة بعد انقلاب عام ١٩٣٧، حتى وقع أختياره على المنزل الخاص الذي كانت تسكنه السيدة «قوت القلوب» في حي «الزمالك» بالقاهرة ليصبح مقراً رسمياً للمفوضية العراقية في عاصمة مصر، واشتراه ـ يومذاك ـ مقابل ثمن يزيد على ثلاثين ألف جنيه مصري! وما زال هذا المبنى هو المقر الرسمي لسفارة العراق بالقاهرة حتى يومنا هذا! وما زالت قصص نوري السعيد مع قوت القلوب تتردد حتى اليوم في محافل القاهرة..

وقد التقيت بالسيدة قوت القلوب الدمرداشية، لأول مرة، في احدى الحفلات التي كانت تقيمها في شتاء عام ١٩٤٦ تكريماً للوفود العربية الى جلسات مجلس الجامعة العربية. وكان قصرها المطلّ على النيل ـ بجوار فندق سميراميس ـ هو المقر المختار لتلك الحفلات. وكان هذا القصر الجميل الذي يلفت الأنظار بلونه الخاص وطرازه الهندسي المعروف، ملكاً للثري المصري اليهودي، «قطّاوي باشا»، ثم اشترته منه «قوت القلوب» بعد ان باعت قصرها في حي الزمالك الى العراقيين.

ترى من هي قوت القلوب وما هي الطريقة الدمرداشية؟

يقولون عنها ـ وما اكثر ما يقولون ـ انها تنحدر من سلالة أحد أمراء المماليك الذي كان يسمى «أطا مرتاش»! اي انها ليست مغربية وليست حجازية! ويقول البروفسور «مورو بيرغر» استاذ علم الاجتماع في جامعة «برنستون»، والحجة الدولية في الكثير من قضايا الشرق الاوسط الدينية والاجتماعية، انه شهد خلوة «دمرداشية» في مصر القديمة وبالتحديد في حي العباسية بمصر، وداخل مبنى يخص أتباع الدمرداشية حيث رأى الأثاث الفخم والصالونات الكبيرة والتقى بالمئات من الدمرداشيين الذين ارتدوا الثياب النظيفة وظهروا بالمظهر الحسن، وعندما ظهر «الشيخ» على المنبر وراح يقرأ صفحات من تاريخ الحركة الدمرداشية، ويسرد الأسماء والتواريخ، كان الاتباع يستمعون اليه بكل وقار، ويهزون رؤوسهم علامة التكبير والتمجيد، ويترنمون بعظمة اسلوب المحاضر ورفعة لغته! ثم تبعه خطيب آخر استطاع ان يثير عواطف الحاضرين ويلعب بأعصابهم. ثم وقف خطيب ثالث وبعده رابع وكل منهما أشاد بعظمة ذلك الاحتفال، وخلود معناه وأبعاده ونتائجه. ثم انصرف الحضور الى قاعات الطعام، وكان بعضهم قد التزم بفريضة الصيام في الشهر المبارك، فجلسوا على الأرض وتناولوا طعامهم البسيط من قطع الخبز الناشف وكؤوس الماء، بينما انصرف البعض الى غرف مجاورة حيث أعدت لهم أطباق شهية من الأسماك واللحوم والفواكه. وبعد ان انتصف الليل، اتجه بعض الرجال الى ناحية المسجد واصطفوا صوب الجدار وانقسموا الى مجموعات صغيرة وراحوا يتعبّدون ويقرأون الكتاب الكريم ويؤدون صلاة التراويح داخل غرف صغيرة ضيقة اشبه بزنزانة السجون، ويبقون فيها لعدة ايام مخصصة للعبادة والتأمل والزهد في مغريات الحياة والإمعان في التصوف والعبادة!

وقد نشأ «التصوف» وانتشرت الطرق الصوفية منذ اكثر من ألف سنة! وعلى مرّ الزمن تبدلت صورها، وتغيرت معالمها، واختلفت اجتهاداتها. وكانت هذه الطرق تزهو عندما كانت الآراء الدينية هي المسيطرة على العلاقات الاجتماعية، أو كانت سلطة الدولة أقل نفوذاً وتحكماً في المجتمع، أو كان الرجال يعملون في صورة فئات صغيرة

ومستقلة بعالمهم الاقتصادي الصغير. بينما كانت شمس هذه «الطرق» تضعف وتشرف على الغروب في ظل الأنظمة المتسمة بالقسوة او التسلط او التدخل في شؤون الناس او مراقبة النشاطات الدينية، كما جرى لها في ظل حكم المماليك على مدى ثلاثمائة عام في مصر ودمشق وحلب خلال القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر ميلادية، وخلال بعض السنوات الاخيرة المعاصرة في مصر وسورية. وكذلك، فقد كان الضعف يفترس عود هذه الطرق ويكاد يذهب بها الى الضياع عندما بدأت الحكومات العربية المعاصرة تتبنى النظريات «الدنيوية» في التعليم وفي المجتمع، وبدأت المدن العربية في الشرق الاوسط تكبر وتتّسع ويكبر معها الانتاج الصناعي والطابع الحضاري الحديث في مختلف مظاهر الحياة.

وقد استمرت الطريقة «الدمرداشية» تمتاز بالتربية الذاتية والخلوات الفردية والتعبّد الفردي. انها مجرد واحدة من بين اكثر من «ستين» طريقة دينية وصوفية اخرى في مصر وحدها، تنتسب كلها الى «المجلس الأعلى للصوفية»، أو «المجلس الصوفي الأعلى» الذي تم تشكيله بموجب «فرمان» صادر عن الخديوي في عام ١٩٠٣ ميلادية، تحددت بموجبه سلطات المجلس المذكور وعلاقته بالدولة، وانتخاب الاعضاء، وتعيين النائب.. الى آخره.

كما استمرت الطريقة الدمرداشية ـ كغيرها من الطرق الصوفية في مصر ـ تحاول ان تجمع في مسلكها وتصرفات انصارها وخطوات المسؤولين فيها شيئا من مظاهر الاحتفالات الدينية الصاخبة التي يسيطر عليها التطرف في الاداء، والصخب في الصوت، والضجيج في الابتهالات، مع الحرص على المساهمة في خدمة المجتمع ورعاية الفقير وتعليم الأولاد، ومحاربة الأمراض والتطور المطلوب مع خطوات الزمن.

ترى، اين كان موقع «قوت القلوب الدمرداشية» من هذه الحقائق؟

لقد عاشت «قوت القلوب الدمرداشية»، وهي تسبح عكس التيّار بالنسبة لانتمائها «الصوفي» او مسلكها العام أو تصرفاتها الشخصية!

وهناك حديث شريف يقول بالحرف: «الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فان لم تكن تراه فانه يراك!»

وهنـاك رأي تاريخي مشهـور منسوب في نهاية القرن التاسع عشر للمؤرخين الشهيرين «دبونت»، و «كوبولاني» 'Depont and Coppolani' يقولان فيه «ان الصوفي بطبعه ونشأته ومسلكه إنما هو العدوّ الاول لكل السلطات التقليـديـة، وأن على الدول الإسـلاميـة والدول الأوروبيـة المسيـطرة على بعض الأراضي الإسـلامية ان تعرف هذه الحقيقة وان تتعامل معها!»

وأخـيرا، فان البروفسور الاميركي «مورو بيرغر» يقول في كتابه عن «الاسـلام في مصر المعـاصرة» أن «في الصـوفيـة ـ من حيث تاريخها الاجتمـاعي ـ ثلاث تنـاقضـات هي، انهـا ـ اولا ـ أي الصوفية، قد أصبحت الرد التقليدي او العادي على الفقه الاسلامي المستقيم. وانها ـ ثانيا ـ رغم كونها ثورية في جوهرها، الا أن اصحابها من الصوفيين اصبحـوا اكثـر الناس اتساماً بالجدية والتوهج[1] وانها ـ ثالثاً ـ ورغم كونهـا تتسم بالتـوهج والدفاع عن الدين الاسلامي ضد الكفار وغير المسلمين وبصورة لا هوادة فيها ولا اعتدال، الا ان بعضهم ما زال يرى في الصـوفي صورة واضحـة للإنسـان الثوري المعادي لجميع الحكام المسلمـين! إن الصـوفي يستمـد قراره الذاتي في الانسحاب من حياة المجتمع، والانعزال الى التقشف والزهد والوحدة من صميم نفسه.!»

ومرة اخرى نتساءل: أين وقفت السيدة قوت القلوب الدمرداشية من جميع هذه القضايا ومن جميع هذه المعاني؟

يجب، وقبل الإجابة على هذا السؤال، أن أسرد بعض ما كنت اعرفه عن السيدة «قوت القلوب» من خلال صداقتي معها، وزياراتي لمنزلها واختلاطي بأصدقائها وبعض اقاربها، وخاصة إبنتها السيدة «زينب»، الزوجة الأولى للزميل الصحافي الراحل الاستاذ «علي أمين».

فقـد كانت «قـوت القلوب» هـي الإبنة الوحيدة للشيـخ «عبد الرحيم الدمرداش» الذي كان يعتبر نفسه شيخ الطريقة الدمرداشية في مصر. وكان والدها الشيخ على جانب كبير من الثراء إذ كان يملك المساحات الواسعة من الأرض الزراعية اضافة الى الكثير من المباني والدور في اكبر شوارع مصر والاسكندرية. من هنا، فقد نشأت السيدة «قوت القلوب»

في جوّ ارستقراطي مليء بأسباب الرفاهية والعز وبعيد كل البعد عن عالم الزهـد والتقشف الذي يتمشى مع طبيعة الصوفي وأسلوب حياته! وقد تزوجت «قوت القلوب» من مواطن مصري يقلّ عنها وجاهة وثراء فاحتفظت بحق العصمة في يدها، ورزقت منه بثلاثة أولاد وبنت واحدة. وعندما توفي والدها، بادرت «قوت القلوب» الى اطلاق لقب «الشيخ» على ولدها البكر الذي أصبح معروفاً باسمه الجديد «الشيخ احمد» وذلك تمهيداً منها لكي يحل الحفيد محل الجدّ ويصبح شيخاً للطريقة الدمرداشية في البلاد..!

وقـد ترك الشيخ عبد الرحيم الدمرداش ميراثاً ضخماً من الأموال والعقارات لأبنته قوت القلوب. كما ترك لها مستشفى خيرياً خاصاً يحمل اسمه. وقد مكّن ذلك قوت القلوب من ان تتسلح بأرفع ما قد تتمناه الفتاة من علم وثقافة واجادة للغات الأجنبية. كما استطاعت بما لديها من مال أن تختلط بأكبر شخصيات مصر وان تحتفي بأرقى الوزراء والسفراء والأمراء في حفلات ومواسم لا تنتهي كانت تقيمها في صالونات قصرها الفخم وتقدم خلالها أغلى انواع المأكولات وأشهى الأطباق الشعبية التي كانت تتعمد ان تطلق عليها اسماء من عندها، فتُسمي طبق البامية بطبق «بشائر الربيع» وتسمي «ديك الحبش» بشرائح «مشكلة العالم»، ثم تتقصد ان تدعو الزوار للأطلاع على المكتبة الهائلة التي كانت تخص والدها وتوزع مؤلفاتها باللغة الفرنسية على اصدقائها وكبار ضيوفها، وتمشي بين صفوف المدعوين وكأنها ملكة عليهم... فقد كانت فخورة بمالها، وفخورة بأسمها، وفخورة «بطريقتها»، وفخورة بقصرها، وفخورة بقدرتها على دعوة خمسمائة شخص في ليلة واحدة جاعلة كل واحد منهم يشعر بأن الحفلة قد اقيمت تكريماً له بالذات وأن صاحبة الحفل غارقة في حبه، وان كمال السهرة لم يكن يتم على تلك الصورة لولا وجوده فيها، وان جو الحفلات التي تقيمها قوت القلوب يتميّز بلونه وطابعه عن أي جو لأية حفلة اخرى، حتى الحفلات التي كانت تقيمها الأميرة «شويكار» ـ أخت الملك فؤاد ـ وحتى حفلات «سيدات مصر» و «الهلال الاحمر» التي كانت ترعاها ملكة مصر و «يشرفها» بالحضور جلالة الملك فاروق.! وكانت

قوت القلوب ـ اضافة الى سهراتها ومآدبها ـ تحرص على ان تقيم الندوات الأدبية وترعى المواسم العلمية وتنفق بسخاء على بعض المشاريع الخيرية وتحرص ـ ايضاً ـ على ان تبقى دائماً تحت الأضواء ويبقى اسمها دوماً على ألسنة الناس! كان المال هو سلاحها الأول. وكانت ثقافتها واسمها وقصرها هي اسلحتها الباقية. لقد كانت ـ رحمها الله ـ تتمتع بثروة مالية يحسدها عليها كل الناس، وكانت كذلك تتمتع بثروة طيبة من اللحم والشحم! ولا اعرف وزيراً عربياً واحداً أو رجل دولة من رجالات العرب لم تدعه قوت القلوب الى قصرها خلال وجوده في القاهرة! كانت اقرب نساء مصر الى قلب «نوري السعيد باشا»، رئيس وزراء العراق وحاكمه المطلق حتى عام ١٩٥٨.. وكان سفراء العرب، ومعظم السفراء الأجانب يتسابقون الى دعوتها لحضور حفلاتهم الرسمية. وكانت تتفنن في اختيار اثوابها، ولا ترتاح الا الى الالوان الفضفاضة التي تلفت النظر! وكانت مجوهراتها تلفت الانظار! ونوعية صوتها الرفيع المرتفع «يلفت».. الآذان! وكانت ـ وقد جمعت المجد من اطرافه ـ تصر على ان تصبح.. صحافية! ولم تداهمها جرثومة الولع بالصحافة الا بعد ان تزوجت إبنتها الوحيدة. زينب ـ من الصحافي «علي أمين» احد صاحبي دار «أخبار اليوم» في القاهرة. وعندما قامت ثورة ٢٣ تموز (يوليو) وأحست قوت القلوب أن رياح التغيير قد بدأت تهب على مصر، وأن اركان النظام الملكي ـ ومن بينهم أصحاب الملايين والقصور والألقاب ـ قد أصبحوا في مهب الريح، عندئذ، أرادت بذكائها الغبيّ او بغبائها الذكي، أن تساير تيار الثورة عن طريق التظاهر بتأييدها، وان يكون التأييد عن طريق نشر المقالات السياسية التي تحاول ان تنصح الثورة وترشدها وتأخذ بيدها، وأن يأتي هذا النشر على صفحات الجريدة التي يملكها صهرها الصحافي.. علي أمين!

وقد يكون «علي أمين» تزوج من زينب الدمرداش لألف سبب وسبب، ولكن ليس من بين هذه الاسباب أن يجعل من قوت القلوب الدمرداشية زميلة صحافية تساهم بآرائها على صفحات «أخبار اليوم»! وقد أوشك «علي أمين» ان يعتزل الصحافة ويهرب منها الى مهنة اخرى بسبب

حمـاسة السيدة «قوت القلوب» التي كانت تطارده، يوميا، باتصالاتها التلفونية لكي تملي عليه آخر ما جادت به قريحتها من آراء حول الأسلوب الثـوري الرحيم الذي يجب ان يتحلى به رجال ثورة ٢٣ يوليو! وكانت «قوت القلوب» تنتظر حتى تصل الساعة الى العاشرة مساء لكي تطلب صهرها «علي أمين» بالتلفون، ويدور بينهما الحوار التالي:

هي: لماذا لم تحضر للعشاء معنا في هذا المساء يا ابني.. يا علي؟

هو: والله مشغول يا ابله.. معلهش.. حقك عليّ!

هي: كان معانا هنا «علي باشا ماهر» وسأل عنك!

هو: معلهش يا أبله.. انشاء الله في فرصة ثانية تتعوّض!

هي: وايه اخبار البلد.؟

هو: مفيش.! البلد تتكلم عن الخلاف بين نجيب وعبد الناصر.!

هي: لا.. لا.. ده عيب كبير! هذه الخلافات لا لزوم لها مطلقاً! والبلد محتاجة لأولادها! وانا لازم اكتب مقال في المعنى ده وتنشره لي «اخبار اليوم» في عدد غدا. اكتب يا ابني يا علي! قول على لساني «يا اولادي البـررة.. ان مصر تناديكم.. وتنتظر همتكم.. وأنتم اليوم رجالها وانتم ثوارها... وأنتم احرارها . وانتم كبارها.!»

هو ـ مقاطعا: يا أبله ان «اخبار اليوم» قالت هذا الكلام في افتتاحيتها المنشورة في الأسبوع الماضي.!

هي: يعني يا ابني مش عاجبـك كلامي؟ انتم بتسرقـوا أفكـاري وتنشروها عندكم وبعدين تقول لي انه كلامي قديم.؟!

هو: حقك عليّ يا أبله وانشاء الله بكره اسمع صوتك ويكون عندك كلام ثاني تقولي لي عنه لكي أنشره !

هي: ولماذا بكره؟! أنا جاهزة ـ الآن ـ لكي أملي عليك «فوراً» مقالا عن ضرورة الرحمة في قرارات «محكمة الشعب».. هل أنت مستعد!؟

هو: أنـا مستعـد للخـروج فوراً واللحـاق بأخي «مصطفى» الذي ينتظرني منذ نصف ساعة في سيارته أمام مبنى «أخبار اليوم».!

هي: هات أخوك وتعالوا عندي لكي نتحدث في مشاريعكم الصحافية!

هو: نخليها لبكره يا أبله لأني مشغول الليلة بالمشاريع.. المالية!

هي: انت دايما بتلحق الفلوس.! انا مش عارفه يا ابني يا «علي» انت صحافي او صرّاف!؟ في كل مرة اكلمك عن الصحافة اشوفك تكلمني عن أسعار الورق.. وارتفاع ثمن الحبر.. وطلبات البنوك.. والكمبيالات المتأخرة.. واتعاب الصاوي محمد.. وطمع توفيق الحكيم.. ونفقات محمد التابعي.! ايه الحكاية يا ابني يا علي؟ انت مش عايز تنسى انك متزوج من بنت قوت القلوب الدمرداشية؟ انا خلاص نضّفت! لم يبق عندي فلوس يا صهري العزيز أعطيه لك او لغيرك! الناس تقول عني انني امرأة بخيلة. نعم.! أنا امرأة بخيلة! والافضل الف مرة ان يقال أنني بخيلة من أن يقال أنني.. عبيطة! وانا مش محتاجة ان اكتب عندكم مقالاتي السياسية. سأنشرها قريباً في جريدة «المصري».!. ان صديقي «محمود أبو الفتح» مستعد ان ينشرها لي على صدر الصفحة الأولى... ومعها صورتي.. واسمي بالبنط العريض!

هو ـ مقاطعا: بشرط أن يسمع منك وعداً جديداً باعطائه «سلفة» مالية جديدة على الحساب.!

هي: ولم لا؟ ان محمود أبو الفتح رجل جنتلمان.. ومليونير وقادر على ان يعيد لي كل جنيه يستلفه مني!

ثم تتردد قليلاً قبل ان تقول له:

ـ إنه يحبني.. والناس كلها تعرف قصة هذا الحب.!

هو ـ مقاطعاً ـ انه يحب مالك.. فقط!

هي إن امـوالي جزء من شخصيتي. وسأستخدم هذه الأموال كي اجلب بها سعادتي! ان «محمود» يقترض مني لكي يصرف على جريدته. وعندما تعتدل اموره سيعيد لي هذه الديون ومعها المفتاح الذي سأدخل به الجنة.!

هو: هل ستتزوجينه؟!

هي: كل شيء ممكن.!

هو: ولكنه لن يتزوجك! انه يضحك عليك ويسخر من سذاجتك!

هي: كل شيء يجوز.!

هو: ان اولادك.. وابنتك.. وأنا.. نعترض على مثل هذا الزواج من حيث

المبدأ ودون الدخول في التفاصيل!

هي: اسمع يا ابني! كان زواجي الأول صدمة لأبي لأني لم استشره! وجاء الطلاق صدمة لأهلي، لأني لم اسألهم. فهل تريد مني ان اسأل صهري العزيز في مشاريع زواجي بالمستقبل وانا التي لم تسأل عن ابيها ولا عن اهلها يوم تزوجت ويوم طلقت... ويوم تبعث حيّة!؟

وأقفلت السكة..

وبعد اسابيع أعلن الصحافي العزيز طلاقه من السيدة ابنة قوت القلوب الدمرداشية!

ونعود الى السؤال الاساسي:

- ترى هل كان في طبيعة قوت القلوب الدمرداشية او في تصرفاتها الشخصية او في مسلكها العام، أي تجانس مع طبيعة الانسان الصوفي البسيط الزاهد في مغريات الدنيا، واللاجىء الى رحاب العبادة والتدين؟

لا أظن.!

فقد كانت قوت القلوب محسوبة بعقليتها وطموحها على السراي الملكية. وكانت تتمنى لو يشعر الملك او رجاله بمثل هذا الولاء ويكافئونها عليه. لقد كان «فاروق» يرعى - كما جرت العادة - سائر الاحتفالات الدينية التي كانت تقيمها جماعات الصوفية في مصر ويتعمد ان يحضرها بنفسه لكي يكسب محبة تلك الجماعات ويفوز بولائها. وكان الشيخ «البكري» شيخ مشايخ الطرق الصوفية في ايام فاروق من أشد الناس ولاء للملكية وتعصباً للملك. وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو، حرص محمد نجيب على ان يحضر بنفسه اول احتفال لعيد المولد النبوي تقيمه جماعات الطرق الصوفية في مصر! ولقد تسنى لي ان احضر ذلك الاحتفال وان أرى محمد نجيب جالساً في المكان الذي اعتاد ان يجلس فيه الملك فاروق والى جانبه شيخ الأزهر وعن يساره سماحة الحاج أمين الحسيني. وما زلت اذكر انني رأيت في ذلك الاحتفال الذي اقيم في عام ١٩٥٣ بالقاهرة، كيف وصل سفير العراق السيد «نجيب الراوي» الى المكان، وكيف وقف محمد نجيب لاستقباله ومصافحته، وكيف اشار محمد نجيب على شيخ الأزهر ان يتنازل عن مكانه في المنصة لكي يجلس

فيه سفير العراق. كانت الثورة في ايامها الاولى حريصة على ان تكسب ودّ جميع الدول العربية، وان تُشعر جميع العرب بأنها للعرب كلهم وليست لدولة معينة ضد اخرى، ولذا فقد تعمد محمد نجيب ان يجامل سفير العراق حتى ولو جاءت المجاملة على حساب شيخ الأزهر..! المهم ان السراي الملكية، ومن بعدها ثورة ٢٣ يوليو، قد حرصتا على رعاية الحركات الصوفية، مع «الطرق» المختلفة، بالحب والعون المادي والتأييد، وان الطريقة الدمرداشية، ككغيرها من الطرق الأخرى، كانت تتمتع بقسطها من ذلك الحب ومن تلك الرعاية. ولكن «قوت القلوب» التي كانت تغار من امجاد سيدات مصر العريقات، وبنات العائلات الكريمات، كالسيدة هدى شعراوي، والاميرة نازلي حليم، والسيدة عزيزة حسن، والسيدة بهيجة طوسون، وحرم رشدي باشا، وحرم شفيق باشا، والأميرة عين الحياة، وسيدات عائلات «الدرملي»، و «عاصم»، و «طلبه»، و «فهمي»، أقول، ان قوت القلوب التي لم تستطع ان تنال شرف المساهمة في تأسيس مؤسسة كبيرة كـ «مبرة محمد علي» ـ مثلا ـ او ان تُسهم في الحركة الوطنية إثر قرار الانجليز بنفي سعد زغلول الى خارج البلاد، أو ان تنال التقدير الذي نالته سيدة كـ «هدى شعراوي» من سعد زغلول، نفسه، هذه السيدة «قوت القلوب»، لم تكد تتأكد من أن شمس الملكية في مصر قد غابت الى الأبد، حتى رمت بكل ثقلها ووزنها وأمجادها في احضان ثورة ٢٣ يوليو لكي تنتقم لنفسها من الذين تجاهلوها بالأمس، وتضمن لنفسها رضى الحكام الجدد من رجال الثورة.

ولكن لا القروض المالية الهائلة التي منحتها لشيخ الصحافة «الوفدية» الاستاذ محمود أبو الفتح، والتي لم تسترد منها شيئاً بعد وفاته في المنفى، ولا مقالاتها المقترحة على صهرها علي امين في صحيفة «أخبار اليوم»، ولا برقياتها المستمرة في التأييد لثورة مصر ورجالاتها، ولا تبرعاتها المالية لمشاريع الثورة في الشهور القليلة الأولى من قيامها، اقول، لا شيء من هذا كله استطاع ان ينقذ «قوت القلوب» من قرارات التأميم التي صدرت في عهد الثورة وقضت على جميع ما كانت تملكه «قوت القلوب» من أملاك وأراضي وأسهم وأموال... ومنازل!

لقد كانت «قوت القلوب» في احدى زياراتها التقليدية لفرنسا وايطاليا عندما صدر قرار التأميم لأملاكها في القاهرة! وقررت قوت القلوب أن لا تعود الى مصر! وصدر القرار بوضع منزلها التاريخي تحت الحراسة. وهـزت قوت القلوب كتفيهـا ولم تعـد لكي تنقذ الموقف! وعندما اشتد النقاش حول الأمور المالية بينها وبين أحد أولادها في المنفى، وكان الإبن يلح بطلب المال وكانت الأم تلح في الرفض، عندئذ، رفع الإبن احد الكراسي الخشبية المرصوصة امامه، وهوى به على رأس والدته قوت القلوب، فقضى عليها في الحال!

وماتت قوت القلوب الدمرداشية..

وقرر محافظ القاهرة ذات يوم ان يجري بعض التعديلات في خريطة المنازل المطلة على نهر النيل بالقرب من مبنى وزارة الخارجية وعلى بعد امتـار من مبنى جامعـة الدول العـربية في حي قصر النيل، فقرر ان «يشطب» قصر قوت القلوب وان يزيله من جغرافية المعالم!

وهدت فؤوس العمال المصريين احلى و «أشيك» قصور مصر، وأحالته الى ركام.!

ولم يدر بخلد واحد من هؤلاء العمال الذين هدموا القصر انه في تلك اللحـظة كان يدوس على التاريخ ويهدم الكثير من القصص والأسرار، ويؤلم المئات من رجالات مصر وزعماء العرب الذين عرفوا ذلك القصر ونعموا بحفلاته وسعدوا بجوّه المثقل بالعطر والبخور..

لقد انتصرت الاسماعيلية في اليمن وخرجت الى الهند وشمالي افريقيا وظهرت في المغرب وتونس وأسست دولة اسمها الفاطمية، تنتسب الى ابنة الرسول الأعظم

ثم فتح الفاطميون مصر منذ ألف سنة ووصلوا الى فلسطين وشيدوا مبنى «الجامع الأزهر» وبقوا في مصر، حاكمين، لمدة مائتي سنة!

ترى هل كان احد جدود «الدمرداشية» بين هؤلاء الناس؟

لا أدري! ولكن قوت القلوب وقد حفظت جيدا اصول حركتها الدينية وما تفرضه على أتباعها من طاعة تصل احيانا الى حد العبادة وقد وصفها الشيـخ «القشيري» انها تشبه طاعة الميت بين يدي الغاسل يقلبه كما

يشاء بلا حيلة ولا تدبير، اقول، لقد ارادت قوت القلوب ان تمارس هذا النوع من التسلط الظالم على احد ابنائها، فعالجها بضربة قاتلة قضت عليها.

وعندما جاءت لزيارة القدس، سمعها الزعماء وهي تحدثهم عن آرائها في قضية فلسطين وطريقة حلّها!

وعندما زارت ايطاليا، ارادت ان تحل مشكلة «تريستا» بين ايطاليا ويوغوسلافيا!

وكانت تعتقد ان القرآن هو اعظم الكتب في العالم، وبعد القرآن، تأتي مؤلفاتها وكتبها!

لقد كانت مثالاً للسيدة التي اضاعت عنوانها وهي تنتقل بين القارات الخمس واضاعت هويتها وهي تبحث لنفسها عن شخصية تناسبها وتجمع في عناصرها: الثروة، والتصوف، والسياسة، والحفلات، والزعامة، والأنوثة!

وماتت ولم تعثر على المطلوب!

ولم يرثها أو يبكي عليها أحد...

لقد كانت تتمنى لو تحلم بقسط من عظمة «شجرة الدّر» وان تحكم ولو ثلاثة أيام مقابل العشرين عاماً التي تمتعت بها شجرة الدّر. ولكنها لم تحظ من عظمة شجرة الدّر إلا ببعض الطابع المأساوي الذي رافق طريقة موتها..!

رحم الله شجرة الدّر..!

الرابعة

فيكي ..

معرضة الملك أم قاتلته !

Lausanne 3 APRIL 1968

Dear Nassri

Thank God I feel better today. My pasha is very happy his health is improving but he is unable to keep travelling as before He is not going to Egypt or anywhere else. After all Lausanne is a Paradise We wait for you tonight to continue our talking about the past... That past which I cherries and regret

Our charming young neighbour visited us yesterday and we remembered you. because I fel She readed like you. Also Thataseen Kadrey called us and he is planning a visit to London soon. What do you think of him. He has a lot of stories which are facinating especially for writer and Journalist like yourself. He is a bit Ga-Ga but still interesting. As you know he has all the secrets of all the kings and Princess of Iraq especially Faisal I[illegible]. Come soon to squeeze some of his stories We wait for you Love you and miss you Vicky فيكي

رسالة من فيكي ـ حرم أحمد صديق باشا أو الممرضة التي زعموا أنها قتلت الملك فيص الاول
رسالة بخط يدها إلى المؤلف

المرضة التي تقدر ان تعطي المريض حقنة الدواء، تقدر ـ ايضاً ـ ان تعطيه حقنة السّم!

وقد دخلت الفتاة المصرية «فيكي حكيم» حياة الملك فيصل بن الحسين ـ ملك العراق واصبحت واحدة من أفراد حاشيته، من الباب المخصص للأطباء، والممرضات!

وفي كتب التراث القديم، ككتاب «ألف ليلة»، وكتاب «الأغاني»، الكثير من القصص والروايات التي تثبت ان طبيعة السلطان هي التي تختار نوعية مستشاريه، وان العوامل التي تتحكم في شخصية «السلطان»، كعامل المرض او عامل الشهوة، او عامل الطموح، هي التي كانت تختار نوعية الاشخاص الذين يُسمح لهم بشرف المنادمة أو بأفضلية الاقتراب أو التسلط على صاحب السلطة! فاذا كان السلطان شاعراً، اصبح الشعراء هم أصحاب الحظوة الاولى في بلاطه. واذا كان السلطان مُحباً للغناء، أصبحت الجواري مع المطربين والمنشدين هم اصحاب الطبقة المقربة الى قلب السلطان والى عقله! واذا كان السلطان فارساً مغواراً يحب المعارك والفتوحات، ويحلم بالسيف والانتصارات، فان الفرسان وأصحاب الخيل وقادة الكتائب ورجال الجيش وصفوف المحاربين هم الذين يتصدرون مجلسه، ويتبوأون مناصب حكمه.

ولكن اذا كان السلطان مريضاً، وكان مرضه من النوع الخطير، فإن الأطباء، والممرضات، وأهل الطبّ عامة، هم الذين سيتحكمون في شخصه، ويلعبون بحياته، ويختارون خطواته!

وقد كان الملك «فيصل الاول».. ملك العراق من هذا النوع الأخير. فقد كان مريضاً. وكان مرضه المعلن هو تصلّب الشرايين. وكان مرضه

الآخر هو ممارسة الحكم في بلد كالعراق وفوق شعب جبّار ثوري حار كشعب العراق. يضاف الى ذلك، ان يجد ملك العراق نفسه ملتزماً بمعاهدة جائرة وظالمة مع دولة استعمارية متسلطة كبريطانيا العظمى، ومع سفراء انجليز متغطرسين يتّسمون بالعجرفة والصلف والغرور وقلة الأدب، وفي وسط هزات ثورية شعبية وانتفاضات عامة بدأت بعد عام واحد فقط من تسلّم الملك سلطاته الدستورية واعلان استقلال العراق في عام ١٩٢٢، واستمرت حتى اواخر ايام حكمه..!

لقد استمر الوطنيون العراقيون يشككون في وطنية الملك فيصل الأول، تماماً، كما بقي الانجليز لا يشعرون بالاطمئنان نحوه، وبقي هو يشكو من الانجليز وتعنتهم وعجزهم عن خدمة العراق وتطويره، كما يشكو من الوطنيين العراقيين بسبب جنوحهم الى التطرف في احلامهم السياسية، ويشكو من عجز بلده الفقير عن ان يمدّه بالمال اللازم لكي يحقق لهذا البلد آماله في التقدم والعمران، ويشكو من حياته العائلية التي يفتقر فيها الى زوجة مثقفة ومتطورة وقادرة على ان تشاركه مسؤوليات الحكم، ويشكو من ولده البكر الذي لم يكن يملك من المزايا العقلية أو الذهنية او الفكرية ما يطمئن والده على مستقبل «الولد» عندما يحكم او على مستقبل البلد عندما يحكمه.. ذلك الولد!

في ظل هذه الحياة المملوءة شكوكاً، وشكاوى، وقلقاً، وهواجس، والتي تدفع بصاحبها الى المرض والعذاب، دخلت «فيكي حكيم» الى حياة فيصل بن الحسين، ملك العراق!

ونبدأ القصة من اولها..

في عام «١٩٣٢»، عقد العراق معاهدة الصداقة والتحالف مع بريطانيا على أثر انتهاء الانتداب وانضمام الدولة العراقية الى عصبة الأمم كعضو كامل ومستقل! وفي شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩٣٣ سافر الملك فيصل الأول الى بريطانيا في زيارة رسمية تلبية لدعوة من الملك جورج الخامس حيث احتفل به الانجليز كرئيس دولة مستقلة وغمروه بالكثير من مظاهر الود والترحيب.

وبعد انتهاء الزيارة الملكية لبريطانيا، سافر الملك فيصل الى سويسرا

لقضاء بضعة ايام للراحة والاستجمام.. والعلاج!

وكان معه في تلك الزيارة شقيقه الملك «علي»، وجعفر العسكري، وعادل ارسلان، وتحسين قدري.

ونزل الجميع في فندق «بيلفو» ـ او «المنظر الجميل» ـ في العاصمة السويسرية، بيرن.

وفجأة، وبينما الملك يحدد لنفسه مواعيده مع الأطباء ويفكر في قضاء فترة ليست قصيرة في الراحة والعلاج، اذ بحركة «الأشوريين» تشغل الصفحات الأولى في صحف العالم، وترغم الملك المريض على ان يقطع اجازته ويعود فوراً الى بغداد في شهر آب من عام ١٩٣٣!

ما هي قصة هؤلاء الأشوريين؟

إنهم مجموعات متباينة من بين عشرات المجموعات البشرية الأخرى التي نزحت الى العراق بعيد الحرب العالمية الاولى، قادمة من تركيا ومن ايران. وقد اسكنتهم السلطات البريطانية التي كانت متنفذة في البلاد يومذاك في بعض القرى المسيحية الواقعة في لواء «الموصل» واعتمدت عليهم في تجنيدهم ضمن حرس محلي مكلّف بالسهر على سلامة القواعد البريطانية في العراق، ومنحتهم الامتيازات المالية والسكنية مع اعطاء الحق لأي مجند آشوري ان يحتفظ بسلاحه فور تسريحه من الخدمة وان يعود الى قريته الاصلية حاملاً معه ذلك السلاح، الى ان استطاع الأشـوريـون تشكيل كيان خاص بهم، وراحوا يطالبون بتوسيع رقعة الأراضي المنـوحـة لهم ويصرون على وجوب تمثيلهم في وظائف الدولة ويصـطدمـون مع رجـال الشرطة العراقيين في بعض المخافر الرسمية ويتحرشون بالكثيرين من أفراد قبائل «شمّر» الذين كانوا يجاورونهم في مناطقهم السكنية، مما دفع برجال «شمّر» الى الدخول في صدام مسلّح ضد الأشوريين، الشيء الذي أدّى بدَوره الى وقوع عشرات من القتلى ومئـات من الجـرحى، وأدى، بالتالي الى التدخل الرسمي من الحكومة العراقية، ومن الجيش العراقي.

وتأزم الموقف! وتضاعف عدد القتلى! وتدخلت السفارة البريطانية في بغداد لكي تضع اللوم في هذه الحوادث على عاتق الحكومة العراقية وعلى

الجيش العـراقي وعلى أفراد من قبيلة «شمّر»! وأبرق رئيس الوزراء ـ وكـان يومـذاك هو «رشيـد عالي الكيـلاني» ـ الى الملك فيصل في مقر استجمامه في العاصمة السويسرية يدعوه للعودة فوراً الى بغداد..!

وعـلى الفـور، ترك الملك فيصل سريره، وأطباءه، واحلامه في الراحة والاستجمام، وعاد الى بغداد حيث اجتمع مع رئيس وزرائه ومع أعضاء الحكـومـة ومع السفير البريطاني، وبحثوا في تفاصيل الأزمة وناقشوا صحّة المعلومات المتوافرة، وخرجوا بنتيجة واحدة وهي ان اللوم في كل ما حدث لا يقع على الحكومة ـ كما تدعي السفارة البريطانية ـ وانما يقع على الأشـوريـين الذين تحرشوا بالقبائل واعتدوا على القوات العراقية وقتلوا رجال البوليس العراقي معتمدين في ذلك على ولائهم للانجليز وعلى تأييد السياسة الانجليزية لهم ولأعمالهم!

وبكـل المكـر الانجليـزي المعهـود، والدهاء الاستعماري التقليدي المعروف، تلقت بريطانيا هذه اللطمة ببرود ظاهر، ثم راحت تستعد لمؤامرة جديـدة، ضد العـراق، وضـد ملك العراق، وضد شعب العراق، وضد استقلال واستقرار العراق!

امـا الملك فيصـل، وقد مضى على إقامته في بغداد مدة اسبوع واحد، استقرت خلاله الأحوال، فقد قرر ان يعود الى سويسرا لكي يكمل علاجه، ويتسأنف إجازته، وان تكون العودة ـ في هذه المرة الى اوروبا ـ عن طريق البحر!

ومرّت الباخرة التي تحمل الملك، بميناء الاسكندرية حيث كان «رستم حيدر» أحد كبار رجال القصر الملكي قد اختار فتاة مصرية صغيرة وجميلة لكي تنضم الى حاشية الملك وتسافر معه الى اوروبا وتسهر على صحة الملك المريض في سويسرا..!

وكان اسمها فيكي، او فيكتوريا!

وكانت يهودية.. ومصرية .. وتسكن في ضاحية «المعادي»، وتجيد لعبة الورق وخاصة لعبة «البريدج»!

وكانت عائلة «فيكي» تقضي شهور الصيف في رأس البر! وكان للفتاة شقيقة لعوب مملوءة سحراً ودلالاً وذكاء. وفي ذلك المصيف الارستقراطي

ـ رأس البر ـ تعرفت العائلة الى «رستم حيدر» الذي وقع في حب فيكي، فوعدها بأن لا يفارقها مطلقاً وان يسافر معها الى اوروبا وان يضمّها الى الحاشية الملكية!

وهكذا كان.!

وصعدت «فيكي حكيم» ـ الممرضة الجديدة ـ الى الباخرة التي تحمل الملك فيصل في ميناء الاسكندرية، وسافرت معه الى اوروبا.

وما ان وقع نظر الملك العراقي على الفتاة، حتى سألها بلهفة:

ـ هل تلعبين الورق؟!

وقالت لي «فيكي»، وهي تروي لي قصص حياتها، وتستعيد ذكرياتها مع الملك فيصل في تلك الرحلة التاريخية:

ـ نظرتُ الى وجه الملك فرأيت امامي صورة طفل أو صورة ملاك! كان متعباً، فزاده التعب وسامة ورقة. وكان نحيلاً، فأضفى عليه النحول جلالاً وهيبة! وعندما كلمني احسست وكأنه يُتمتم. وعندما أمرني بالجلوس قبالته الى الطاولة لكي نلعب «البريدج» اوشكتُ ان أسحب يده لكي ألثمها.!

لقد وقعت فيكي في حب الملك.. أو هكذا كان شعورها. وركوب البحر، مع كل ما يوحي به الموج من أحاسيس وخيالات وأوهام، وكل ما يثيره من عواطف مكبوتة وذكريات مدفونة، قادر على ان يُقرّب القلوب من بعضها وان يُغنّي للمسافرين ترانيم الهوى ويحيل متاعب السفر الى ايام ممتعة نهارها سمر وليلها سهر!

وما اثقل مرور الزمن في بعض الأحايين. ولكن «فيكي» استطاعت ان تجعل الملك فيصل يتمنى ان يطول الزمن وتطول مدة الرحلة، وأن لا يصل الى الميناء الايطالي الذي استقل منه القطار الى سويسرا. لقد كان وجود «فيكي» على ظهر باخرة الملك بمثابة الثورة التي اشتعلت في قلبه وفي أعصابه. لقد نسي الملك الاوجاع التي يسببها له مرض تصلّب الشرايين، ولولا اصرار «فيكي» على ضرورة اعطائه الحقن الطبية اللازمة في مواعيدها، لما شعر الملك المريض بحاجته اليها، ولما استسلم راضياً امام ارادة «فيكي» بضرورة اخذها! كانت اعصابه متصلبة كما هي شرايينه.

وكانت شرايينه متصلبة الى درجة كان حدّ السكين عاجز عن قطعها او اختراقها! وكان الانجليز يعرفون هذه الحالة بتفاصيلها. وكانت «فيكي» بحكم عملها كممرضة تدرك خطورة حالة الملك وأثرها على تفكيره ونشاطه ومزاولة أعماله. لقد رأيت «فيكي» بعد ان مات الملك فيصل وجاءت هي الى سويسرا، وسكنت في مدينة لوزان برفقة زوجها الباشا المصري. وعندما سألتها ان تحدثني عن قصتها مع الملك فيصل العراقي، وكنا نجلس على مائدة العشاء بجوار زوجها الباشا، وكانت هي تجلس بجانبي، شعرتُ بيدها تلمس ركبتي خفية من تحت المائدة، وكأنها أرادت ان تأمرني بالسكوت أو انها انزعجت لسؤالي ولا تريد ان تجيبني عليه، الى ان تكررت زياراتي لها، ولزوجها، وتوثقت بيننا عرى الصداقة واصبحنا نذهب سوياً الى سوق «الأنتيكا» بضواحي «لوزان» لكي نشتري ما نعثر عليه في تلك السوق من آنية بلورية قديمة، أو عصا اثرية، او مخطوط مجلّد قديم، اوكتاب مصور عن الشرق الاوسط، وكانت السوق تقام عادة على شاطىء البحيرة الساحرة، وكان الشاطىء عادة بمثابة مسرح مفتوح في الهواء الطلق للعشاق والسياح والفقراء المشردين، وكنا نحرص على ان ننهي زيارتنا الى السوق بالدخول الى مطعم صغير مشهور بطهي السمك فنأكل ما نشتهي، ونشرب ما نقدر عليه، ونعود الى قلب «لوزان» مشياً على الأقدام وحديثنا عن الذكريات لا يتوقف ولا ينقطع.

إلى أن مرضت فيكي ودخلت المستشفى الحكومي في لوزان لتلقي العلاج.

وقيل لي يومها انها قد أصيبت بالسرطان.

وركبت سيارتي من «جنيف» وذهبت اليها أزورها في ذلك المستشفى الذي كانت تعالج فيه.

وعندما دخلت عليها كان الكرسي الوحيد في الغرفة مشغولاً بأحد الزوار. فجلست بجانبها على حافة السرير. ورأيتها ترفع يدها من تحت الفراش وتمسك بيدي ثم تقول لي بنبرة خافتة ومتقطعة ولكنها واضحة:

ـ هل تذكر سؤالك لي ذات يوم عن قصتي مع الملك فيصل؟

وأجبتها وقد داهمني سؤالها المفاجيء:

ـ أجل اذكر.!

قالت: انني الآن مستعدة لكي اجيبك على سؤالك وان أسرد لك القصة بتفاصيلها.!

وعدت اقول لها وعيني على الشخص الجالس أمامنا:

ـ ولكن مثل هذا الحديث سيُتعبك ويؤثر على حالة الجراحة التي اجريت لك، فلماذا لا نؤجل الكلام الى فرصة اخرى.؟

وابتسمت «فيكي» بصورة خاطفة، ومصطنعة، وكأنها يائسة من حياتها وقالت تسألني في ألم ظاهر:

ـ ومتى تكون هذه الفرصة الاخرى؟ وما هي؟ وأين هي؟ وكم عمرها!؟

ثم اضافت مع لمعة مفاجئة تتحكم في نظراتها الدامعة:

ـ ألم يخبرك «الباشا» عن مرضي؟ ألم يقل لك انني مريضة بالسرطان وان ما تبقى من عمري لن يزيد عن أسابيع معدودة؟

ثم شدتني بيدها وكأنها تمنعني من الانصراف:

ـ إنك ستبقى معي هنا حتى المساء، وستسمع مني كلاماً لم يسمعه مني قبلك احد.

ولعل الزائر الوحيد الذي كان معنا في الغرفة قد شعر بموقفه الحرج، فاستأذنها بالانصراف، وتركنا وحدنا.. أو بالتحديد، ترك «فيكي» تروي لي أخطر وأدق ما سمعته من امرأة في حياتي.!

كانت «فيكي» عندما قابلتها لأول مرة في مدينة «لوزان» السويسرية قد تجاوزت الستين من العمر. كان كل شيء فيها قد شاخ وكبر الا عقلها، وقلبها.. ودلعها! لقد رأيتُ فيها كل الذكاء الذي يتمناه الرجل في المرأة. اعني ذلك الذكاء الخطر، الوقّاد، اللمّاح، الخفيف الظل، السريع الفهم، البعيد المعنى، العميق الإدراك، المجبول بشيء من الثقافة وبشيء من الثقة وبشيء من الجمال! كانت رفيعة الجسم وكأنها واحدة من بنات المانيكان في محلات كريستيان ديور! وكان وجهها أبيض اللون يختلف كثيراً في بشرته وتقاطيعه عن وجوه بنات مصر السمراوات. وكانت في عينيها زرقة سماوية ما زالت رغم السنون تشعّ نوراً وبريقاً ومعنىً! ولولا بروز

بعض عظام خديها عند أسفل العينين لما ظهرت علائم المرض على وجهها. وكـانت تبدو كما اعتادت ان تبدو دائما، في كامل اناقتها حيث أكملت تسريحة شعرها على الوجه المطلوب، وتجلّى اللون الوردي على اظافر يديها البيضاوين، وتدلى العقد الذهبي من عنقها العاجي، وارتسم خيط من الصباغ الأحمر فوق شفيتها الصغيرتين، وعبقت رائحتها بأرق انواع العطر الفرنسي..

وكانت «فيكي» تجيد التحدث بأكثر من لغة اجنبية. فكانت تقرأ كتباً بالانجليـزية والفرنسية والايطالية. وكانت لها أخت واحدة تنافسها في الجمال والرقة والجاذبية. وكانت اسرتها تصطاف في كل عام على شاطىء «رأس البر» بمصر، وهناك التقت «فيكي» ولأول مرة مع الرجل الذي أحبها وحملها معه الى بلاط فيصل بن الحسين، ملك العراق!

وكان هذا الرجل هو «رستم حيدر».. رئيس الديوان الملكي العراقي.

ما هي قصة هذا اللقاء؟؟ ومتى؟؟ وكيف بدأ وكيف تطور وكيف انتهى؟

لقد سألت «فيكي» عن كل هذه «الامور» وأنا اخشى عليها من قسوة المرض، وأخشى على نفسي من حساسيتها او غضبها، وأخشى ان يدخل علينـا في تلك السـاعـة أحد الزوّار فيفسد علينا الخلوة ويفسد علينا الحديث، لولا ان «فيكي» تحايلت على نفسها، وجلست في سريرها وراحت تعدّل من أطراف ثوب النوم الوردي المنبسط بلا ترتيب فوق صدرها دون ذراعيها، ثم قالت وكأنها تمسك بالطرف المطلوب في حبل الذكريات البعيدة:

ـ كان «رستم حيـدر» يمتـاز بعقليـة عصرية ترغم الناس على حبه واحترامه. ولولا لونه الشرقي لما قدر أحد ان يتعرف على حقيقة اسمه ودينه وجنسيته. كان يتكلم اللغة الفرنسية كأحد ابنائها منذ أن درس في كلية «السوربون» وتخرج منها! وكان حلو الحديث، أنيق المظهر، كثير المجـاملة، يهوى الاستشهاد في كلامه بأسماء كبار رجال الأدب وكبار رجال القانون، ويحلّل افكار الناس ويُعلّق على أحداث العالم! وكان عازباً بلا زوج ولا ولد مما جعله يشعر بشيء من الضعف أمام النساء، وخاصة

اذا كانت المرأة منهن ـ مثلنا ـ تجيد التحدث باللغات الأجنبية وخاصة اللغة الفرنسية.!.

وابتسمت «فيكي» قليلا وهي تُحملق في سقف غرفتها داخل ذلك المستشفى الأنيق الذي يطلّ على شاطىء بحيرة «جنيف»، وقالت وكأنها قررت ان تفضح الأسرار بلا ضابط ولا حرج ولا تحفظ:

ـ وهكذا أحبني رستم حيدر! وبادلته هذا الحب! ثم دعاني لزيارة بغداد والتعرّف على كبار اصدقائه من الوزراء العراقيين اليهود، مثل «ساسون حزقيل» وزير المالية وغيره. وقد اقمت في بغداد اسابيع طويلة كان لا بد لي بعدها من العودة الى مصر حرصاً مني على سمعة رستم حيدر وعلى منصبه الرفيع لدى الملك،غ ولكي لا يتسبب وجودي في بغداد بأي احراج لهذا الرجل الذي كان اسمه محاطاً على الدوام بتيارات متضاربة من التقدير الممزوج بالنقد، والاحترام المجبول بالغمز، والاشادة بكفاءته العلمية والسياسية مع التلميح الى مغامراته العاطفية وعلاقاته النسائية، وبالأخص انه لم يكن عراقي الأصل ولم ينس يوماً دمه اللبناني «الشامي» او مذهبه الشيعي، ولم ينقطع يوماً عن التغني ببلدته «بعلبك»، ولم يتردد يوماً في ان يجاهر الناس قائلا لهم: «لقد ولدت في لبنان وسأموت في لبنان!»

واستمرت «فيكي» تقول لي بأصرار.

ـ وقبل ان أعود الى مصر، همس «رستم» في أذني بعبارة واحدة لم استطع ان أنساها مطلقاً! لقد قال لي وهو يودعني انه لن يهجرني ولن يتركني، وانه سيلحق بي قريباً، وأنه قد يعود الى مصر ويلتقي بي بعد ايام قليلة..! ولم أكد أصل الى مصر وأستقر في منزلي بـ «المعادي» حتى وصلتني منه برقية مستعجلة يطلب مني فيها أن أعد نفسي لكي أقوم بمهمة الممرضة الخاصة لجلالة الملك فيصل العراقي، وان أعد حقائبي وثيابي وجواز سفري وأكون مستعدة للتوجه الى ميناء الاسكندرية في ذلك اليوم من خريف عام ١٩٣٣ وأصعد الى الباخرة المبحرة من بيروت والمتوجهة الى «نابولي»، كواحدة من حاشية الملك والممرضة الخاصة له..!

ورأيت «فيكي» تبتسم قليلاً وتضحك قليلاً وتصمت قليلاً، ثم تقول لي

وما زالت تصر على الكلام:

ـ كان رستم يعلم انني درستُ علم التمريض في المستشفى الإسرائيلي بالاسكنـدريـة، وانني قد اشتغلت كممـرضـة في ذلك المستشفى وفي مستشفى «بهمان» للأمراض العقلية في حلوان لفترات ليست قصيرة. وعندما طلب مني ان أهديه صورة فوتوغرافية لي، أهديته صورتي وأنا في ثياب الممرضات فأخذها مني وغمرها بقبلاته، وقال لي أنه لم ير في حياته من هي أجمـل مني في ذلك الثـوب الأبيض، ووضع الصورة في داخل محفظته، وكان يخرجها من حين لآخر لكي يُحدق فيها قليلاً ثم يُعيدها الى المحفـظة وهو يتمتم بكلمات الشوق والغرام! من يدري؟ لعله أراد ان يحملني برفقة الملك ـ معه ـ الى اوروبا فلم يجد حجّةً ولا غطاءاً أحسن من ان يستعين بي كممرضة لكي يحقق غرضه في ان يأخذني معه! كان الرجـل غايـة في الدهـاء والمكر وبارعاً في استبدال الأسباب الحقيقية بالأسبـاب الظاهـريـة! وكان صديقاً للانجليز عالماً بأساليبهم ومكرهم وألاعيبهم! وكان فوق ذلك، وقبل ذلك، يُحبني ولا يطيق فراقي! وهكذا، كنت حريصة على ان ألبي له رغبته وان اطيع أوامره، وان احزم حقائبي وأعـدّ جواز سفري وأرتدي ثياب الممرضات وأركب القطار وأسافر الى الاسكندرية لكي اكون واقفة على الميناء بينما الباخرة التي تقل الملك، والحاشية، و «رستم حيدر»، تدخل الى الرصيف المُعدّ لها...

ولم تزد المـدة التي قضتها الباخرة في ميناء الاسكندرية عن ست ساعات، اتجهت بعدها صوب اوروبا.! ولكن مدة الساعات الست ـ على قلتها وضآلتها ـ قد اتسعت كل دقيقة فيها لأكثر من حدث.. خطير!

فقد كان منتظراً وطبيعياً أن يكون الوزير البريطاني المفوض في مصر على رأس مستقبلي الملك العراقي عند مرور الباخرة في مياه الاسكندرية. ولكن، هل كان منتظراً او طبيعياً ان ينضم بعض الرجال الدبلوماسيين البريطانيين في مصر الى ركاب الباخرة ويسافرون عليها برفقة ملك العراق المسافر الى أوروبا؟!

وقد يكون منتظرا وطبيعياً ان تستطيع فتاة صغيرة وجذابة وساحرة، مثـل «فيكي» أن تلفت اليهـا أنـظار رُكاب الباخرة فيسألون عنها، أو

يحاولون التقرّب اليها، أو يطاردونها بنظراتهم وكلامهم، ولكن هل كان منتظرا أو طبيعياً ان يكون أول عمل يقوم به هولاء الدبلوماسيون الانجليز فور صعودهم الى الباخرة هو السؤال عن الممرضة «فيكي» ودعوتها الى خلوة طويلة تبودلت فيها التعليمات والتحيات والمعلومات والكلام الخطير؟!

ترى ماذا تقول «فيكي» في تفسيرها لكل هذه الاسئلة؟ وبماذا تجيب؟ وكيف تبرر وكيف ترد؟

قالت لي وقد اتسعت دائرة عينيها وارتسم بعض الشحوب الاصفر فوق خدّيها بسبب الإرهاق:

ـ انا كنت صغيرة.. وذاكرتي لا تسعفني كثيراً. ولكني اذكر مثلاً أن شخصية بريطانية غامضة قد اتصلت بي فور اقلاع الباخرة ودعتني الى تناول فنجان شاي في قاعة الصالون وكشفت لي عن منصبها وعملها، وطلبت مني بصراحة تامة ان أوافيها على مدى الأربع والعشرين ساعة بتفاصيل حالة الملك الصحية ونوع الحقن التي يأخذها واقراص الدواء التي يتناولها قبل الأكل، ومع الأكل، وبعد الأكل، وعن أكله ونومه وحركاته ونشاطه.. ثم قالت لي تلك الشخصية الغامضة ان «رستم حيدر» ـ رئيس الديوان ـ لا يعترض على مثل هذا العمل، وأنه على علم تام به.! وعندما سألت «رستم» عن صحة ما سمعته من تلك الشخصية أجابني بهزة رأسه وكلمة بالفرنسية معناها يقول: «لا بأس!»

وهكذا أُحيطت الممرضة الصغيرة «فيكي» باهتمام هؤلاء الرجال الانجليز الغامضين، وبتقديرهم وحُبهم ومُلاحقتهم! وعندما وصلت الباخرة التي تقل الملك الى ميناء «جنوا»، كان القنصل البريطاني في استقبالها، وكانت الممرضة «فيكي» الشخصية الثانية التي يحرص القنصل على مصافحتها وتهنئتها بسلامة الوصول.!

وركبوا القطار الى سويسرا: الملك وحاشيته.. وممرضته الصغيرة!

وفي محطة «بيرن» ـ العاصمة ـ كان السفير البريطاني في طليعة المستقبلين، وكانت الممرضة «فيكي»، الشخصية الثانية ـ بعد الملك ـ التي حرص السفير البريطاني على مصافحتها والتحدث اليها!

قالت لي «فيكي» وما زالت عدسات عينيها مفتوحة في دهشة:

ـ وفي فندق «بيل فو»، اختاروا لي غرفة ملاصقة لغرفة الملك. وكانت غرفة رستم حيدر لا تبعد كثيراً عن غرفتي. وكانت مهمتي ان أرافق الملك في معظم ساعات الليل والنهار! كنتُ أول من يدخل عليه في الصباح، وآخر من يراه عند منتصف الليل. وفي اليوم الثاني من وصولي الى بيرن، دعيت لمقابلة مجموعة من الأطباء السويسريين الذين كانوا يشرفون على علاج الملك. وكان واحد من بين هؤلاء الأطباء يعمل بمثابة الطبيب الخاص له. وهذا الطبيب هو الذي سلّمني مجموعة الحقن الطبية التي سأعطيها للملك. وهو الذي اختار له العلاج وشرح لي كيفية استعماله. وهو ـ ايضاً ـ الذي طلب مني ان أوافيه بتقارير سرية عن حالة الملك الصحية إثر كل حقنة من العلاج اعطيها له. ولم اكن أعلم ان هناك «جهة» اخرى ـ وبالتحديد ـ شخص آخر يشارك طبيب الملك الخاص في جميع اهتماماته بحالة الملك وصحته وتطور علاجه. فقد جاء السفير البريطاني في العاصمة السويسرية الى فندق «بيل فو»، ودقّ على باب غرفتي، ودخل ويده ممدودة أمامه لمصافحتي. وبعد ان شرح لي بأن رئيس الديوان الملكي ـ السيد رستم حيدر ـ على علم بهذه الزيارة، طلب مني أن اطلعه على علب الحقن التي يتناولها الملك، وعلى أقراص الدواء وعلى المسكّنات وأدوية القلب والشرايين والأعصاب، وكان يفتح بنفسه كل علبة ويقرأ الأسماء المكتوبة عليها ويُمسك بالحقن واحدة بعد واحدة ويرتبها على طريقته وفجأة، دق بجانبي جرس التلفون وسمعتُ صوت «رستم حيدر» يطلبني لأمر هام. فتركت السفير البريطاني لوحده في غرفتي وخرجت ألبي «اوامر» «رستم حيدر»..! وعندما عدت اليها بعد حوالي عشر دقائق وجدت جميع علب الحقن وأقراص الدواء وقد أُعيد ترتيبها بعناية خاصة وبنظام يلفت النظر بحيث لم أعد واثقة تماماً بأن هذه العشرات من مجموعات الحقن وعلب الدواء هي المجموعات والعلب والحقن نفسها التي تركتها متناثرة بلا نظام فوق المائدة وبجانب السرير وأمام أدراج المكتب الصغير الذي يتوسط أرض الغرفة؟ هل اضيف اليها دواء آخر؟! هل زاد عددها؟! هل استُبدل الدواء القديم «بدواء» جديد؟ هل كان هذا

الترتيب الحالي لهذه «الأجزاخانة» الصغيرة الخاصة بالملك، أمراً مقصوداً من اجل غاية مقصودة؟!!

لقد ازداد وجه فيكي اصفراراً، ورأيت العرق البارد يتصبب من وجهها الأبيض الصغير. لعلها شعرت بأن حديثها معي قد مرّ على النقطة الحساسة أو النقطة القاتلة - في قصتها مع ملك العراق! لقد سمعتها تقول لي بأن الرجل الدبلوماسي الذي زارها في غرفتها في ذلك اليوم، قد دخل عليها وهو يحمل في يده حقيبة جلدية صغيرة من النوع الذي يحمله السفراء ورجال الاعمال، وأنها لم تعرف مطلقاً ماذا كان في داخل تلك الحقيبة عندما بدأت الزيارة، ولم تعرف مطلقاً ماذا بقي فيها عندما انتهت الزيارة! لقد سمعت «فيكي» تصرخ أمامي وكأنها تستغيث من شبح مخيف ظهر أمامها:

- لم أقدر ان أطلب من السفير البريطاني ان يفتح لي حقيبة يده كي أفحص ما بداخلها! ولم أقدر أن احصي عشرات من علب الحقن والأقراص المرصوصة أمامي كي اعرف ماذا نقص منها وماذا زاد عليها وماذا تبدّل فيها!؟ لقد أصبت بدوار كدتُ معه ان أقع فوق ارض غرفتي مغشياً عليّ! وأدرك السفير حيرتي فاستأذن لارتباطه بموعد سابق على ان يعود ويتصل بي في المساء. ودخلت على جناح الملك فوجدته منزعجاً من شدة الحرّ وينوي الخروج للمشي في حديقة الفندق. ودعاني للخروج معه. وكنا وحدنا بلا حرس ولا عسكر. وراح الملك يشكو لي من تعب الأيام الاخيرة التي قضاها في بغداد بسبب حركة الأشوريين. ثم شكى من حملات الصحف الانجليزية عليه لحساب تلك الحركة! كان يتحدث لي بصدق وبساطة وبدون أبهة ولا عظمة. كان في ذلك اليوم لا يرتدي الجاكيت ولا «السدارة» وكأنه في مظهره الرياضي يُشبه لاعباً انجليزياً يمارس لعبة التنس او لعبة الكريكت. ولكن الملك في حقيقته لم يكن يحب ان يُشبهه احد بالانجليز ولا بأهل الرياضة فيهم. كان يكرههم جميعاً وكانت ابغض الاسماء الى قلبه هي أسماء السير «هنري دوبس» والسير «غلبرت كلايتون» والسير «فرنسيس همفريس» وثلاثتهم عملوا في وظيفة المندوب السامي البريطاني على العراق طيلة ايام الملك فيصل! وسألني

الملك هل جاءت اخبار من زوجته الملكة «حزيمة» ومن إبنه غازي؟ وكان يبدو مهموماً. ثم قال لي أنه مدعو بعد يومين لتناول الغداء مع عائلة هندية معروفة اسمها «زوجة راجا» ومن صديقات الملك المقربات وسيكون الغداء في موقع مجاور عند رأس جبل من الجبال المحيطة بالعاصمة السويسرية! ثم روى لي ان رئيس تشريفاته تحسين قدري قد ذهب الى فندق «بوريفاج» في مدينة «لوزان» وبعد ان طال به السهر واستبدّ به الهوى نام في غرفة الحمام بعد ان ترك حنفية المياه تصب الماء على ارض الحمام ثم تسقط منه الى الأدوار السفلى من بناية الفندق مما ازعج النزلاء ودفع بعضهم الى ترك الفندق والانتقال الى فنادق أخرى. ثم سألني الملك وهو ينظر الى ساعته المُعلّقة في جيبه الصغير فوق قميصه الصيفي الملوّن: «هل حان موعد أخذ الحقنة؟؟».

قالت لي «فيكي»:

- ورجعنا الى جناح الملك. وأعطيته الحقنة الطبية لعلاج الشرايين. وعندما عدتُ الى غرفتي لكي أستريح وجدتُ السفير البريطاني بانتظاري وعلى فمه السؤال العادي: «كيف حال جلالة الملك؟» ثم راح يمطرني بعشرات من الاسئلة الدقيقة وكلها تدور حول الحالة الطبية للملك، وعدد الحقن، وعدد الحبوب المنومة، ومقياس الضغط، وسرعة النبض، ...الى آخره. ثم نهض السفير من مقعده وفتح خزانة الأدوية وفتح علبة الحقن والقى عليها نظرة دقيقة ثم عاد واغلقها وتركها في مكانها وهو يقول لي وخطواته تسبقه صوب الباب الخارجي: «سأراك في المساء لكي اتلقى بقية اخبار الملك!».

ترى ما معنى هذا الاهتمام المريب بصحة الملك؟؟ وما هذه الاسئلة السرّية المحرجة حول شخص الملك؟ ولماذا السفير البريطاني بالذات؟ ولماذا انا بالذات؟ وهل هناك مؤامرة؟؟ وهل هناك خطر؟!

قالت فيكي:

- ألف سؤال وسؤال هزّني وهدّ قلبي وحطّم أعصابي! كنت أنقل كل شيء الى «رستم» فلا أجد عنده ما يبرر شكوكي! كنت احب «رستم» واعرف انه يحبني وانه لا يُخفي عني شيئاً قد ادفع ثمنه فيما بعد من

عمري وحياتي...

ومضى اليوم الواحد، وجاء الغد.

واستمرت فيكي في اداء عملها وهي تغرس الحقنة في «عرق» الملك لكي تعالجه من مرض الشرايين وتحميه من ضربة القدر.

حقنة بعد حقنة! واقراص بعد اقراص! وعلاج بعد علاج!

وبعد ثلاثة أيام، ذهب الجميع الى الجبل المجاور تلبية لدعوة النداء من زوجة «الراجا»! وكانت زوجة «الراجا» قد التقت الملك خلال زيارته الأخيرة للندن ودعته لتناول الغداء في «الشاليه» الخاص المُعلّق بين الأرض والسماء فوق ذلك الجبل العالي من جبال «الالب» المحيطة بالعاصمة السويسرية!

وكان الملك في ذلك اليوم بكامل نشاطه وموفور صحته! وكان يضحك ويركض ويشرب ويأكل وكأنه شاب في العشرين من عمره! ولكنه عندما عاد بعد الظهر الى جناحه الخاص في الفندق، بدأ يشعر بضيق في الصدر وتعب في الجسم! وجاءت «فيكي» واعطته الحقن اللازمة. ولكنها، وقبل ان تخلع ثيابها لكي تستريح قبل حلول موعد العشاء، سمعت صوت تحسين قدري يناديها من وراء الباب كي تأتي بحقنة الانعاش وتعطيها ـ فوراً ـ للملك! ودخلت فيكي على الملك فوجدته مستلقياً فوق سريره وقد أرتسمت خطوط زرقاء فوق وجهه. ورفعت فيكي سماعة التلفون وطلبت الطبيب الخاص. وتظاهرت بأنها نسيت شيئاً في غرفتها وعليها ان تأتي به. واتصلت بالسفير البريطاني لكي تدعوه للمجيء. ولكن السفير ـ على ضوء حساباته وتوقعاته ـ كان جالساً في بهو الفندق بانتظار المفاجآت! وجاء الطبيب! واعطيت الاسعافات اللازمة. ولكن الموت كان اقوى من كل شيء. اذ اغمض الملك عينيه، وفارق الحياة بعد ساعة واحدة..

وكان موجوداً حول سرير الملك عند وفاته: «رستم حيدر»، وتحسين قدري والممرضة «فيكي» ..والسفير البريطاني!

قالت لي فيكي حكيم، او الممرضة التي شهدت وفاة الملك فيصل بن الحسين وهي تعلق على الخبر:

ـ لا ادري لماذا احسست في تلك اللحظة برغبة ملحّة تدفعني لكي

الطم وجه ذلك السفير البريطاني بيدي، او أبصق عليه، أو أشتمه، أو افعل أي شيء أطفىء به حقدي وشكي وقلقي وهواجسي!

وكان ذلك في يوم الثامن من شهر «سبتمبر» عام ١٩٣٣، فنقل الجثمان الى «برنديزي» ومنها على الطراد البريطاني ـ أجل البريطاني ـ المسمى «دسبتش» الى حيفا بفلسطين، ومنها بالطائرة الى بغداد..

* * *

وعادت فيكي الى اهلها في مصر حيث تعرفت هناك على شخصية سياسية معروفة هو «احمد صديق باشا» محافظ الاسكندرية، وتزوجته. وصدر الأمر بنقل الباشا من الادارة الى السلك السياسي حيث أصبح سفيراً لمصر في اليابان! وفي اللحظة التي وصل فيها الباشا الى «سنغافورة» في طريقه الى طوكيو، أعلنت الحرب العالمية الثانية، فعاد الباشا فوراً الى مصر، وأصبح يشغل منصب «الحارس على أملاك الاعداء من المان وطليان في الدولة المصرية».

واعتنقت فيكي دين الاسلام وتركت الدين اليهودي.!

وقامت ثورة ٢٣ يوليو، فقرر «صديق باشا» ان يهاجر الى سويسرا وان يقيم مع زوجته فيكي في مدينة لوزان.

والتقيت بها في لوزان..!

صوتها رفيع. ولهجتها مصرية «بنت بلد»، وتصوم رمضان وتحب الباشا زوجها، وتحب الحياة، وتروي الذكريات..!

وعندما سألتها عن أسماء الاشخاص الذين يحملون سرّ وفاة الملك فيصل بن الحسين في صدورهم، قالت على الفور.

ـ كان «رستم حيدر» يعرف سرّ القصة. ولكن الذين يعرفون عنه ذلك، قد قرروا التخلّص منه عندما أرسلوا اليه مفوض شرطة مفصول من عمله وأطلق عليه الرصاص فقتله في مكتبه بوزارة المالية ببغداد في منتصف شهر يناير من عام ١٩٤٠.!

سألتها: وماذا جرى للسفير البريطاني.. إيّاه؟

قالت: لقد قضت عليه الحرب..!

قلت: وماذا عن تحسين قدري؟

قالت: هذا الموضوع هو آخر همومه..

قلت لها وأنا ارفع يدها الصغيرة البيضاء والثمها مودعاً، وشاكراً.. وحزيناً:

ـ وهكذا لم يبق منهم الا فيكي! وأنا ارجوك الصحة والعمر الطويل..

وبكت فيكي وهي تجيبني قائلة بصوت خنقته الدموع:

ـ انا سألحق بهم قريباً! سألحق بفيصل، و «رستم» وبقية الأحباب!.

ثم افتعلت ضحكة قصيرة قالت لي من خلالها.

ـ من يدري؟ قد نكمل في «الآخرة» القصة التي بدأناها في هذه الدنيا، ولم يسمح لنا السفير الانجليزي في «بيرن» ان نكملها في سويسرا..

ولم ار «فيكي» بعدها.

لقد زرت قبرها في لوزان، ووضعت عليه باقة ورد بلا اسم، ولا كلام.. ولا تفاصيل!

الخامسة

قصة كلير..
إمرأة وأكثر من فاروق واحد

اسمها موجود في دفاتر بوليس روما. واسم عشيقها السوري الشاب موجود في دفاتر الموتى. وقصة المرأة التي أحبت ثم قتلت ليس بالشيء الجديد منذ عهد آدم وحواء. ولكن الجديد في هذه القصة ان بطلتها التي قتلت أصلها من مصر، وضحيتها القتيل أصله من دمشق، ومسرح الهوى بدأ في «جنيف»، ومسرح الجناية انتهى في روما! وان زوج المتهمة بالقتل كان شريكاً لها في العملية! وان ثبات التهمة على الاثنين معاً قد أضاع التهمة عن الاثنين معاً..!

وبعد هذا، فان الجديد في هذه القصة هو الجديد في بطلتها المصرية. في اسلوب حبها وفي اسلوب انتقامها! انها مُبتكِرة في تعاملها مع الحب وفي تعاملها مع القتل! وقد قيل ان المرأة الشرقية تفقد نفسها عندما تخرج من الشرق، لأنها تخوض في متاهات الغرب وتغرق في مستنقعاته وتضيع في شراكه، ولكن «كلير» ـ أعني هذه المرأة ـ أثبتت في حياة الغربة انها في الغربة أقوى منها في وطنها، وانها في حقدها أروع منها في حبها، وأنها أقدر من ملايين الاوروبيات من بنات جنسها على العشق والعيش، ثم على القتل ودخول السجن، وتحدي التحقيق، وعلى زعزعة القضاء، والفوز بالبراءة، ومن ثم العودة الى أرض وطنها بعد ان عادت الى أحضان زوجها وتخلصت من أحضان... عشيقها!

قصة مثيرة تبحث عن مخرج سينمائي...

ومن عادة باشاوات مصر واغنيائها وحكّامها عندما يزورون سويسرا في الصيف الاقامة في فندق «دي بيرج» المطل على بحيرة جنيف. اما كبار رجال الأعمال المصريين من أمثال فرغلي باشا او عبود باشا أو الشوربجي أو شاهين، فقد كانوا يختارون فندق «دي رون» المحاذي

لفندق «دي بيرج» كمقر لهم حيث يتجمعون في ساعات بعد الظهر على التــراس الخـارجي المشرف على النهــر ويقـرأون صحيفـة «الأهرام» ويتناقشون في اخبار مصر العامة، وبالأخص في أخبار الصناعة وقوانين التأميم والقرارات الاشتراكية الأخيرة.

وكان «صبحي الشوربجي»، المعروف بمصانعه الشهيرة في القاهرة والاسكندرية احد هؤلاء الكبار الذين اختاروا فندق «دي رون» مقراً لهم في اشهر الصيف، والذين اعتادوا الجلوس في التراس الخارجي للفندق للتمتع بمنظر النهر، واستعراض جموع النساء والرجال الذين يمرون من امامهم عندما يأتي المساء ونجوم الليل تظهر..

وكنت اجلس مع صبحي الشوربجي في ذات مساء، على تراس فندق «دي رون» عندما رأيت سيارة «مرسيدس» بيضاء تقف عند المائدة التي كنا نجلس اليها وينزل منها شاب وسيم الشكل طويل القامة أبيض اللون أنيق الهندام، لم يلبث ان انحنى على يد صبحي الشوربجي ولثمها، ومد يده كي يصافحني بينما صوت الشوربجي يرنّ في اذني قائلا لي:

ـ أقدم لك ولدي فاروق الشوربجي!

ثم اكمل على الفور وكأنه لا يريد أن ينسى:

ـ إنــه خريــج جامعــة «اكسفـورد» والمـدير العام الجديد لشركات الشوربجي وأعماله في اوروبا.!

ـ تشرفنا.!

ولم يكد الشوربجي الشاب ينتهي من مصافحتي حتى أقبلت علينا سيـدة جميلة تنــاهز العقد الثالث من عمرها، وشعرها أشقر، وعيناها عسليتان وقامتها تميل قليلاً الى السمنة وتتحرك بعصبية وتتكلم كانطلاق الرصــاص، واحتضنت صبحي الشـوربجي بحنان يلفت النظر، وقام الرجل بتقديمها الى ولده «فاروق» وهو يقول لها بكل اعتزاز وتيه.. وسعادة:

ـ أقدم لك أحلى شباب العالم، ولدي فاروق «بيه» الشوربجي!

وانحنى «فاروق» على يد السيدة يُقبّلها على طريقة خريجي اكسفورد بينما والده يقدمها لي قائلا:

ـ هذه مدام «كلير».. صديقتنا العزيزة من مصر.!

ولم يزد حرفـاً واحداً! ولم يقل لنا عن اسم عائلتها او زوجها! ولم يزوّدنا بأخبار عملها او مقر إقامتها أو وضعها الاجتماعي مثلاً!

ـ تشرفنا مدام كلير.!

ولم تسمعني مدام كلير.! كانت نظراتها مشدودة صوب الشاب فاروق الذي كان قد بدأ يُسلّط نظراته عليها! وعندما دعاها فاروق للجلوس معنا تعمدت ان تجلس امامه وليس الى جانبه؟ لقد حجبت عنه التمتع بمنظر النهر كي تعوّضه تمتعاً بمنظر وجهها الضاحك وصدرها العاجي وشعرها الأشقر الجميل! وبدأ فاروق يرمي شباكه من خلال النكتة المؤدبة او الخبر الطريف أو التعليق الذكي او ترديد عبارة «لاتينية» تفصح عن العنوان المثقف لصاحبها الاكسفوردي الشاب. ولو عرف فاروق بأن «كلير» لم تقلّ رغبة منه في التعرف عليه، ولم تكن أقل اهتماماً به من اهتمامه بها، لوفّر على نفسه كل ذلك المجهود الصبياني الساذج في محاولة كسبها الى جانبه أو ضمها الى سلسلة معشوقاته! فقد كانت «كلير» تعرف كل شيء عن فاروق حتى قبل ان تراه. لقد سمعت عن أخباره من والده الذي كانت تفخر بصداقته وتعتز برعايته. وكان الأب معجباً بشخصية «كلير» اعجاباً هائلاً! وعندما يعجز الرجل عن كسب تقدير المرأة عن طريق رجولته، لا يملك الا ان يلجأ الى تكرار الحديث عن رجولة ابنه كتعويض له عن خسارته! وكان صبحي الشوربجي مغرماً بلعب دور «الدون جوان» العجوز مع اعترافه التام بفضائل «الدون جوان» وبعجز.. العجوز معاً!

وكانت كلير، بذكائها الحاد، تعرف كل هذه الحقائق حول نقاط الضعف في صبحي الشوربجي كرجل، وعن نقاط القوة في صبحي الشوربجي، كأب! كان يحدثها عن ولده وكأنه يناجي معشوقته أو يغني لطفله أو يداعب أمله الكبير! كان يسرد لها مزايا ابنه، واحدة بعد واحدة، فكان يؤكد لها ان فاروق يتحدث الانجليزية كالانجليز، ويجيد التركية ـ ووالدته من استنبول ـ كالأتراك، وينظم الشعر باللغة الفرنسية، ويحفظ دواوين اكبر شعراء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام! وكان فاروق ـ

ايضا ـ يجيد العزف على اكثر من آلة موسيقية واحدة، ويمارس اكثر من لعبة رياضية معروفة، ويملك اكثر من سيارة سباق مشهورة! لقد اعطاه والده كل ما يتمناه الأبن من ثروة ورعاية، وأعطته «اكسفورد» الثقافة والشهادة والعلم، ثم جاءت «كلير» لكي تقطف ثمار كل ذلك، وبكل دقة ودراسة وعناية وتخطيط ذكي!

وفي تلك الجلسة، وعلى تراس فندق «دي رون» بجنيف، وما زلت اذكرها حتى هذه الساعة، بدأت كلير حديثها معنا بالشكوى المرّة من حياة الغُربة والتشرد في خارج موطنها مصر! كان الحديث عن قلّة الخدم وكسلهم وأجورهم الباهظة! وباللغة العامية المصرية راحت «كلير» تردح لخدم اوروبا وجهلهم وتعاستهم مؤكدة انها في مصر لم تدخل مطبخ بيتها مرة واحدة في حياتها.. «وأن الخدم عندنا كتير.. و «يوسف باشا» والد زوجي «جو» ترك لنا مجموعة الخدم النوبيين الذين كانوا يسهرون على خدمته في قصره بالزمالك وفي عزبته بالوجه البحري! الحياة في مصر سهلة ولذيذة. صحيح اننا نحن مش من العائلة المالكة، انما إحنا ناس اغنياء.. ووالدتي من أصل بولوني.. ووالدي رجل غني.. وكذلك زوجي. لقد ورثنا عن «الباشا» والد زوجي الملايين من تجارة القطن، وكنا اكبر مصدري القطن المصري الى الخارج! كده والا لأ؟! يا ترى نسيتوا ان الثورة صادرت ملايين الجنيهات من ثروتنا في مصر؟ يا ترى الناس نسيت عائلة زوجي وخدماته للبلد؟؟!»

وأراد «صبحي الشوربجي» أن ينتقل بالحديث الى ما هو أسهل وألذ بل وأكثر إنسجاماً مع الجلسة المُطلّة على النهر والبحيرة، فسأل «كلير» دون مقدمات:

ـ لماذا لا تذهبين مع فاروق في سيارته غداً الى باريس؟

وقبل ان تفتح كلير فمها لكي تسأل فاروق عن مشروع سفره الى باريس، قال لها فاروق ضاحكاً:

ـ أنا في العادة أستيقظ مبكراً، وأبدأ رحلاتي مع شروق الشمس.. فما رأيك؟

وأجابت «كلير»، وهي ترسم دهشة مُصطنعة فوق وجهها:

ـ ليس عندي أي حل للسفر معك قبل شروق الشمس سوى ان ادعو نفسي الآن للعشاء معك، ثم الذهاب معك الى شقتك ثم النهوض المبكر معك قبل ان تشرق الشمس ثم السفر فوراً الى باريس معاً!

وقهقه صبحي الشوربجي لهذه الجرأة المحببة من «كلير» وقال لها وهو يغمز لأبنه فاروق:

أنا أدعوكما لتناول طعام العشاء معي، وأترك لكما بعد ذلك تدبير اموركما بدوني..

ونهض الجميع لتناول العشاء في مطعم فندق «دي رون». وبعد العشاء ركب فاروق سيارته المرسيدس البيضاء ولثم يد والده مودعاً، وخرج وأخذ معه.. «كلير»!

* * *

ليس مهماً اين قضت «كلير» ليلتها الاولى بعد ان تعرفت على فاروق. انما المهم انها استيقظت مبكرة مع شروق الشمس، وركبت السيارة المرسيدس البيضاء مبكرة مع صديقها فاروق، وسافرت الى باريس مبكرة وفي سيارة واحدة مع الشاب الذي تعرفت اليه منذ اقل من ٢٤ ساعة!

وهنا بدأت المأساة! فقد كان فاروق شاباً مغروراً ومستهتراً الى حد كبير. وكان في حبه لـ «كلير» لا يطفىء شهوة الجنس فحسب وانما يشبع من خلالها الف جوع والف ضياع! لقد أحب فيها وطنه الذي هجره، ورأى فيها الرفيق الذي يبحث عنه، واحس فيها شريكة وأنيسة وتوأم عذاب وتشرد واغتراب. وكان فاروق معجباً جداً بالملك «فاروق» ويشعر باحترام كبير نحوه ويحس بأنه مدين لهذا الملك بما انعم به على والده «صبحي» من رتب وألقاب! وكذلك كانت «كلير».. تفخر بصداقتها مع الملك فاروق وتتغنى بما انعم به هذا الملك على والد زوجها من أوسمة وألقاب لم يكن لقب «الباشاوية» اكبرها شأناً ولا أقلها قدراً! وجاء هذا الحب المشترك من الطرفين للملك المصري، الذي لم يتمتع بوفرة المحبين في حياته، عاملاً جديداً يزيد في توثيق عرى المحبة والصداقة بينهما! وكانت «كلير» تحب في الرجل صورة الطفل وصورة المرأة معاً! وكان فاروق يحب ذاته ويتغنى بماله ويُعجب ـ قبل الآخرين ـ بوسامته وجماله! كان

ثرثاراً كثير الكلام ويختلق القصص السخيفة التي لا يصدقها، ولا ينطق بهـا الا الاطفال الصغار! كان يطلبني بالتلفون في منتصف الليل على شقتي بمـدينة «جنيف»، والدنيا برد وثلوج وعواصف لكي يروي على مسمعي قصصاً اخترعها عن غزواته الغرامية الساذجة وكيف ان أبنة عم امبراطورة ايران تُهدد والدها بالانتحار اذا لم يسمح لها بالزواج من فاروق.! وكيف ان الأمـيرة المصريـة «فـايزة خوار»، شقيقة ملك مصر السابق، تطارده في شوارع «جنيف» لكي يدعوها للعشاء وللسهرة، أو الى ما هو بعد العشاء، وبعد السهرة! كان سخيّاً في اكاذيبه التي يريد بها ان يؤكد للسامعين قدرته العجيبة على غزو قلوب النساء وارغامهن على الاستسـلام له! وكـانت بعض النسـاء الشرقيـات اللواتي يعرفن والد «فـاروق»، يتصلن بذلك الوالد بقصـد الشكـوى من لسـان «فاروق» ـ ابنه ـ وكيف أنه يسمح لنفسه احياناً بالخوض في مواضيع حساسة تمس اعراض الناس وشرفهم وتؤثر على حياتهم الزوجية، وان مثل هذه الأحاديث الخطيرة والمتفجرة لن تخدم احداً سوى الشيطان، وان من يرددها أو يخترعها قد يلقى ذات يوم من ينبري له وينتقم منه ويضع حداً لقصصه ورواياته!

وكـان فاروق شغوفاً بالطعن في كرامة السيدات المتزوجات بصورة مكشوفة لا يقدم عليها الا الأطفال! وكانت «كلير» تحب في فاروق هذه الطفولة الشيطانية، او هذه السذاجة الوقحة وتحفظ قصصه وترددها عن لسانه أمام الناس! كانت أشبه بالأم العبيطة التي تصفق لطفلها كلما كسر كأسـاً أو حطم طبقـاً أو قلب وعاء او أرسل كلمة بذيئة فيها من السباب اكثر مما فيها من الكلام الحلو الذكي!

وهكـذا استمـر فاروق يروي القصص الخيـالية عن السيدة حرم المليونير السوري التي هربت من زوجها الشاب اكراماً له، وعن شقيقة ذلك الزعيم اللبنـاني التي لم تزل تطارده في شوارع «ميـلانـو»، وعن «صوفيا لورين» او: «لولو بريجيدا» او: «اوليفيا دي هافيلاند» اللواتي يتحمّلن من العـذاب في سبيل فاروق ما لا يقدر عليه بشر! لقد استمر يتصرف كالأطفال الكبار، ويخترع الروايات كعجائز الحي، ويسيء الى

الحرمات والبيوتات كأسوأ ما تكون الأساءة! ورغم كل ولعه في اقتراف مثل هذه المبالغة، وجنوحه نحو الكذب والتلفيق عن غزواته العاطفية، فقد بقي فاروق في صميم نفسه يشكو من الوحدة العاطفية او الفراغ العاطفي الذي لم يكن له من سبب سوى انه عاش بلا أخ ولا أخت ولا قريب يشاركه هموم الحياة، ويفهمه أو يفهم منه! وعندما أنهى فاروق دراسته في جامعة اكسفورد ظن انه سيعود بعدها الى مصر لكي يتولى ادارة شركات والده القائمة هناك بانتظاره. ولكن قرارات التأميم الاشتراكية في ايام «عبد الناصر» جرّدت الشوربجي من حق التصرف في املاكه، وفرضت على ابنه فاروق الشاب ان يبقى بعيداً عن وطنه وعن شركات اهله! لقد عاش فاروق وهو يشعر بالكثير من الظلم والغربة والجفاء العاطفي والعزلة النفسية والنفي عن اهله وبلده وممتلكاته! ولم تستطع والدته التركية الاصل ان تعوّضه شيئاً عن هذا الظمأ العاطفي! وكذلك لم يقدر ابوه ـ بثقافته المحدودة وكبر سنه ـ ان يتجاوب معه في طلباته وفي احلامه. وكان لفاروق أخ من أبيه ومن أمّ عربية أصلها من مدينة «غزة» بفلسطين، ولكن فاروق لم يشعر بأية عاطفة نحو ذلك «الأخ»، ولم يبادله ذرة من الحب! وهكذا، وعندما التقى فاروق الشاب، بالمرأة المصرية «كلير».. لم يجد فيها مجرد امرأة جميلة، ومثقفة، وشهوانية، وذكية، وطموحة، فحسب، أي لم يعثر على عنصر «المرأة» فيها فقط، وانما وجد فيها بعض وطنه، وبعض أمه، وبعض املاكه التي صادرتها الثورة، وبعض الاهل الذين لم يرهم في بلده، وبعض الذكريات والقصص، مع الكراهية المشتركة لثورة «٢٣ يوليو»، والحب المشترك لنادي الجزيرة، والشوق المشترك لشواطىء الاسكندرية في الصيف، والبحث المشترك عن ساندويش الفول والطعمية وطبق الملوخية والبامية في ليالي اغسطس على شاطىء النيل والولاء المشترك لملكٍ سابق سقط عن العرش!

وبكل حماسة الشباب واندفاعه وجنونه، مضى العاشقان الشابان يكتبان فصول قصتهما في الحب بين العواصم الاوروبية المختلفة!

وقال فاروق لاصدقائه بلهجة الشاب العاشق والمنتصر: «انني أحب

سيـدة جميلة ومن أرقى عائلات مصر، ومتزوجة! ولكني سأطلقها من زوجها لكي أتزوجها...»

وقـالت «كلير» لأصدقائها بلهجة الشابة العاشقة والفخورة: «انني أحب شاباً مصرياً ووسيماً وثرياً ومتخرجاً من جامعة اكسفورد، وسأطلق زوجي لكي اتزوجه!»

وانتشرت اسرار هذا الحب بين جميع اقارب الشوربجي وجميع أقارب «كلير» في داخل مصر، وفي خارجها!

وعرف بالقصة والد فاروق واخوته وأمه التركية. كما عرف بالقصة زوج «كلير» وعائلته واصدقاؤه.

وعندما حاول الأب أن ينصح ولده الوحيد والمدلل أن لا يمضي طويلاً في حبـه لسيـدة متزوجة وشرقية وصديقة شخصية له ولعائلته، أجابه فاروق وبكل هدوء وغرور وثقة:

ـ اسمـع يا والدي: انني أتحـدث عن الزواج ولكني لا أفكر فيه. واتغنى بالحب ولكني لا أعرف ما هو الحب! إن «كلير» مجرد امرأة من العشرات اللواتي عرفتهن في حياتي. وكل واحدة منهن كانت تطمع في أن تتزوج من إبنك فاروق! إنك انت يا والدي صاحب الفضل في هذه الشهرة التي اتمتـع بها عند النساء! لقد منحتني وسامة في الصورة، ومالاً في المصارف وثقافة جامعية، واسماً كبيراً فماذا تنتظر مني ان أفعل؟؟ هل ادخل مدرسة الجامع الأزهر وأصبح شيخاً يلبس العمامة ويحاضر في الناس حول محاسن الأخلاق!؟؟ إن المرأة تعجز ان تحدق في هذا الوجه الحسن الذي أعطيته انت لولدك! إن «كلير» لا تقدر ان تنظرني بعينيها او ان تقرب وجهها من وجهي! انها تقول لي أنني أملك في نظراتي قوة سحرية لا تقدر أية امرأة ان تصمد أمامها أو أن تقاومها! وليس معقولاً يا والدي أن أترك كل هذه النعمة الى امرأة واحدة فقط لكي تتلاعب بها باسم الزوجية! انني لن أتزوج مطلقاً! لا من «كلير» ولا من غيرها! ولكن ميزة «كلير» على سواها انها تحبني، وأنها ستطلق زوجها لكي تصبح حرة في حبها لي، وانها من عائلة غنية وعريقة في بلادنا، وانها مثلي تحب أكلة الملوخية والبامية والفول والطعمية، وانها غيورة جداً عليّ وتراعي صحتي

في الأكل والسهر! فلماذا أتركها؟! إنها أحسن من أية «خادمة» في العالم للسهر على راحتي! وهي خادمة بالمجان. وخادمة في الليل وفي النهار. وخادمة في داخل البيت وفي خارجه! وخادمة متمرّنة ومثقفة وتجيد الانجليزية والفرنسية والبولونية والعربية! وخادمة تضرب على الآلة الكاتبة، وترد على التلفون، وتشرف على نظافة البيت، وتحاسب الموظفين في المكتب، وترقص معي في مقاهي حي «فيّا فينتيو» بروما حتى الفجر.!

وعندما سمع الوالد اسم حي «فيّا فينتيو»، سأل ولده:

ـ هل اصبحت تتردد على روما كثيراً في المدة الأخيرة؟

وأجاب فاروق على الفور.

ـ بل لقد قررت ان أجعل مقر اقامتي في روما! لقد استأجرت مكتباً في حي «فيّا فينتيو» مقابل فندق «اكسيلسيور»، وسأبدأ في شراء المباني وتأجيرها في أرقى أحياء العاصمة! وسأطلب من أعمامي الدخول معي في الشركات التي اسستها لهذا الغرض.!

وسأله والده: ولماذا روما؟. لماذا اخترت روما بالذات؟

وأجاب فاروق: إن «كلير» هي التي طلبت مني أن اختار روما للسكن وللعمل! إنها تحب روما... ولا ادري لماذا؟!

وعاد الأب يسأل ابنه فاروق:

ـ هل ستبقى «كلير» معك في روما.؟ أعني هل ستعيشان معاً؟

وأجاب فاروق:

ـ انها معي الى ان تزهق مني، وترحل عني!

ثم أضاف ضاحكا:

ـ كما فعلت معي الكثيرات من قبلها.!

وهكذا استسلم «صبحي الشوربجي» لأرادة إبنه فاروق، وتركه يمارس العمل ويمارس الحب، بعيداً عنه في العاصمة الايطالية.

وبقي هو في «جنيف»..

وكنت التقي به، فلا أسمع منه شيئاً الا وفاروق المدلل طرف فيه! إن مرت بنا سيارة، فان «فاروق» يملك واحدة مثلها! وان مرت بنا امرأة، فان فاروق يحب واحدة تشبهها!! كان فاروق هو هاجسه وسلوته وبقية عمره.

ومضت شهور.!

وذات ليلة، وكنت أغالب القلق في شقتي بجنيف عندما دق جرس التلفون وسمعت صوت «زهير القباني» وكان يعمل يومذاك مديراً لمكتب الجامعة العربية في «جنيف»، وهو ـ كالشوربجي ـ سوري الأصل، يقول لي بصوت مذعور ان «الولد» فاروق قد وجدوه مقتولا في شقته بحي «فيّا فينتيو» بروما، وان القاتل قد تعمد ان يحرق وجه القتيل بماء النار وحامض الكبريت قبل ان يضربه بالرصاص.!

وأضاف «زهير القباني» يقول لي وكأنه يدلني على هوية القاتل:

ـ إن القاتل الذي يصرّ على تشويه وجه ضحيته بحامض الكبريت قبل ان يجهز عليه بالرصاص، لا بد وان يكون... إمرأة!

ثم أنهى محادثته لي قائلاً:

ـ تعال معي نذهب في صباح الغد لكي نستقبل والده «صبحي» القادم غداً بالطائرة من مصر، وننقل اليه الخبر تدريجياً! إنه لا يعلم حتى هذه الساعة اكثر من أن إبنه قد اصيب في حادث سيارة وان اصابته خطرة.!

* * *

وفي صباح اليوم التالي كنت مع مجموعة من أصدقاء الشوربجي وأقاربه وأصهاره، نستقبل الوالد الحزين في مطار جنيف!

وكان «زهير القباني» قد طلب من أحد الأطباء السويسريين ان يأتي الى المطار ومعه حقيبته الطبية وبداخلها حُقناً مسكنة واقراص مقوية للقلب تمهيداً لإبلاغ «صبحي الشوربجي» بنبأ مقتل إبنه الشاب!

وفي الدقيقة التي هبط فيها الشوربجي من طائرته، تقدم منه الطبيب السويسري وأبلغه ان في البلد اصابات بمرض مُعدٍ ولا بد من إعطائه الحقنة المناسبة في مثل هذه الحالات!

واستسلم الشوربجي لطلب الطبيب، بينما تقدم منه صديقه السفير السعودي في جنيف وابلغه بحادث مقتل ولده فاروق في مكتبه بروما!

وأغمي على صبحي الشوربجي.! ولم يكد يصحو من اغمائه حتى غرق في دموعه كالأطفال المفجوعين بالمصاب الأليم!

وطلب ان يحجزوا له مقعداً على اول طائرة تحمله الى روما.

وبعد ٣ ساعات كان صبحي الشوربجي يبكي بحرقة فوق جثة ولده المشـوهـة بحـامض الكبـريت، والملقاة وسط مكتبه الواسع الأنيق في العاصمة الإيطالية!

وعندما سأله المحقق الإيطالي عن الأشخاص الذين يظن بأنهم قتلوا ولده، اجاب صبحي الشوربجي على الفور.

ـ اسألوا كلير! اما أنها تعرف، واما انها هي القاتلة!

وعندما القى البوليس الايطالي القبض على «كلير..» وبدأ يحقق معها في قضية اغتيال «فاروق الشوربجي»، قالت كلير أن زوجها هو الذي قتل فاروق من اجل الدفاع عن شرفه.. وعرضه!

والقي القبض على الزوج الذي اعترف بكل شيء! قال للبوليس انه ذهب مع زوجته ـ أو مطلقته ـ «كلير» الى مكتب فاروق، ودار بينهم نقاش حاد، إنتهى بأن قامت «كلير» بقتـل «فاروق» بمسدس كانت تحمله في حقيبة يدها.!

وانكرت «كلير» أنها هي التي قتلت فاروق مؤكدة للمُحقق بأن دورها في الجناية لم يتعد كونها قذفت بمحلول حامض الكبريت في وجه فاروق وحرقته لكي تشوهه وتقضي على الوسامة التي كان فاروق الشاب يعتز بها أمام النساء انتقاماً منه لأنه وعدها بالزواج ثم تخلى عنها ولم يتزوجها، رغم انـه حطّم حيـاتها وأرغمها على ان تطلق زوجها الذي كانت تحبه وتعيش معه، وراح يتسلى بفضحها أمام الناس!

وأصرّ الزوج على أقـواله مؤكدا ان كلير هي القاتلة. بينما تمسكت «كلير» بأقوالها واتهمت الزوج بقتل فاروق أمامها!

ودخل الزوجان السجن رهن المحاكمة..

وتبرعت معظم صحف العالم بنشر تفاصيل القضية على صفحاتها الأولى، وخاصة الصحف الايطالية التي وجدت في هذا الحادث المدوّي صورة طبيعية للنفس البشرية العادية التي اذا شعرت بخيانة الحبيب عمدت الى الانتقام منه بالقتل او بالتشويه او بالإثنين معاً!

وقـالت احـدى مجلات روما في تعليقها الافتتاحي على حادث مقتل فاروق: «هكذا يفعل الإيطاليون وهكذا تنتقم الإيطاليات!»

وبين ليلة وضحاها أصبح اسم «كلير».. واسم زوجها.. واسم «فاروق الشوربجي» على كل لسان! حتى عازف الكمان العجوز الذي كان يقف في كل ليلة بجوار المدخل الرئيسي لكافيه «دي باري» وزملاؤه الذين اعتادوا العزف على آلاتهم الموسيقية في مقاهي ميدان «باربريني» بروما، قد وضعوا الأغاني الخاصة عن مقتل «فاروق» بيد عشيقته «كلير»، وبعضهم راح يبكي عليه، وبعضهم راح يبكي عليها، وبعضهم راح يواسي الزوج المخدوع الذي فقد زوجته لفاروق، ثم فقد حريته ودخل السجن بتهمة القتل!

وجاء دور المحاكمة...

واختارت عائلة «كلير» كبار المحامين الايطاليين للدفاع عنها وعن زوجها! بينما استبدّ عُنف المأساة بوالد فاروق فاستسلم للصمت ولليأس ولم يبذل جهداً كافياً ولا مالاً كافياً للثأر من الذين قتلوا ولده الشاب!

وصمدت كلير للتحقيق وللضغط وللأسئلة المحرجة في داخل المحكمة بكل قوة واتزان! لقد ضربت بقوة أعصابها وتماسكها أروع الأمثلة في العناد ومتانة الشخصية! لقد بقيت ترفع رأسها عالياً، وتتمسك بهندامها ورشاقتها، وترقب حركاتها، وتحافظ على هدوئها، وتناقش مستجوبيها حتى صدر الحكم الاول بإدانتها وإدانة زوجها معها!

ثم كان القرار بالاستئناف من طرف المتهمين.

ثم صدر قرار الاستئناف بالحكم مدى الحياة.

ثم جاء استئناف شكلي جديد يتعلق بشهود جدد وأدلّة جديدة!

ثم صدر الحكم بخروجها من السجن تحت الكفالة!

واستمرت القضية شهوراً طويلة.. ومملة.. ومكررة!

وعندما بحثوا عن «كلير» في الأراضي الايطالية، وجدوا انها استطاعت التسلل خارج البلاد والعودة الى مصر.!

* * *

وقال لي «صبحي الشوربجي» ونحن نجلس من جديد على مائدة صغيرة في تراس فندق «دي رون» المطل على نهر جنيف وبحيرتها

الجميلة... تلك المائدة التي جلسنا عليها كلنا ذات يوم، مع إبنه القتيل الشاب فاروق، وحبيبته القاتلة كلير..، قال لي صبحي الشوربجي وكأن شبح إبنه يقف أمامه في تلك اللحظة لكي يحاسبه او يناقشه:

ـ لقد عادت كلير الى مصر وهي تعلم ان الانتربول أو ـ البوليس الدولي ـ يطاردها! ولكن الرشوة لعبت دورها. وفي روما كل شيء له ثمنه. حتى القضاة يمكن شراؤهم! وانا ـ والكلام للشوربجي ـ اعتقد تماماً بأن «كلير» وأهلها دفعوا رشوة هائلة للقضاة الإيطاليين الذين نظروا في تلك القضية، مما جعل هؤلاء القضاة يلجأون الى المواد القانونية العجيبة التي تقدر ان تُخفّف العقوبة عن القاتلين بحجة ان كلًا منهما يرمي بالتهمة على الآخر! ليس في روما قضاء ولا قضاة! هناك شيء اسمه فلوس! وانا بعد ان مات ولدي لم يعد يهمني أن انفق فلوسي بداعي الانتقام فقط! لقد عرف العالم كله ان «كلير» وزوجها هما اللذان قتلا ولدي. والحكم عليهما بالموت او بالسجن المؤبد لا يهمني لأنه لن يعيد لي ولدي! لقد أصابتني حالة من القرف، أو اليأس، او الحقد الذي شلّ ارادتي وحطم اعصابي فلم أعد اكترث لشيء ولا حتى لنفسي...

واستمر صبحي الشوربجي يقول لي:

ـ شيء واحد فقط بقي يقض مضجعي ويسلب النوم من عيني ويزيد من حرقتي على ولدي الذي قتلوه! هذا الشيء هو انني المسؤول عن تعريف فاروق بالمرأة.. كلير! انا الذي كنت اعرفها! وانا الذي كنت صديقها! وانا الذي دعوتُ فاروق أن يصحبها معه الى باريس! أنا وحدي المسؤول عن ضياع ولدي.!

ورأيت صبحي الشوربجي يرفع بيده المنديل الحرير المعلق في الجيب العلوي من سترته الأنيقة، ويمسح به دموعه..

ومضت شهور طويلة ولم يعد أحد يسمع عن كلير او عن زوجها شيئاً..

لقد اختفت كلير من الصحف، ومن الأخبار، ومن المحاكمات، كما اختفت من أوروبا كلها!

وعندما التقيت بصبحي الشوربجي في احد شوارع «جنيف» بعد

حادث ولده بفترة طويلة وسألته عن كلير وزوجها وماذا جرى في المحاكمة، أجابني قائلا:

- إن صلاح نصر، رئيس المخابرات المصرية، استدعى الى مكتبه امرأة مصريـة الأصل، بولونية الدم، كانت بحكم اقامتها في اوروبا صديقة حميمـة لمجموعة من صديقات الملك السابق فاروق ومن بينهن الغانية «ايرما كابيتش مينوتولو» وهي فتاة بارعة الجمال وابنة سائق تاكسي في «نابولي»، وكذلك الغانية الايطالية الصغيرة «آنا ماريا جاتي» العاملة في احدى محلات التزيين للسيدات، وقال صلاح نصر للمرأة البولونية الدم، المصرية الجنسية، ان الحكم قد صدر بسجنها مدى الحياة من أعلى محـاكم ايطاليا، وأن بوليس الانتربول يلاحقها لكي يُسلِّمها للسلطات الايـطاليـة، ولكنه - أي صلاح نصر- على استعداد لحمايتها وضمان حريتها واستقرارها في وطنها مصر بشرط ان تتعهد بدورها ان تنفذ ما سيطلبه منها..! وعندما فتحت المرأة البولونية الدم المصرية الجنسية فمها دهشة لكي تسأل رئيس المخابرات عن الشيء الذي سيطلب منها تنفيذه، قال لها صلاح نصر وهو ينهض من وراء مكتبه الضخم ويجلس بجانبها على الكرسي المواجه

- سأعطيك بنفسي ثلاث حبات دواء أبيض.. وعليك تسليمها لإحدى صديقاتك المقربات من الملك فاروق في روما لكي تضعها له في كأس عصير البرتقال أو عصير الليمون الذي اعتاد ان يتناوله مع العشاء! إن هذه الحبات لا تترك أي أثر. انها تقتل تدريجياً ولا يستطيع الطب ان يكتشف مفعولها..

قال لي «صبحي الشوربجي»، مستطرداً لكي يكمل بقية قصته لي:

- وبالطبع قامت تلك المرأة البولونية الدم، المصرية الجنسية، والمتهمة في جناية قتل، والمطاردة من البوليس الدولي - الانتربول - بتنفيذ كل ما طلبه منها «صلاح نصر»، رئيس مخابرات مصر. مقابل ان يضمن لها حريتها وأمنها وسلامتها!..

وسكت صبحي الشوربجي!.

وظننت ان أثر الفجيعة التي أصابته في فقدان ولده قد مسّت قواه

العقلية فأفقدته توازنه! وإلا، فما هذه الرواية الخيالية عن المرأة التي قتلت فاروق الشاب، ثم قتلت بعده فاروق الملك.؟ هذا خيال ساذج! هذا كلام فارغ! هذا مجرد حقد دفين على المرأة التي احبها ولدك ثم قتلته! لقد مات الملك فاروق في مطعم «دي فرانس» بروما، بعد أن التهم دستة من المحار وجراد البحر وشرائح من لحم الحمل وبطاطس محمرة وخضار فرنسية وفطائر وكميات من الكعك المحشو بالمربى والعسل... وليس لهذه المـرأة ولا لأحد غيرها أية علاقة بموته. لقد مات الملك فاروق بالتخمة. وهذه هي الحقيقة!

ولكن «صبحي الشوربجي» راح يضحك من سذاجتي وغبائي وقلة معلوماتي قائلا لي:

ـ إن التقارير التي ارسلها لي كبار المحامين في قضية ولدي، تثبت للدنيا كل كلمة قلتها لك! وكذلك ما سبق لي وسمعته من صديقي «فلان» سفير مصر السابق في روما! وكذلك ما رواه لي المحامي «شميت»، وزير الداخلية السابق في حكومة جنيف! وكذلك ما قيل لي على لسان كبار رجال البوليس الداخلي في العاصمة الايطالية..!!

ثم سألني صبحي الشوربجي بغضب:

ـ اين هي هذه المرأة «كلير» حالياً؟

قلت: في القاهرة.!

فسألني: وأين هو الملك فاروق؟!

قلت في قبره، داخل جامع «الرفاعي» بالقاهرة.. ايضا!

قال. ومن كان مع الملك فاروق ساعة موته؟

قلت: مجموعة من الغواني بينهن «أنا ماريا» ورفيقتها إيرما كابيتش مينوتولو.!

قال: ومن هي اقرب الصديقات الى كل واحدة من هاتين الغانيتين؟

قلت: لا ادري!

قال: انا وحدي أدري! انها المرأة اياها.. «كلير» التي قتلت ولدي فاروق.!

ثم عاد يسألني:

ـ ولماذا لم تحضر «كلير» الى روما، ولماذا لم تدخل السجن، ولماذا لم يُنفذ قرار القضاء ضدها، ولماذا اختفت مع زوجها؟

قلت: أنا لا أفهم في امور الجنايات..

قال: المسألة بسيطة! هناك اياد مسؤولة وعالية تبرعت بحماية «كلير» مقابل خدمات محددة قامت «هي» بتأديتها على الوجه المطلوب!

ـ مثلاً؟

وصرخ صبحي الشوربجي وهو ينهض من كرسيه لكي ينصرف دون ان يودعني:

ـ انا أشكوها لله! انا أرفع يدي وبصري وقلبي صوب السماء واسأل ربي ان ينتقم لي منها ومن زوجها! انا لست حزيناً من اجلِ نفسي وانما من أجله هو! لقد سقط هو في ريعان الشباب، اما انا فقد بلغتُ آخر العمر وسألتقي به قريباً.!

* * *

بعد مرور أقل من شهرين اثنين على هذا الحديث، مات صبحي الشوربجي، ولحق بابنه الشاب... فاروق!

السادسة

رفعة الباشا أم رفعة محمد؟

سيقول التاريخ أن أغنى سيدة دخلت فندق «الملك داود» بالقدس خلال سنوات الحرب العالمية الثانية، هي الملكة «نازلي»، حرم الملك فؤاد، ووالدة الملك فاروق، آخر ملوك مصر!

وسيقول التاريخ أن الفندق المذكور ـ فندق الملك داوود ـ لم يعرف من بين نزيلاته الشهيرات سيدة مثل «زينب الوكيل» حرم الزعيم المصري مصطفى النحاس باشا، في أناقة مظهرها، ووفرة حرّاسها، وكثرة مخابراتها التلفونية، وطلعاتها المستمرة الى خارج الفندق لزيارة الأسواق وشراء المجوهرات واقتناء الفرو وتفقد أحدث مجموعات الحلي المصنوعة من الذهب الخالص.

ومسكينة هي المطربة «اسمهان»، او «الأميرة» آمال الاطرش اذا قيست بالملكة نازلي او بالسيدة زينب الوكيل! فقد سكنت اسمهان في فندق الملك داود لفترات متكررة وطويلة كما فعلت صديقتها حرم النحاس باشا وملكتها السابقة «نازلي أحمد فؤاد» ولكنها لم تنفق كما انفقتا، ولم تعش كما عاشتا، ولم تترك بصماتها على حياة الفندق وعلى مستخدميه وعماله ونزلائه كما تركتا! كانت «نازلي» حريصة على ان تعقد جلسات لعب «البوكر» في كل مساء داخل جناحها الملكي في الفندق حيث كان يوافيها للاشتراك في اللعب كلٌ من المحامي اليهودي الشهير «كابلان» وزميله اليهودي المحامي «جرين» وزميلهما المحامي «ليفتسكي» وغيرهم! وعندما تنتهي جلسات «البوكر»، كانت «نازلي» ترفع سماعة التلفون وتطلب صديقتها حرم الدكتور «محمود فوزي» ـ قنصل مصر يومذاك في القدس، وتوقظها عند الفجر وتطلب منها ان ترافقها في رحلة الى البحر الميت لتناول طعام الافطار في فندق «كاليا» المطل على مياه البحر، لأن

الرحلة مع «عصفورة الصباح» ـ وهذا هو الاسم المختار للملكة «نازلي» ـ تبقى من اكثر الرحلات هناءً وسعادة ومرحاً!

أما زينب الوكيل فلها قصص أخرى، لأن لها مزاج آخر.!

لقد رأيتها، لأول مرة، في ربيع عام ١٩٤٢ عندما جاءت الى القدس وبرفقتها السيد «أجمد حمزة» وزير التجارة والصناعة المصري ومعها حاشية ضخمة يزيد عدد افرادها عن ثلاثين شخصاً، بينهم السيد «احمد الوكيل» ـ شقيق حرم الباشا ـ ونزل الجميع في فندق الملك داوود!

ولم يعرف احد لماذا اختارت السيدة «زينب» وزير التجارة والصناعة دون غيره من الوزراء كي يرافقها في رحلتها الى القدس. لماذا لم يرافقها وزير الخارجية، او وزير الداخلية، او وزير الشؤون الاجتماعية؟ بل لماذا اختارت السيدة «زينب» ان تترك زوجها ورئيس الوزراء ولم يمض على وصوله الى كرسي الحكم سوى فترة قصيرة ـ لوحده في مصر، وتسافر الى القدس وسط جوّ دولي متأزم، وأجواء عسكرية محمومة، وأخبار الحرب تقول بأن الجيش الالماني بقيادة المارشال «روميل» يزحف صوب الاسكندرية، وأن المظاهرات في مصر تملأ الشوارع، وان أزمة التموين والغذاء قد وصلت الى الحد الأقصى.!؟

لماذا الرحلة الى القدس؟! ولماذا هذه الاجتماعات المتكررة في فندق «الملك داوود» مع أكبر رجال التجارة من اليهود، وأشهر رجال تجارة الذهب والألماس، وأغنى رجال التصدير والاستيراد، وأقطاب دوائر التجارة في حكومة الانتداب البريطاني على فلسطين؟

لماذا.؟!

لم يكن لدى أحد من رجال الصحافة في مصر أو في فلسطين ـ يومذاك ـ أي جواب على الكثير من هذه الأسئلة المليئة بالشك والقلق حول أسفار السيدة «زينب الوكيل» ومهماتها السرية وصفقاتها التجارية والمالية المريبة، لولا أن مضت الأيام ووقع الخلاف بين مصطفى النحاس باشا من جهة، ووزيره الأول وسكرتير حزبه وصديق عمره مكرم عبيد باشا من جهة أخرى، مما أدى الى خروج ـ او طرد ـ مكرم عبيد من الوزارة وصدور «الكتاب الأسود» ومولد «الكتلة» الوفدية وانتشار القصص

والروايات عن عشرات من الصفقات المالية والتجارية التي أثبتت دون أدنى شك ان السيدة «زينب الوكيل»، حرم زعيم الوفد ورئيس وزراء مصر السيد مصطفى النحاس باشا، هي أقدر وأذكى وأجرأ سيدة مصرية وعربية في دنيا المال والأعمال، والزراعة والأطيان، والقطن والأسهم، والعملة والذهب، في نصف القرن الأخير ومنذ عام ١٩٤١ حتى كتابة هذه السطور.!

وعندما التقيت بالسيدة زينب الوكيل في ربيع عام ١٩٤٢ بالقدس لم أكن اعرف أنها قد جاءت الى فلسطين في مهمة تتعلق بتهريب.. الذهب!

وعندما عدت والتقيت بالسيدة زينب الوكيل في شتاء عام ١٩٥٥ في منزلها «بجاردن سيتي» بمصر، وجاء الحديث على ذكر زيارتها المذكورة لفلسطين في عام ١٩٤٢، سمعتها تقول لي وكأن الذكرى ما زالت تثير أشجانها:

- إن المجرم إبن «ال...» مكرم عبيد، بيقول في كتابه «الأسود» اني سافرت الى القدس لكي أهرّب سبائك الذهب.! شوف الناس بقت رخيصة أدّ إيه؟!

وهزّ رفعة الباشا، زوجها، وكان يحضر الجلسة ويشترك في الحديث، هزّ رأسه وهو يقول لها:

- يا «زينب» انت دي الوقت بتشتكي للصحافي اللي كان بيشترك مع أولاد «أمين» في أخبار اليوم، في الهجوم على «الوفد» والتهجم على مصطفى النحاس...!!

ثم اضاف:

- سيبك من الكلام ده وخلينا نحكي في حاجة ثانية. هه؟

وسألني مواجهة:

- إيه رأيكم في «الثورة» بتاعتنا هناك.. في الشام.. عندكم في لبنان؟!

وقبل ان أجيب على سؤال «رفعة» الباشا حول رأي أهل «الشام» في ثورة ٢٣ يوليو، انبرت السيدة زينب الوكيل لكي تقول لي وبالفم المليان انها لا تحب رجال الثورة، ولا تحترمهم، ولا تثق بهم، ولا تشعر بأن شعب مصر يؤيدهم، وان هذه الثورة لن تعيش طويلاً لأنها قامت على

«الأحقاد».. أحقاد الفقير ضد الغني.. واحقاد المحكوم ضد الحاكم.. واحقاد الصغير ضد الكبير.. واحقاد الفاشلين ضد الناجحين.!

وهزّ الباشا رأسه موافقاً! ولم يعد عندي اي شيء أضيفه على كلام «رفعة» الهانم، فالتزمت الصمت. وعادت الهانم تسألني بلهفة:

ـ لكن ليه «المنافقين» أصحاب جريدة «أخبار اليوم» يؤيدون الثورة بعدما كانوا يؤيدون فاروق.؟

ثم ألحت تقول لي وهي تسألني:

ـ انت مش معاهم في اخبار اليوم؟؟ أنا بقراك عندهم!! طيب قل لنا أنت شايف الأمور ماشيه إزاي! يا أخي تكلّم.. قل حاجه!

ولم أتكلم! ولم أقل حاجة.!

ولو كنت سأتكلم لقلت «لرفعة الهانم»، حرم زعيم مصر مصطفى النحاس باشا، كلاماً لا تشتهي ان تسمعه. ولو لم اكن مدعواً في جلسة عائلية وعلى مائدة الباشا وحرمه، لقلت للسيدة «زينب الوكيل» كيف ان تصرفاتها وجشعها وصفقاتها المالية والتجارية، وعبثها وتسلطها على زوجها، واستهتارها بالحكم والنزاهة والسمعة والقوانين، لم تؤثر على زوجها فحسب، ولم تضرب سمعة بلادها وحدها، ولم تُخرّب حزب الوفد المصري، وصلابته ووحدة صفوفه، ولم تنل من كرامة مصر وحكام مصر واحزاب مصر وحدها، وانما أصابت بالضرر قضية بلدي، وألحقت الأذى بحقوق شعبي، وأهانت كرامة الأمة العربية بأسرها، التي هي كرامة كلّ دولة عربية بمفردها، وبالأخص كرامة زعيمة الدول العربية، وأكبرها، وأعني مصر.!

اذ بينما كان العالم بأسره مشغولاً بالبحث في القضايا الدولية الخطيرة التي ستترتب على انتهاء الحرب العالمية الثانية.. وبينما «أنتوني إيدن» يلوّح للعرب عن طريق وزيره في مصر المستر «كيسي» بمشروع الجامعة العربية، او «الاتحاد العربي»، أو «التكامل العربي».. وبينما الكولونيل «نيوكومب» البريطاني يطير الى بغداد في مهمة سرية تهدف الى ايجاد حل لقضية فلسطين... وبينما اليهودية العالمية تواصل اجتماعاتها في زوريخ، وجنيف، ولندن، و «بلتيمور» في اميركا، للتخطيط الذكي في

كيفيــة جني ثمــار النصر بعــد انتهــاء الحرب لصالح اليهود في ارض فلسطين... اقول، بينما كانت كل دولة في العالم تفكر في الصورة التي ستنتج عن دحر النازية وانتصار الحلفاء، كانت مصر، بقيادة زعيم حزب «الوفــد» رفعة مصطفى النحاس باشا، مشغولة من خلال حرم الباشا السيدة «زينب الوكيل»، في عقد الصفقات وتهريب الأموال واللعب بالمواد الغــذائيــة وتــزويــر المستنــدات واستغلال النفوذ، وكانت «المعارضة» المصرية مشغولة في الكشف عن فضائح حرم رفعة الباشا واعداد الكتب «السوداء» والصفراء عن هذه الفضائح، وكان الملك يُفكّر كيف يمكن له ان يتخلص من حكومة «الوفد»، وكان الوفد يفكر في كيف له ان يتخلص من رئيس ديوان الملك السيد احمد حسنين باشا، وكان الشعب يفكر في كيف له ان يتخلص من هؤلاء جميعاً!

اجل! لكنني لم أتكلم ولم أقل حاجة! فقد كنت أعلم يومذاك انني في حضرة أبرع وأذكى «سيدة اعمال» في الشرق الاوسط بأسره! وكنت أعلم ان الشيء الذي قاله عنها «مكرم عبيد» في كتابه «الأسود» في شهر مارس عام ١٩٤٣، قد عادت وأكدته بحذافيره محكمة الثورة من خلال المحاكمة التي اجرتها لفؤاد سراج الدين باشا ولنجيب الهلالي باشا في يوم التاسع من شهر كانون الاول (ديسمبر) من عام ١٩٥٣ بالقاهرة.

وكما تسنى لي ان اقرأ «الكتاب الأسود» عندما تسلمته هدية ثمينة من زمــيــلي الصــديــق «احمــد قاسم جودة»، وزميله «جــلال الدين الحمامصي»، ـ وكان كل منهما اليد اليمنى لمكرم عبيد ـ كذلك فقد تسنى لي ان اشهد محاكمة فؤاد سراج الدين، وأن اشعر بالقرف والاشمئزاز من مدى تفشي الفساد والرشوة واستغلال النفوذ على يد «رفعة الهانم» حرم رئيس الوزراء، وعلى مدى السنوات التي عاشتها حكومة النحاس في الحكم من ٤ شباط (فبراير) عام ١٩٤٢ حتى اول تشرين أول (اكتوبر) من عام ١٩٤٤!

ويبقى السؤال الكبير الواحد الذي اختلف في الاجابة عليه ملايين الناس داخل مصر، وخارجها. وهذا السؤال يقول: ترى هل كانت «زينب الوكيل»، حقاً سيدة بريئة من جميع التهم الموجهة اليها، وان خصمها

اللدود، مكرم عبيد باشا، كان متجنياً عليها وكاذباً على زوجها ومفترياً على حزب الوفد المصري الذي نشأ وترعرع وعاش في ظله.؟

في ذلك اليـوم الذي خرج فيـه مكرم عبيد باشا من السجن، وكان معتقـلاً بمـوجب أمـر عسكـري أصدره النحاس باشا بحقه، كنت في القاهرة، وصحبني زميلي وصديقي الشاعر الراحل «كامل الشناوي» الى الساحة المقابلة لمبنى وزارة المالية حيث استمعنا مع عشرات الآلاف الى خطاب لمكرم عبيد باشا، وكان قد وصل الى الوزارة لتوّه قادماً من السجن لكي يتولى وزارة المالية، قال فيه: «اللهم لا استغلالاً للحكم ولا محسوبية ولا فوضى، بل نزاهة في الحكم وحكمة وتدبيراً. اللهم غنىً عن الغنى. اللهم لا ميلاً مع الهوى بل ميلاً عن الهوى. اللهم سبحانك فيما ارتضيت وفيما أرضيت فقد هيأت لي من يذكرني عند ربي فجعلني على خزائن الأرض أميناً بعد ان كنت في زاوية من زوايا الأرض سجيناً!»

وسألني كامل الشناوي يومذاك وكلمات خطاب مكرم ما زالت ترن في آذاننا:

ـ هل استطعت ان تفهم الغمزات واللمزات في كلام الباشا؟

وأجبته: لعله كان يعني زينب الوكيل!؟

وأجابني كامل ضاحكاً في مثل هذه الحالات:

ـ أمّال بيعنيني انا.!؟

وكـان «مكرم عبيد»، ومنذ اللحظة الاولى التي بدأ فيها هجومه على النحاس باشا وعلى حكومة الوفد يدق على نغمة «النزاهة» ويردد كلمة «الرشوة» ويعيد كلمة «استغلال النفوذ» ويقف قليلاً عند كلمات: «المال الحرام.. والمحسوبية.. والمطامع.. والتلاعب بأرزاق الناس!»

وكان يكتب في جريدة «الكتلة» ـ لسان حال حزب «الكتلة الوفدية» الذي يتـرأسه ـ «حكمة» يومية تتناول شؤون الساعة، ولكن اكثر ما عالجته «حكمة» مكرم من مواضيـع، كان موضوع: «النزاهة»!

كان يقول مثلاً: «النزيه من نزّه نفسه حتى عن النزاهة، وكان عفيفاً حتى عن الإحساس بالعفة فكانت العفة في نفسه دون حسّه! انني أعرف انساناً كان نزيهاً ـ ويعني النحاس باشا ـ وكان يعتقد في نفسه النزاهة

الى حد المفاخرة بها والاعلان عنها، وكان أخطر ما في فقره انه كان يفاخر بالفقر مما دلّ على أنه كان فقيراً حقاً ولكن الى.. الفخر! والفخر والفقر لا يجتمعان الا الى فرقة، فما الفخر إلا مادة من مواد الثراء والترف، ولذلك كان الفقر مع الفخر انما هو فقر مع الترف لا فقر مع الشرف.!»

وعندما أصدر «كتابه الأسود»، قال مكرم عبيد في مقدمة الكتاب المذكور عن حرم الباشا، وعن زوجها:

«... لقد كنت بحكم مركزي في المالية وفي التموين الهدف المباشر لعدد من التصرفات التعسة التي أريد بها ان تفتح خزائن المال والتموين للأهل والأنسباء، حتى لا تفلت الفرصة السانحة فتفلت الصفقات الرابحة من أيدي طلّاب الربح والثراء ولو على حساب الفقراء والمساكين..»

ثم يقول:

«... اننا لم نكد نستهل عهدنا متصافين متضامنين حتى بدا لأهل النحاس باشا وانسبائه ان يغتنموها فرصة لطلب الثراء على يد صديق النحاس في الضراء، فكيف في السراء.»؟!

وفي الباب الأول من كتابه الأسود يقول «مكرم» ان زينب الوكيل اشترت «١٥٥» فداناً من أخصب أراضي الدلتا في الفترة المباشرة التي اعقبت مجيء زوجها الى الوزارة، وانها خلال ستة شهور فقط اشترت سيارة «باكار» يزيد ثمنها ـ في عام ١٩٤٢ ـ عن ثلاثة آلاف جنيه، ومجهزة بتكييف الهواء، وان حرم الباشا قد اشترت من مخازن لندن بالطو ـ معطف ـ من الفراء الأبيض يزيد ثمنه عن ثلاثة آلاف جنيه.. اخرى.

وقد سمعت من المقربين من مكرم عبيد ـ من امثال قاسم جودة، وجلال الحمامصي، وغيرهما من الزملاء الصحافيين في مصر ان زينب الوكيل كانت تتقدم من مكرم عبيد ـ بوصفه وزيراً للمالية والتموين، وفي الأيام الأولى للوزارة الوفدية في شباط (فبراير) عام ١٩٤٢، بعدة مطالب ـ غير قانونية ـ كتقديم التسهيلات المالية وتقرير المشاريع التجارية لعدد من اقاربها وعلى رأسهم شقيقها احمد الوكيل! وان زينب هانم كانت مصممة على استغلال منصب النحاس باشا كرئيس للوزراء لكي

«تُحسّن» اوضـاع عائلتها المالية، وكان شقيقاها ـ وخاصة «احمد» ـ يعملان في مجال التصدير والاستيراد ويتصديان للمشروعات المختلفة في التجارة، وكانت جرأة «زينب هانم» والحاحها في هذا المجال يدعوان الى الدهشة لما ينطويان عليه من مخالفة واضحة للقوانين العادية واستغلال فاضح للنفوذ!

وعندما رفض «مكرم عبيد»، الاستجابة لرغبات زينب هانم، أُخذتْ منه وزارة التموين، وأُسندت الى الوزير «احمد حمزة» الذي رافق الهانم فيما بعد في زيارتها المشهورة الى.. القدس!

وعندما بلغ السيل الربى ـ كما يقولون ـ وأصر «مكرم عبيد» على ان يتحـدى رغبـات حرم الباشا، ويرفض توصياتها بوجوب السكوت على عمليات الرشوة واستغلال النفوذ لحساب افراد اسرتها واقاربها، قررت زينب هانم ان تطرد «مكرم» من الوزارة وان تأتي بوزير قبطي، هو كامل صدقي باشا مكانه!

وهكـذا أقيل مكرم عبيد باشا، ابن «سعد»، وخطيب مصر، وخريج اوكسفورد، وصاحب لقب المجاهد الكبير، ورجل الوفد المصري وألمع وجه قبطي في وادي النيل، من الوزارة بإرادة سيدة مسلمة مصرية نصف اميّة ونصف مثقفة اسمها: زينب الوكيل!

وفي ٢٩ حزيران (يونيو) عام ١٩٤٢، سمعت في داخل برلمان مصر، صوت مصـطفى النحاس وهو يعلن «للنواب المحترمين» ان مكرم عبيد باشا لم يعد سكرتيراً للوفد المصري! ثم عاد وأعلن بعد ذلك بأسبوع واحد فقط ان حزب «الوفد» قرر طرد «مكرم» عبيد من عضويته!

وخرج مكرم عبيد من الحزب الذي بناه وعاش له، وبه، ومعه، لكي يحمل المعول ويهدم الحزب الذي بناه وعاش له وبه ومعه!!

وكـل ذلك نكـايـة وانتقاماً من المرأة التي ارادت لأهلها الثراء غير المشروع، وتحكّمت بزوجهـا، وبحكـومة زوجها، وبالحزب الذي يرأسه زوجها، ونجحت في ان تُفتّت اكبر احزاب مصر، وان توقع بين «الرئيس الجليل» و «المجاهد الكبير» ـ كما كانوا يصفون كلا منهما في جرائد الوفد المصري ـ وان تطعن سمعة زوجها وتشوه سمعة الحزب الذي يرأسه هذا

الزوج، وان تُلحق بأكبر احزاب مصر الضرر الذي عجزت عنه بريطانيا العظمى!

وراح مكرم عبيد يكتب ما اراد ان يجعل منه شهادته للتاريخ وكلمته للسماء ووصيته للشعب!

وصدر «الكتاب الأسود» في ٢٩ آذار (مارس) ١٩٤٣ وقد وجهه الى الملك فاروق وقال له في صفحته الأولى:

«... وما كنا علم الله لنجد من أنفسنا دافعاً ضد قوم كانوا منا وكنا منهم لولا ان أداة الحكم في البلاد قد فسدت على أيديهم الى مدى بعيد يكاد يبعث على اليأس من انتاجها، ومن علاجها..»!

ثم يقول للملك في مكان آخر من الكتاب:

«.. إن برقية بالشفرة قد أرسلت الى سفير مصر في لندن لكي يشتري «فراء» بثلاثة آلاف جنيه لحرم النحاس باشا، وان الباشا قد اشترى السيارة «الباكار» وانتقل للسكن في فندق «مينا هاوس» حيث ينفق فيه شهرياً ما لا يقل عن «الف جنيه» مع استئجاره لسكن آخر غير سكنه في مصر الجديدة وعن اقامته في الباخرة «محاسن» مع اصهاره وأقاربه... وان الباشا قد باع منزله «بسمنّود» الى وقف «السيد بدر عبد العال» بثمن باهظ جداً مستغلاً بذلك نفوذه الحكومي، وان رئيس الوزراء قد أعطى مشروع إنشاء قرية المهاجرين «بالمحلة الكبرى» الى نفس المقاول المعماري الذي سبق له وبنى منزل رئيس الوزراء.!»

الى آخره.! الى آخره!

ومرة اخرى، هل كان مكرم عبيد كاذباً ومفترياً في سائر هذه التهم التي أوردها ضد زعيمه السابق، وصديقه، ورئيس وزرائه صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا، والسيدة حرمه؟

ومرة اخرى، اجيب، بأنه قد تسنى لي، كصحافي، ان أشهد جانباً من المحاكمات التي اجرتها ثورة ٢٣ يوليو لعددٍ من رجالات العهد الملكي ومن بينهم، أقرب الأصدقاء الى قلب النحاس والى قلب السيدة حرمه، وأعني به: فؤاد سراج الدين!

وما يهمني من تلك المحاكمات، هي الأقوال التي وردت على لسان فؤاد

سراج الدين في الحديث عن مصطفى النحاس، وعن السيدة حرمه!

وفي المحكمة التي كان يرأسها عبد اللطيف البغدادي ويمثل عضو اليمين فيها أنور السادات، وعضو اليسار قائد الاسراب حسن ابراهيم، وجه ممثل الادعاء البكباشي ابراهيم سامي جاد الله، لفؤاد سراج الدين عدة تهم من بينها اشتراكه مع زينب الوكيل، وشقيقتها «عزيزة الوكيل»، في استغلال النفوذ والإقدام على اعمال من شأنها التأثير في اسعار القطن «الأشموني» بقصد الحصول على فائدة السعر ومساندة تجار معينين من امثال «فرغلي» باشا، وعلي امين يحيى باشا، «وفرنسوا تاجر».. وغيره!

وعندما بدأت محاكمة نجيب الهلالي باشا، حرص هذا السياسي الكبير ـ وهو من اقطاب حزب الوفد ـ على ان يتحدث لمدة خمس ساعات كاملة عن مظاهر الفساد والرشوة واستغلال النفوذ في عهد اكبر وأعرق أحزاب مصر! وعندما سأله رئيس المحكمة ـ البغدادي ـ عن سبب عزمه الخروج من حزب الوفد في عام ١٩٤٤، أجاب الهلالي باشا بأن «الست» ـ ويعني زينب الوكيل ـ هي السبب! فسأله رئيس المحكمة: «ست مين؟» وقال الهلالي: انها حرم النحاس باشا التي تضارب بالبورصة وتخسر الآلاف التي تقوم الحكومة بتسديدها من باب النفقات السرية!!

وعاد الهلالي باشا يسرد أمام المحكمة مظاهر الفساد التي تفشت أيام وزارة النحاس عام ١٩٤٢ فقال:

ـ مكرم باشا جاء لزيارتي في «رأس البر» وأخبرني أن «الست» بتاعة النحاس باشا بتضغط على عبد العزيز البدراوي لكي يبيع لها أطيان من أراضيه! وانا قلت ده لا يجوز، خصوصاً وانها راح تشتريها بثمن بخس.. وان «البدراوي» شكى له، وترك الأمر بين يدي زوجها النحاس باشا.!

وسأله رئيس المحكمة: «هل لمست أنت شخصياً اي نفوذ لحرم النحاس؟»

وأجاب الهلالي باشا:

ـ بتسألني عن حرم النحاس؟! عندنا في مصر سيدات ما يقابلوش الرجّالة زي الصعايدة. وسيدات بيقابلوهم. ومؤكد ان السيدات اللي ما

بتقابلش الرجالة مالهاش أي نفوذ. أما اللي بتقابل فهي ما يخلاش ان يكون لها نفوذ! وفي ذات مصر حصل إنه النحاس كان بيكلمني على ترقية احدى السيدات المعلمات وأنا وزير معارف. قلت لـ «النحاس» انني لا اقدر على ذلك لأسباب كثيرة! ويظهر انه «الست» هي اللي كانت عايزة ذلك فقال لي «النحاس» طيّب خذ يا باشا كلّم «الست»! وأداها التلفون. وكلمتني وقلتُ لها ما اقدرش... برضه ما أقدرش، فأقفلت هي السكة في وجهي وهي تلاحقني بالشتائم.!

وكل هذا يثبت بالدليل القاطع ان «رفعة الهانم»، او زينب الوكيل، أو حرم رفعة النحاس باشا، لم تكن كامرأة القيصر فوق مستوى الشبهات، وانها كانت فعلاً امرأة خطرة وذكية ومتسلطة وطموحة وضعيفة أمام المال والنفوذ.!

ترى ما هو التحليل المنطقي المعقول لمثل هذا التصرف غير الاخلاقي من جانب زوجة شرقية تجاه زوجها المسلم الشرقي؟!

يروي جلال الحمامصي ـ زميلنا القديم في دار «أخبار اليوم» بالقاهرة ـ في كتابه «معركة نزاهة الحكم» انه عندما أقيلت الوزارة الوفدية في اواخر عام ١٩٣٧ وذهب «الوفد» الى منزل مصطفى النحاس للتداول في أمر خطواتهم القادمة وكفاحهم السياسي في المستقبل، وجدوا السيدة «زينب الوكيل» وقد تصدّرت الجلسة وراحت تستمع الى اقوال كل واحد منهم الى ان انتهى الأعضاء من إلقاء كلماتهم فوقفت زينب هانم، وقالت وهي تكاد تنفجر من الغيظ.

ـ انا سمعتكم تتحدثون عن الكفاح؟ كفاح إيه وجهاد إيه؟! هل الكفاح يُشرب ويؤكل؟! وماذا يساوي الكفاح بالجنيهات؟ بس بلاش كلام فارغ! سيبوا الكفاح لغيركم وفتشوا عن حاجات تانية!!

يقول «الحمامصي» في تتمة الخبر أن مصطفى النحاس باشا بقي يستمع الى كلام السيدة زوجته ويبتسم ولم ينبس ببنت شفة!.

ترى، ما سرّ كل هذا الخنوع والاستسلام من جانب الرجل، مقابل السيطرة والتحكم من جانب الزوجة.؟!

قد يكون صحيحاً ان السيدة «زينب الوكيل» بجمالها وصغر سنّها

وضحكتهـا الجـذابة وإناقتها الخارقة وذكائها الحاد قد استطاعت ان تسيطر على زوج تقدمت به السن ولم يعد قادراً على اشباع رغباتها في الداخل او في الخارج.!

وقـد يكون صحيحاً ان الزوج بقي وهو يشعر في قرارة نفسه بحق زوجته الشابة في ان تعيش كما تريد، وأن تتمتع كما تشاء حتى ولو كان ذلك على حساب النزاهة والاستقامة!

يجوز؟ من يدري!

خاصــة وان التقارير السرية للسفارة البريطانية في القاهرة، والتي تطرقت الى هذا الموضوع، قد قالت في تقريرها السري رقم ٨٥ والارقام السريــة: FO 407-225 بتــاريــخ ٢٢/٧/٤١، وتحت عنـوان مصطفى النحاس باشا، ان «الزعيم المذكور قد تزوج في ١٢ حزيران (يونيو) عام ١٩٣٤ وقبل يومين فقط من بلوغه سن الخمسين، وكان عمْر زوجته زينب الوكيل يومذاك لا يزيد عن ٢٥ سنة.. وانها إبنة أحد كبار رجال حزب الوفد في مديرية البحرية....»

ترى، هل فارق السن هو المسؤول عن هذه الحالة الفريدة؟

يجوز..

ولكن هناك من يقول بأن «زينب هانم» لم تفكر في جَنْي المال الا بعد ان شعـرت بالغـيرة من مكـرم عبيد الذي يكسب الآلاف من عمله في المحـاماة، فحاولت ان تصبح مثله، وان تجمع المال لنفسها ولعائلتها وبأي ثمن ومن خلال الرجل نفسه الذي شعرت بالغيرة منه.. أي مكرم عبيد! هكذا يلمّح الزعيم المصري الأديب الدكتور «محمد حسين هيكل» باشا في كتاب مذكراته عن «السياسة المصرية»!

وهناك ـ ايضاً ـ من يُضيف الى هذا المعنى شيئا آخر ويقول أن سر سيطرة زينب هانم على زوجها انما يعود الى اعتقادها بأن مكرم عبيد هو الرجل الذي يسيطر على زوجها الباشا، وان من حقها الطبيعي ان تحرر زوجهـا من سيـطرة مكرم لكي تسيطر عليه بنفسها. اي ان الأقربون اولى.. بالسيطرة!

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل باشا في كتابه المذكور ان زينب

الوكيل كانت «تعيب على زوجها النحاس باشا تساهله وايثاره لمكرم عبيد حتى أصبح الناس يعتقدون ان «مكرم» هو كل شيء في الحزب وفي الحكومة وان زوجها ـ أي النحاس ـ مجرد واجهة..»

وعندما أرادت سفارة الانجليز في مصر، ان تنقل الى المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية اسباب الخلاف المدوّي بين النحاس باشا ومكرم عبيد في صيف ١٩٤٢، قال السفير البريطاني في رسالته السرية الموجودة ضمن الوثائق السرية البريطانية تحت رقم F.O.371 رقم 31572 تاريخ ٢٣ ايار (مايو) عام ١٩٤٢.. قال: «..وترجع جذور الخلاف الى زواج النحاس منذ عدة سنوات، اذ كان مكرم عبيد يستحوذ على النحاس باشا تماماً قبل ذلك، ولم تكن حرم النحاس وهي السيدة المستبدة والتي تميل الى السيطرة والتحكم بزوجها لترضى بأن تلعب دوراً من الدرجة الثانية! فازداد التنافر بين الرجلين منذ ذلك الوقت..»..

ثم تضيف برقية السفارة قولها:

«.. تتحكم في رئيس الوزراء ـ النحاس ـ سيدة عنيدة وغير مسؤولة. اما زوجها فتعوزه القدرة على الادارة وعلى التوجيه وعلى التنظيم الحزبي....»!

وهكذا نجحت زينب الوكيل في كل ما سعت اليه وما عملت من أجله:

لقد جمعت الثراء لنفسها ولأهلها ولشركائها ولأصدقائها!

وحرّرت زوجها من سيطرة مكرم عبيد..

وانفردت وحدها بالسيطرة على هذا الزوج..

واخرجت مكرم عبيد من حزب الوفد..

وخلقت مجموعة من الوزراء الشبان الجدد وعلى رأسهم «فؤاد سراج الدين» مع كل ما اقترفه هؤلاء الشبان من فساد وخروج على القانون!

ثم تولت بنفسها زمام السلطة السرية طيلة سنوات حكم الوزارة الوفدية من شباط (فبراير) ١٩٤٢ الى ايار (مايو) ١٩٤٥ ومن كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٠ الى كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٢!

وكانت السبب الأول في زعزعة الثقة الشعبية تجاه اكبر احزاب مصر، وملء الاندية والمحافل المصرية بقصص الفساد والرشوة والتمهيد

الطبيعي للبركان الآتي في صورة ثورة عسكرية مسلحة!

لقد قامت ثورة ٢٣ تموز (يوليو)، بينما كان مصطفى النحاس، وصديقه فؤاد سراج الدين يقضيان الصيف في المدن السويسرية ولم يقبلا العودة الى مصر الا تحت الحاح رجال تلك الثورة! وهكذا تكون نهاية الترف والثراء وحكم النساء! وعندما التقى «النحاس» برجال الثورة لأول مرة، تحول أمامهم الى مجرد نكتة، ثم تحوّلت النكتة الى دهشة ثم تحولت الدهشة الى استخفاف، ثم تحول الاستخفاف الى عزلٍ وتجريح!

* * *

من تلك الجلسة العائلية التي عشتها داخل صالون منزل «رفعة» مصطفى النحاس باشا بحي جاردن سيتي بالقاهرة، مع السيدة حرمه، تلقيت اكثر من درس واحد: لقد رأيتهما معاً، هي في كامل اناقتها وعظيم هندامها وروعة حديثها ونضارة صحتها، و «الباشا» يرتدي البيجاما وفوقها الروب دي شامبر ووجهه أصفر، وشعره غائب، وظهره محدودب، والعروق الزرق تبدو نافرة فوق يديه وفي اسفل رقبته!

رأيتها في تلك الجلسة، وكأنها مقبلة على الحياة، بينما رأيت زوجها، وكأنه يودعها.

رأيتها بعيدة عنه، معزولة عن دنياه، تفكر بنفسها وبغدها، وبحياتها، وكأنها أدركت ان «شمسه» قد أذنت بالغروب، وان عليها ان تبدأ فوراً في ترويض نفسها على العيش.. وحيدة بلا زوج!

رأيتها تحنو عليه ولا تحبه، وتشفق على حاله ولا تكترث لها، وتسايره عن تأدب لا عن محبة، وتود لو انه لم يترك فراشه ولم يحضر الى الصالون ولم يشترك في الجلسة ولم يفتح فمه بكلمة واحدة.!

وسألت نفسي وأنا أودع رفعة الهانم وأودع رفعة الباشا:

ـ هل هذه هي حال الزعماء الكبار الذين يتزوجون من فتيات في عمر بناتهم؟ وهل هكذا كان حال «انتوني ايدن» في زواجه الثاني من قريبة تشرشل، وهل هكذا كان حال اللورد «كلين» سفير بريطانيا في مصر وزواجه مع تلك الفتاة الصغيرة اللعوب، و «حسن نشأت باشا» سفير مصر السابق في لندن، واسماعيل صدقي باشا، والديكتاتور «بيرون»

الأرجنتيني، والمليونير اليوناني ارسطو اوناسيس وقصته مع جاكلين كنيدي، وأمراء المماليك في الزمن الغابر وبعض امراء العرب في الزمن الأخير.؟

قلت لنفسي وأنا اخرج من بيت رفعة الباشا ورفعة حرمه المصون:

ـ ان السياسة، كالصحافة لا تقبل لها ضرّة! فاذا تزوج رجل السياسة من فتاة عمرها اقل من عمره بقليل، فان الزوجة ستعيش بقية عمرها في عزلة او وحشة او أزمات نفسية! اما اذا تزوج السياسي من فتاة في عمر ابنته فإنه، هو الذي سيعيش في حالة من الذل والعبودية، وقد يقوم بدور الزوجة عندما تصر الزوجة على ان تقوم هي بدور الزوج..!

إلا اذا كانت هذه الزوجة مثل كاترين الروسية!

تلك الفتاة الألمانية الشابة التي زوجوها الى قيصر روسيا، فلم تحبه، وأثبتت عليه مرض الجنون، وأدخلته المستشفى وعزلته من منصبه وجلست في مكانه تحكم روسيا بملايينها، وتختار من العشاق ما يحلو لها..

إن في شخصية زينب الوكيل بعض صفات.. كاترين!

السابعة

حفيدة الشاعر وعشيقة الجنرال..!

Message Desk

S.A

FOR Amal - 229/39

FROM

ADDRESS TEL NO

Appt. 21/30

10

Chère Amal

Bonjour !

Je suis [illegible] que Neil vien d'arrive, et nous y irons à Haifa Nous [illegible] avant minuit

Il est un vrai homme et il merit beaucoup d'affection

Dit rien à Mohamed qu'il est arrivé

Je vous [illegible] à mon retour et j'espère que je parlerais mieux l'anglais, que je trouve très difficile a ce moment

Je vous téléphonerai quand j'arrive à Haifa

Je vous embrasse très fort

Grosses bises

Amina

اميئة البارودي تكتب الى اسمهان (آمال الأطرش) تخبرها عن وصول الجنرال (نيل ريتشي) قائد الجيش الثامن البريطاني إلى فندق الملك داود في القدس

عملية المكياج العادية التي تستغرق من وقت المرأة نصف ساعة فقط، كانت تأخذ من وقت هذه السيدة أربع ساعات كاملة! كانت تحرص على ان تستيقظ من نومها في الساعة السادسة من صباح كل يوم لكي تنتهي من عملية تزينها في العاشرة تماماً، وتخرج الى اعمالها في الحادية عشرة! كان المكياج هو كل شيء في حياتها! كانت تسريحة شعرها تسبق في الأهمية طعامها او شرابها! وعملية اختيار نوع البودرة وحمرة الشفاه وكحلة العينين ودهون الرقبة وظلال الرموش تشغل وقتها وتسرق منها جهدها وتستنزف أعصابها! فقد كانت حريصة على ان تبدو ساحرة أكثر من كل نساء البشر. كانت تعلم انها جميلة ولكنها لم تكن من نوع النساء الذي يرضى بالمساواة مع غيره. كانت تقول لي ان الله - او القدر - قد أعطاها رفعة في أصولها العائلية مع الثقافة كلها، والثروة كلها، والشهرة كلها، والجمال كله، وبقي عليها ان تحافظ على هذه «النعم» بأن ترعاها وتخدمها وتسهر عليها وتعتني بها ولا تفرط فيها كي لا تفقدها!

ولكن هذه السيدة - أمينة البارودي - تعمدت ان تعيش كي تبدد كل شيء، وتفرّط بكل شيء، وتفقد في النهاية كل شيء. مالها وجمالها وسمعتها.. وصحتها، ثم حياتها!

وكان لها ألف قلب ولم يكن لها أي قلب. لقد قال لي صديقي الراحل محمد التابعي انه سمعها ذات يوم تقول لزوجها الثالث «احمد سالم» عندما راح يعاتبها ويخاطب قلبها: «لو كان لي قلب لما عرفتك!»

وكانت تملك نبض الفنان وروحه! كما كانت رغم ارستقراطيتها تحب ان «تردح» بالعامية وتمارس السباب والتشليق وتلبس العباية اللف، وتأكل البصل والثوم، وترقص البلدي على واحدة ونص!

وقد يكون مهماً ـ بالنسبة لها على الأقل ـ ان يقال بأن امينة البارودي هي حفيدة «محمود سامي البارودي» باشا رئيس وزراء مصر أبان الثورة العرابية، فأمها ـ زينب ـ هي احدى بنات محمود سامي البارودي! اما والدها فقد كان ذات يوم مستشاراً في مفوضية مصر بواشنطن، واسمه «علي فؤاد طلبة». ولكن «أمينة» اختارت أن تتنازل عن اسم عائلة والدها لكي تحمل اسم عائلة والدتها. ذلك ان «أمينة» ولدت وأبصرت النور عندما كانت أمها منفصلة عن الأب وبحكم المطلقة منه، كما أنها نشأت وربيت في بيت جدها الباشا بعيداً عن عناية الوالد أو حبه أو رعايته، كما ان ثراء الجد ورفاهية الحياة في كنفه جعلا «أمينة» تتناسى إسم ابيها وتتجاهل إسم عائلته، ولا تتذكر سوى اسم والدتها، وجدها لوالدتها، وعائلة جدها لوالدتها، المرحوم محمود سامي البارودي!

ولولا صديقي وزميلي الراحل الاستاذ «محمد التابعي» لما عرفت ولما التقيت بأمينة البارودي! فقد جاء الاستاذ «التابعي» في عام ١٩٤١ الى القدس لكي يقابل صديقته الراحلة المطربة أسمهان، او آمال الأطرش، ويطلب مساعدتها في ايجاد حل سريع لأزمته المالية التي كانت تعصف بمجلة «آخر ساعة» المصرية! وكانت «أمينة» قد وصلت الى القدس لكي تزور ـ ايضاً ـ صديقتها اسمهان، وتقدمها الى الصديق الجديد الذي وقعت «أمينة» في حبه وجعلته يترك جبهة القتال في الصحراء الغربية اكراماً لعينيها الكحيلتين وجمالها الأخّاذ، وكان اسمه بالضبط الجنرال «نيل ريتشي»، وصنعته بالضبط مساعد القائد العام لقوات الجيش البريطاني في الشرق الأوسط!

وقد رأيت أمامي في ذلك اليوم، بينما صديقي «التابعي» يقدمني اليها، سيدة ساحرة الجمال، بوجه كلون الخمرة، وشعر كلون الليل، ورقّة كالنغم، وصوت كالغناء، وصدر كموج نيل مصر تحت ضوء القمر، وعذوبة مسروقة من حنين بلادنا وسحرها وأساطيرها... فلم أملك إلا ان الثم يدها، وان أقف مشدوهاً أمامها، وان أنسى الرجل الانجليزي الذي كان يقف معنا لولا ان بادرت «أمينة» الى تقديمه الينا بقولها «هذا صديقي «فلان» الذي سينتصر على الجنرال «روميل» ويقذف بالألمان الى البحر

الأبيض المتوسط!»

ولم أصدق في تلك الساعة أنني اقف امام الجنرال «ريتشي» بالذات، وأن هذا الجنرال قد سمح لنفسه أن يترك جبهة القتال ويرافق أمينة البارودي في زيارتها الى القدس! لقد نسيت كلّ شيء، ولم أعد أرى أمامي إلّا «الجنرال» ونجومه التي تلمع وسيوفه المتقاطعة فوق كتفيه، والربطة الحمراء التي تتدلى من فوق قبعته العسكرية، مع غليونه المتراقص بين شفتيه ونظارات الشمس التي كانت تحجب عنا نظراته الحائرة!

ورأيت «أمينة البارودي» في تلك الساعة، تشير الى زاوية مجاورة من زوايا الصالون الرئيسي في ذلك الفندق الكبير وهي تقول لصديقي محمد التابعي وتقوده معها:

ـ تعال نقعد هنا يا محمد.!

وجلس التابعي وجلسنا معه! ثم راح التابعي يسألها عن أخبار زوجها «احمد سالم» الذي دخل السجن بتهمة التلاعب والغش في قضية الخوذ الفـولاذية ـ ولهذه القضية قصة أخرى طويلة ومثيرة ـ واذا «بأمينة» تنطلق بقوة الشلّال والبركان لكي تقول له:

ـ الحمد لله اللي جت على كده! كانوا ناويين يحكموا عليه بالاعدام لولا اني ذهبت شخصياً الى «علي ماهر» ـ رئيس الوزراء ـ ورجوته ان يعطي «احمد» بعض الرأفة وأسباب «التخفيف»، وكان احمد نفسه قد طلب مني أن أفعل ذلك، وهو يعلم جيدا ان «علي ماهر» لا يخدم أحداً بالمجان، وأنه «زير نساء»، وانه قد يطلب مني أن «أقدم» له نفسي وان ألبي رغباته الجنسية مقابل تخفيف الحكم عن زوجي..!

ثم صمتت أمينة..

ولكن جرأة صديقي «التابعي» دفعته لكي يسألها بلهفة:

ـ وبعدين؟ حصل إيه.؟

وبالهدوء الذي كانت تحسد عليه، اجابته أمينة:

ـ حصل اللي كنا خايفين منّه! «على ماهر» أخذ اللي نفسه فيه، وزوجي نال التخفيف ونجا من حبل المشنقة، وأنا وحدي دفعت الثمن!

وعندما سألها التابعي إن كانت تتردد على «سجن مصر» لكي تزور

زوجها «احمد سالم» الذي يقيم هناك، أجابته أمينة:

ـ الزنزانة اللي هوّه فيها تطل نافذتها على الشارع العام. وعلى ناصية الشارع توجد دكان حلاقة للرجال وفيها جهاز راديو. وقد أتفقت مع صاحب دكان الحلاقة على أن يُبقي جهاز الراديو مفتوحاً على مدى الأربع والعشرين ساعة في اليوم مقابل ان أدفع له خمسة جنيهات كاملة عند غروب شمس كل يوم! وهكذا ضمنت أن يبقى صوت الراديو مفتوحاً بأعلى درجة كي يسمعه «أحمد» فلا يشعر بالوحشة ويبقي قادراً على أن يسمع الأغاني التي يحبها مع نشرات الاخبار من مطلع الفجر الى مطلع الفجر.!

وضحك التابعي وهو يسمع قصص أمينة عن زوجها أحمد سالم، وقال لها وكأنه يهنئها على اخلاصها لزوجها السجين:

ـ والله دي فكرة! بس يا ترى إنت عرفتي إزاي ان زنزانة «أحمد» بتطلّ على دكان الحلاق.؟

وصرخت «أمينة» على طريقتها البلدي وقالت:

ـ هوّه اللي نصحني بذلك.. ودلني على دكان الحلاق.. وطلب مني ان أزور الحلاق وأتفق معه على موضوع الراديو!

وعاد «التابعي» يقهقه وهو يوجه كلامه الى الجنرال «ريتشي» لكي يعتذر له عن عدم التحدث باللغة الانجليزية في الدقائق الأخيرة قائلاً له:

ـ ان قصص «أمينة» لا يمكن روايتها إلا باللغة العربية.. وباللهجة المصرية.. وبلسان أمينة البارودي بالذات.. فأرجو ان تعذرنا.!

وابتسم الجنرال «ريتشي» قائلاً، للتابعي:

ـ انا تعلمت من «أمينة» ثلاث كلمات باللغة العربية وهي: «أنا أحبك قوي!»

وعاد التابعي يقهقه وهو يقول لأمينة:

كان أحسن لك لو هوّه اللي يقول «أنا بحبّك»، بالإنجليزية!

وأجابت أمينة على الفور:

ـ لكن أنا كمان بحبه يا محمد! انا بحبه اكثر مما هو يحبني!

وسألها التابعي متهكما:

- يعني أقدر أفهم إنه حضرة «الجنرال» هو حُبك الجديد!؟
وهزت «أمينة» رأسها وقالت في تهكم مماثل:
- تمام يا افندم!!
وسألها التابعي وكأنه يثيرها ويخدش كبرياءها:
- أمال «أحمد» راح فين.؟
وأجابت تتحداه:
- أحمد ما زال زوجي. انما «نيلو» - وهذا هو اسم الدلع الذي اختارته للجنرال «ريتشي» - يبقى حبيبي.!
ثم أضافت:
- ومين عارف.؟ يمكن أتجوزه لو كان «أحمد» حيقضي طول مدة الحكم مع العشر سنوات المقبلة في السجن!
ثم دار بين التابعي وأمينة البارودي حوار لم يخرج في مضمونه النهائي عما يلي:
قال لها التابعي:
- واين التقيتما معا.. اعني مع الجنرال؟
قالت. في احدى سهرات نادي محمد علي، بالقاهرة.
قال. يبدو انه في عمر والدك!.. كم عمره يا ترى؟
قالت: عمره لا يزيد عن ثلاثة واربعين سنة يا محمد!
قال: ولكنه يبدو اكبر من عمره بكثير! لعلها الحرب.!
قالت ضاحكة: او لعله السهر.. أو الشرب.. او الحب.. او خلافه!؟
قال التابعي وقد تحركت فيه غريزته الصحافية.
- صديقك يا امينة راجل جنرال.. ومن اكبر المسؤولين في رئاسة اركان القيادة البريطانية للشرق الأوسط.. والدنيا حرب.. و «روميل» بيدق ابواب طبرق.. أنا مندهش ان يترك واحد مُهم زيّ صاحبك وظيفته ومسؤولياته في الصحراء الغربية ويأتي معك الى القدس للراحة والاستجمام؟!
وأحست «أمينة البارودي» ان صديقها الاستاذ التابعي يحاول ان يجرها الى حقل الألغام ويتركها تكشف له عن كل الأسرار الخطيرة

المتعلقة بصديقها ـ او عشيقها ـ الجنرال «ريتشي»، فترددت قليلاً قبل ان تقول له بلهجة ليست خالية من التحذير:

ـ اسمع يا محمد! أنا دي الوقت لا أتكلم مع الصحافي صاحب مجلة «آخر ساعة»، وانما اتكلم مع صديقي الله بحبه واحترمه الأستاذ التابعي. يا ترى هل اقدر اعتمد على كده؟

واجاب التابعي بكل خبث:

ـ انا أقسم لك برحمة أمي أنني لن أنشر كلمة واحدة من الكلام الذي سأسمعه منك الآن.!

قالت أمينة: إذن دعنا نلتقي معاً في السابعة مساء لأنني مضطرة الآن ان اذهب «معه» الى مطار «اللد» لكي اودعه بسبب سفره الاضطراري الى القاهرة ومنها الى.. طبرق!

ونهضت «أمينة» واقفة! ونهض معها الجنرال «ريتشي»! وعندما خرجا معاً من باب الفندق الكبير سمعت صديقي التابعي يقول لي بشيء من الشعور بالقلق والدهشة:

ـ البنت دي مجنونة! لقد عاشت طول عمرها كده. تجوزت من «مصطفى رياض»، حفيد رياض باشا رئيس وزراء مصر، ثم طلقته! وعادت وتزوجت من «مختار العابد» إبن رئيس جمهورية سورية، ثم طلقته! وللمرة الثالثة تزوجت من «أحمد سالم».. الولد «الكمبردجي».. الأنيق.. الذكي.. الحلو.. الطموح.. الثري.. وأدخلته السجن! وها هي اليوم غرقانة في حبها مع الجنرال المسؤول عن الجيش الثامن وحرب الصحراء! بنت مجنونة صحيح، تعيش في خيالات العظمة.. وتتزوج من أبناء الرؤساء.. وتعشق الجنرالات.. وتنفق بالآلاف.. وتسهر حتى الصبح.. وقد نسمع غداً أنها ماتت او انتحرت.!

ثم اضاف التابعي وهو يمضي بي لتناول الغداء معه في مقصف «الريجانس» التابع للفندق قائلاً لي:

في الساعة سبعة حاعرف لك الأخبار كلها! دعنا ننتظر حتى الساعة السابعة!

وبعد الغداء، ودعت التابعي وعدت الى منزلي في القدس. ولم أسمع

صوته الا في العاشرة مساء عندما طلبني بالتلفون ودعاني للمجيء اليه فوراً لأنـه ـ كمـا قال ـ لا يقـوى على ان يحتفظ بما سمعه من أمينة البارودي.. لوحده.. طويلاً.!

وبعد دقائق كنت في شقة التابعي بمبنى الفندق الكبير..

وعندما سألته عن «أمينة» اجابني بأنها تركته منذ دقائق قليلة فقط، بعد ان قضت معه اكثر من ثلاث ساعات كشفت له فيها عن السر الكبير الذي يكتنف حياتها مع الجنرال ريتشي، وعن الأسرار الكبيرة التي تكتنف حياة الجنرال المذكور منذ مجيئه الى العراق مع القوة البريطانية في عام ١٩١٥، الى مجيئه لكي ينضم الى قيادة الجنرال «ويفل» للشرق الأوسط في عام ١٩٤١.!

وقال لي التابعي وهو يبدأ القصة من أولها:

ـ قالت لي «أمينـة» ان عشيقهـا الجنرال «ريتشي» ليس غريباً عن فلسطين! فقد جاء الى فلسطين مع حملة الجنرال «اللنبي» واشترك في محاربة الأتراك ضمن الفرقة الهندية السابعة في عام ١٩١٧. وأنه نال وسام الصليب العسكري تقديراً لشجاعته في تلك الفترة! وانه بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى، استمر يعمل تحت قيادة الجنرال «اللنبي» حتى عام ١٩٢٣ عندما التحق بوزارة الحرب البريطانية وبقي فيها حتى اوائل الثلاثينات عندما سافر الى الهند وعمل في ميدان التدريب والتدريس، والتقى هنـاك، لأول مرة، بالجنـرال «أوكنلك» الذي كان قائداً للقوات البريطانية في شمال تلك البلاد. ثم استقال من منصبه وسافر الى اميركا وكندا للراحة والمتعة. وفي نيويورك ألتقى بالفتاة التي اصبحت فيما بعد زوجتـه، ولكنـه قرر ان يعود الى الجيش والتحق بالقوة البريطانية في السـودان وأصبح قائداً لها! ثم أصبح قائدا للفرقة الملكية العسكرية وانتقل معها الى مركزها الجديد في فلسطين! وعاش «ريتشي» لمدة شهور طويلة في عام ١٩٣٧ في مدينـة القـدس يعمـل تحت قيـادة الجنـرال «أوكونور». ثم نقلوه الى الفرقة العسكرية الثانية بقيادة «آلن برووك»، وسافر معها للاشتراك في المعارك فوق الأرض الفرنسية في اوائل الحرب ضد الألمان، وبقي في فرنسا حتى جاء الانسحاب الحربي الشهير من

«دنكرك» فعاد الى بريطانيا، ومنها صدر الأمر بنقله الى الشرق الأوسط للعمل تحت قيادة «ويفل» في المقر الرئيسي بالقاهرة.. وما زال فيها حتى اليوم.!

وضحك «محمد التابعي» وهو يقول لي معلقاً على هذه الحياة «العريضة الطويلة» للجنرال ريتشي:

ـ إن امينة هانم لا تعشق إلا الرجال الذين عاشوا حياتهم بالطول وبالعرض.. وبالعمق ايضا!

ثم أضاف:

ـ خاصة وان صاحبنا ـ كما يبدو من كلام «أمينة» ـ قد أصبح يشعر بالملل والقرف من حياة الحرب، وانه يفكر جدياً في الاستقالة! هكذا احست «أمينة» من كلامه معها. إنه ليس سعيداً في حياته الزوجية مع زوجته «صافي» ـ وهذا اسمها ـ لأنها نصف كندية ونصف اميركية مع بعض الدم الانجليزي والايرلندي.! بينما هو من مواليد «غيانا» البريطانية وقد عاش ردحاً من الزمن في «مالايا» برفقة والده الذي كان يعمل في تجارة السكر ثم في تجارة المطاط...

وسألت صديقي التابعي قبل ان ينهي سرد هذه الرواية على مسمعي، وقلت:

ـ يا ترى يا استاذ تابعي هل سيقرأ الناس في مجلة «آخر ساعة» جانباً من هذه الأسرار منشورة بقلم محمد التابعي؟

وأجابني الاستاذ قائلا:

ـ انت سمعتني صباح هذا اليوم عندما أقسمت لأمينة «برحمة والدتي» بأنني لن أنشر شيئاً من كلامها عن قصة حبها مع هذا الجنرال الانجليزي. ولكن من يدري؟؟ قد أجد «فتوى» تحللني من هذا القسم، وعندئذ لكل حادث حديث..

ثم استدرك قائلاً لي على الفور.

ـ اللهم الا اذا ألزمتني آمال ـ ويقصد اسمهان ـ بأن ألتزم الصمت واحفظ السر ولا أنشر شيئاً!

وبعد يومين سافر صديقي الاستاذ محمد التابعي الى مصر وترك

أمينة البارودي «برعاية» صديقتها.. آمال الاطرش او... اسمهان!

وبدأت المخابرات التلفونية تصل الى عاملة السنترال في ذلك الفندق الكبير وكلها تطلب إسماً واحداً وفي جناحٍ واحد اأمينة البارودي ورقم الجناح ٢٢٦!

وكانت «أمينة» تجيد اللغة الفرنسية اكثر من إجادتها للغة الانجليزية. بل لعل اللهجة الخاصة التي كان يتحدث بها معها صديقها الجنرال «ريتشي» قد جعلها عاجزة عن التقاط معظم الكلمات، ناهيك عن فهمها او إدراك معناها.

وقررت «أمينة» ان تستعين بصديقتها «آمال» لكي تجيب على مخابرات الجنرال العاشق، وتنقلها الى معشوقته السمراء.

ولكن... لم تكن «آمال» اكثر قدرة على إجادة اللغة الانجليزية من صديقتها «امينة»، مما جعلهما يستعينان بالسيدة «ماتيلدا» عاملة التلفون الرئيسية للقيام بمهمة التقاط المخابرات، وتسجيلها ونقلها فوراً الى جناح «أمينة البارودي» مع الترجمة المطلوبة.!

ولم يكن صعباً ان اصل بدوري الى «ماتيلدا» وان أطلع من خلالها على جميع المحادثات التلفونية الواصلة من الصحراء الغربية، وبالتحديد من قيادة الجيش الثامن البريطاني، الى السيدة «امينة البارودي»، وأن أتجاوب مع رغبة «ماتيلدا» في تسديد النفقات المالية التي تفرضها مثل هذه الامور وفي مثل هذه الحالات! كانت اكثر الاحاديث التلفونية التي أجراها الجنرال «ريتشي» مطعمة بالعبارات العاطفية وكلمات الحب والشوق والبعد والملل من حياة الصحراء، والقرف من حياة الحرب! وكان يوصيها بعدم الخروج ليلاً، وعدم الاختلاط بزوار المقاهي اليهودية وعدم الذهاب الى «تل ابيب» وعدم النزول الى شاطىء البحر الميت، وعدم لعب «البوكر» مع بعض الناس؟! لماذا كل هذا الحذر من اليهود؟! ولماذا الخوف عليها من «تل ابيب» ومن شواطىء البحر الميت؟! لعل لدى الجنرال العاشق من المعلومات ما يُبرر له كل هذه المخاوف ويدفعه الى كل هذا القلق على سلامة معشوقته!

ومضت أسابيع وليس في مضمون هذه المخابرات التلفونية اي شيء

جديد! الى ان جاء الثلث الأخير من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من عام ١٩٤١. وقال «ريتشي» لمعشوقته أنه لن يتمكن من الحضور اليها من القاهرة لأنه مسافر في السادس والعشرين من الشهر الى «طبرق» لكي يتولى قيادة الجيش الثامن بدلاً من الجنرال «آلن كننغهام» الذي صدر قرار الجنرال «اوكنلك» القائد العام لجيوش الحلفاء في الشرق الأوسط بطرده من عمله.!

ورغم فرحة امينة بأن عشيقها الجنرال قد اصبح قائداً للجيش الثامن، الا أنها قد شعرت بالأنقباض لأن منصبه الجديد قد يشغله عنها، ويقلل من عدد المرات التي اعتادت ان تقابله فيها. وعندما حاولت صديقتها «آمال» ان تنصحها بضرورة التخفيف من ملازمتها للجنرال ريتشي وخاصة بعد تنصيبه في القيادة الجديدة، أجابتها «أمينة» وكأنها تصرخ في وجهها:

ـ وإيه يعني الجيش الثامن؟ أنا سأرغمه على المجيء الى عندي في شارع الهرم وفي كل أسبوع! وسأفرض عليه أوامري التي لا يمكن له ان يرفضها! وسأجعله يترك الحرب الى الحب، ويهجر الموت الى الحياة، ويختار الواحة والربيع بدلا من الصحراء والسراب! سأمنحه لذة عمره ونبض عروقه وانتفاضة شبابه وقوة جسده! انا ماذا يهمني من هذه الحرب؟ وما علاقتي بالجيش الثامن؟ وملعون أبوهم وأبو الانجليز والألمان والطليان! أنا واحدة عايزة اعيش.. وعايزه أحب.. وعايزة أنسى «الهُباب» اللي جرى لي بسبب زواجي من «احمد سالم»، ومغامرات احمد سالم، وثمن انقاذ احمد سالم من حبل المشنقة!

وهنا نهضت «أمينة» الى ناحية جهاز التلفون وطلبت من «ماتيلدا» ان توصلها بنمرة الجنرال التي تحتفظ بها دائما معها، وعندما تأكدت ان الجنرال بنفسه ينتظر صوتها على الخط، قالت وكأنها تشتمه بدلاً من ان تهنئه، وبلغتها الانجليزية المُحطمة:

ـ دارلنج.. اسمع هنا.. أنا مسافرة غداً لمصر وعائدة الى منزلي بالقاهرة.. واريد ان اتعشى معك بعد غد.. كالمعتاد!

ولم تنتظر جوابه. واقفلت السكة.

وحزمت «أمينة» حقائبها وعادت الى القاهرة .!

وقالت لها «آمال» وكذلك صديقتها الأخرى ـ شفيقة ـ وهما يودعانها في محطة سكة حديد القدس:

ـ سنبقى بانتظار اخبارك يومياً! إياك التأخير، او الانقطاع، او النسيان، او الانشغال بالحب! اخبارك ننتظرها بفارغ الصبر! ربنا معاك يا أمينة يا ست الكل!

ولم تستطع مشاغل الجنرال «ريتشي» ومسؤولياته الجسام كقائد عام للجيش الثامن أن تمنعه من تلبية «أوامر» امينة والمجيء اليها من قلب الصحراء الغربية لكي يتناول معها طعام العشاء ويقضي برفقتها سواد الليل ثم يطير عائداً مع الفجر الى مقر عمله في طبرق!

كان يحبها كالشاب المراهق! وكان يذوب أمام نظراتها المشحونة بدعاء الجنس! وكان مبهوراً بألوان المكياج المرسومة بعناية وجمال فوق وجهها الأسمر الرقيق! وكان يتلذذ وهو يسمعها تتكلم الانجليزية كالصبيان الصغار فتخطىء في تركيب الكلمات وتمزج الفرنسية بالإنجليزية، وتشتم العالم عندما لا تجد الكلمة المناسبة، وتضحك وتقهقه وتبكي وتشرب وتُغني في وقت واحد!

وتكررت زيارات الجنرال العاشق الى معشوقته المصرية السمراء، بينما تكررت الضربات والهزائم للجيش الثامن في الجبهة الغربية! كان الناس يقرأون أخبار الانسحابات المتكررة لقوات الجيش الثامن من مواقعها على طول خط القتال بين طبرق، وغزالة، على الشاطى، وبين «بير جبي»، وبير حكيم، و «سيدي عمر»، والسلّوم على الجبهة الداخلية، وهم يرون أمامهم منظر الجنرال «ريتشي» قائد الجيش الثامن يراقص زهرة المجتمع المصري وأحلى سيدات القاهرة أمينة البارودي في نادي محمد علي، وفي الأوبرج، وفي فندق شبرد، وفي مينا هاوس، ويتناول معها الشاي في «جروبي» و «صولت»، ولا يتردد في ان يمشي معها ويده في يدها وسط شارع قصر النيل وسليمان باشا، وليس وراءه الا حارسه الخاص المسؤول عن سلامة قائد الجيش الثامن.!

وبعد أيام قليلة، بدأ الجنرال «اوكنلك»، يقف على تفاصيل الحياة

الخاصة للجنرال ريتشي! وكان «اوكنلك» ـ مثل «ريتشي» ـ يحب الحياة، ويحب السهر، ويحب النساء، ويحب ليالي القاهرة! ومع الايام تحولت الصداقة الى حسد، والرفقة الى بغضاء! وبدأ اوكنلك يكتب التقارير السرية الى «تشرشل» ويملؤها بالاتهامات الموجهة الى... ريتشي! وكان «اوكنلك» يؤكد بأن كل المسؤولية في اخطاء حرب الصحراء تقع مباشرة على كتفي الجنرال «ريتشي»، بينما كان جميع مساعدي «ريتشي» يلومونه وينتقدون ولاءه الاعمى للجنرال «اوكنلك»! وكان «ريتشي» يشعر بالولاء الاعمى لرئيسه المباشر الجنرال «اوكنلك» لأن «اوكنلك» كان صاحب الفضل عليه في اختياره قائداً للجيش الثامن بعد ان عزل الجنرال «كننغهام» من منصبه! ومن سوء حظ «ريتشي» انه التحق عند مجيئه الى الشرق الاوسط بقيادة الجنرال «ويفل» ولم يمض اكثر من شهر واحد، حتى طردوا الجنرال «ويفل» من منصبه! وقد حاول ريتشي عند اختياره قائداً للجيش الثامن ان يعتذر عن قبول المنصب بحجة افتقاره الى الخبرة المطلوبة في حرب الصحراء، ولكن الجنرال «اوكنلك» طلب منه ان يتولى مسؤولية الجيش الثامن بعد ساعات قليلة فقط من عزل الجنرال «كننغهام»، بحيث لم يترك له مجالاً للاعتذار!

وتكررت الضربات الموجهة من جيش المارشال «روميل» الى قوات الجيش الثامن في حرب الصحراء الغربية!

وتكررت الانسحابات في اتجاه حدود مصر.

وفشلت العملية «ابردين» لاختراق صفوف الجيش الالماني!

وفي ٢٧ ايار (مايو) بدأ الهجوم الالماني الكبير على الجيش الثامن في موقع «غزالة»! وفي ١٤ حزيران (يونيو) قرر الجنرال «ريتشي» الانسحاب من «غزالة»! وفي ١٥ حزيران (يونيو) ابرق الجنرال «اوكنلك» الى رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» يخبره بأنه قد اصدر اوامره الى الجنرال «ريتشي» بضرورة اعداد التحصينات العسكرية المطلوبة عند «السلّوم» لشنّ هجوم مُضاد على قوات روميل، ومنعها من الوصول الى.. طبرق! ولكن الجنرال «ريتشي» رفض ان يقوم بتحصين المسافة الواقعة بين طبرق من جهة، و «الجبّيي» من جهة اخرى، كما رفض ان يتعهد بقدرته

على منع قوات المارشال روميل من التحرك شرقاً!

ثم نقل الجنرال ريتشي مقر رئاسته الى... «سيدي برّاني».

وتكررت الضربات! وتكررت الانسحابات!

ولم ينقطع الجنرال العاشق عن زيارة القاهرة في مساء كل يوم سبت، لكي يتناول العشاء مع معبودته السمراء، ويقضي معها السهرة، وجانباً من سواد الليل، ثم يعود مع الفجر الى مقر قيادة الجيش الثامن في «مكان ما» من الصحراء الغربية!

وبدأت الهمسات تتحول الى صرخات وهي تنادي متسائلة:

ـ ترى هل ممكن ان يكون الجنرال ريتشي عميلاً نازياً؟ وهل ممكن ان تكون «أمينة البارودي»، جاسوسة لحساب الألمان؟!

وفي ٢١ حزيران (يونيو)، سقطت طبرق بيد الجيش الألماني.

وفي يوم ٢٢ حزيران (يونيو)، بدأ الهجوم الألماني الكبير يشتد ويتسع!

وفجأة، وصل الجنرال «اوكنلك» الى مقر رئاسة الجنرال ريتشي! وبعد «٢٤» ساعة فقط كانت قوات «روميل» قد اخترقت الخط الساحلي بين «سيدي برّاني» ومرسي مطروح، واستولت عليه!

وفي يوم ٢٥ حزيران (يونيو)، ذهب الجنرال «اوكنلك» مع مساعده الجنرال «دورمان سميث» الى القاهرة، وتناولا طعام الغداء في نادي «محمد علي»، ثم عادا معاً بالطائرة الى نقطة اسمها «يافوش» حيث كان بانتظارهما هناك الجنرال ريتشي! وعندما هبط الجنرال «اوكنلك» من سلّم الطائرة، قال للجنرال «ريتشي» وهو يرد له تحيته العسكرية.

ـ لقد صدر قراري بأن أتولى بنفسي قيادة الجيش الثامن بدلاً منك... وقد اصدرتُ أمري باعفائك من جميع مناصبك منذ هذه الساعة!

كانت مصر في ذلك اليوم، تستمع الى أخبار الهزائم التي مُني بها الجيش الثامن وهي تتوقع ان تسقط العلمين وبعدها الاسكندرية ويدخل روميل الى مصر فاتحاً، ومحرراً.. وصديقاً!

فقد كانت مصر، ما زالت تلعق جراحها الوطنية من جراء حادث ٤ شباط (فبراير) الذي شهد محاصرة الدبابات البريطانية لقصر عابدين

وفرض مصطفى النحاس باشا رئيسا للوزراء بقوة الحراب!

وبدأت السفارات الاجنبية تحرق اوراقها السرية! وصدرت اوامر الحاكم العسكري لمصر، بتشديد مراقبة اطفاء الانوار، وحراسة الجسور على النيل، ومراعاة ظروف الحرب بدقة وصرامة، ونقل العائلات الانجليزية بالبحر الى فلسطين!

وأصدر الجنرال «اوكنلك» ـ القائد الجديد للجيش الثامن ـ بياناً اعلن فيه على الجنود انه ليس في نيته شن اي هجوم مضاد في مرسى مطروح او «سيدي حمزة»، وانما سيحارب العدو في المساحة الواقعة بين مطروح والعلمين، بقوات متحركة.. وضربات متنقلة بانتظار الخطة النهائية لمواجهة قوات روميل في المستقبل القريب!

اما الجنرال «ريتشي»، فقد ودع مساعديه، وطار الى القاهرة حيث قضى عطلة نهاية الاسبوع في منزل «أمينة البارودي»، ثم طار معها الى فلسطين ونزلا في جناح واحد في مبنى ذلك الفندق الكبير.. بقصد «الراحة» من عناء الحروب!

ومن فلسطين، طار الجنرال العاشق ـ والطريد ـ الى لندن حيث استقبله رئيس الوزراء ونستون تشرشل وأسند اليه منصباً عسكرياً يتعلق بتدريب الشعب على حرب العصابات اذا شاء القدر لألمانيا ان تغزو الجزر البريطانية او تحاول احتلالها..؟!

وأدرك الجنرال «ريتشي» ان حياته العسكرية.. كما عاشها ومارسها، قد اوشكت على النهاية! اذ انه التحق بمنصب عسكري ـ فخري ـ كقائد عسكري عام للقوات البرية في «مالايا» ثم نقلوه الى منصب رئيس البعثة العسكرية المشتركة في واشنطن، ثم حان وقت الاحالة على المعاش، فترك الخدمة العسكرية وسافر الى كندا وبقي فيها حتى وفاته في عام ١٩٨٣!

اما أمينة؟...

فقد خرج زوجها احمد سالم من السجن، لكي يرافقها مباشرة الى مكتب المأذون، ويسجل طلاقه الشرعي منها..! لقد صرعته الشائعات المذهلة التي كانت تصله الى السجن عن سلوك زوجته وعلاقتها بالجنرال «ريتشي» ورحلاتها معه الى فلسطين، فقرر ان يطلقها وان يتزوج من اعز

صديقاتها وهي السيدة التي كانت تبارك علاقتها «بالجنرال»، وتمنحها العطف والرعاية والمال، وأعني: آمال الاطرش!

وبينما كانت الفضائح والقصص تملأ اجواء مصر عن «احمد سالم» وزوجته آمال الاطرش، والتي انتهت بموت الثانية غرقاً، وموت الاول في غرفة العمليات، كانت «امينة» تفتش لقلبها عن حب جديد!

وقد عثرت ـ أخيراً ـ على هذا الحبيب في شخص السنيور الايطالي الشاب «انطونيو أنالورو»، الذي كان قد جاء الى القاهرة للأشتراك في فرقة الاوبرا الايطالية والقيام بدور الفتى الاول في اوبرا «مدام بترفلاي».

لقد شاهدت «امينة البارودي» اوبرا «مدام بترفلاي»، فبكت بحرقة وتذكرت صديقها وعشيقها الجنرال «ريتشي» من خلال احداث الرواية المذكورة.

فقد كانت اوبرا «مدام بترفلاي» تروي قصة ضابط بحري زار بلاد اليابان ووقع في غرام سيدة يابانية اسمها «مدام بترفلاي» وتزوجها! ثم عاد الزوج الى بلاده بعد ان وعد زوجته بأن يعود اليها لكي يستأنف معها حياته الزوجية. ومضت السنون والزوجة تنتظر والزوج لم يعد. وبعد عذاب طويل، جاء الزوج الاميركي الى اليابان وعندما خرجت زوجته اليابانية ـ مدام بترفلاي ـ لاستقباله، وجدته برفقة زوجته الاميركية الجديدة!!

.. ولم تستطع ان تقاوم الصدمة، فأقدمت على الانتحار!

ترى، هل كانت «أمينة» طيلة تلك السنوات الماضية تنتظر عودة حبيبها الجنرال «ريتشي»، الذي سافر الى اميركا.. ولم يعد اليها؟

يجوز.!

ولكن أمينة التي بكت بحرقة شديدة وهي تشاهد اوبرا «مدام بترفلاي» في القاهرة، وقعت ـ رغم ارادتها ـ في غرام الشاب الايطالي الذي كان يقوم بدور الزوج الاميركي في احداث قصة الاوبرا.! كان هناك شبهاً عجيباً بين الجنرال ريتشي، وهذا الشاب الايطالي! كلاهما أشقر اللون، أشقر الشعر، ازرق العينين، طويل القامة.. وسيم الشكل.. وكلاهما سافرا الى اميركا ولم يعد!

وكمـا كان منتـظراً، لم يعد السنيور الشاب الى بلاده، إلا وبرفقته زوجته الجديدة: مدام «أمينة البارودي.. أنالورو!»

وكما كان منتظراً، لم يُعمر هذا الزواج الرابع لأمينة البارودي، سوى سنوات ثلاث، عادت بعدها الى القاهرة لكي تقترن بشاب مصري لا يقل عنها حباً للمغامرة، وللشهرة، وللحياة!

وماتت بالسرطان..

وقال لي صديقي الشاعر الراحل «كامل الشناوي» عندما بلغنا خبر وفاتها، قال بسخريته المعهودة ولذعاته الشهيرة:

ـ كانت أمينة البارودي ـ رحمها الله ـ هي السبّاقة في كل شيء، والى كل شيء! لقد سبقت جمال عبد الناصر في وحدة مصر مع سورية عندما تزوجت من ابن رئيس سورية في الثلاثينات! وسبقت النحاس باشا في التحالف الاستراتيجي مع الانجليز عندما عشقت قائد الجيش الثامن وقامت بأخطر دور نسائي في سنوات الحرب العالمية! وسبقت حكم القدر عنـدمـا تركت مطلقها «احمد سالم» يتزوج من اسمهان فقتلها ومات وانتقم القدر منهما معاً!

واضاف صديقي كامل الشناوي قائلًا بسخرية ومرارة:

ـ ولعـل أمينة البارودي هي إحدى النساء القليلات في مصر التي انحـدرت من صلب شاعر «ثوروي»، ورئيس وزراء وطني، ثم عشقت جنرالًا انجليزياً كان اجداده هم الذين حملوا جدها فوق بارجة حربية ونقلوه الى المنفى في جزيرة سيلان!

من يدري.؟

إن القصة الحقيقية لأمينة البارودي، لم يكتبها احد بعد..!

الثامنة

سميحة بنت الصحراء

كل عام
وانتم
بخير

رسالة من «بنت الصحراء» ـ سميرة خاشقجي

تهنىء المؤلف مع تواقيع زوجها وابنها

عاشت ضائعة بين طموحها المخيف من جهة، وعجزها المستمر على تحقيق هذا الطموح من جهة أخرى. وكانت تبحث عن الاضواء في كل ناحية، وتنشد الشهرة في كل مكان، وتتمنى ان تقرأ اسمها في كل مجلة وفي كل رواية ومع كل رأي وعند كل مقالة او صورة او خبر! وكانت جميلة، ولكنها عاشت تعتقد انها اجمل بنات حواء. وكانت مجتهدة، ولكنها استمرت تؤكد بأن مقالاتها وكتبها وشعاراتها هي وحدها أعظم ما ظهر من الادب النسائي في الأربعين سنة الأخيرة! وكانت رقيقة وصغيرة الحجم وضعيفة البنية، ولكنها ظنت ان الشهرة تأتي بالصحة، وان المال يجلب القوة، وان الحب يشفي الأمراض، وان الزواج يحقق المعجزات، فقررت ان تعيش السنوات العشر الأخيرة من عمرها وهي في طائرة، تفطر في مصر وتتغدى في باريس وتنام في مدريد وتسهر في اليوم التالي في مطاعم نيويورك، وأن تسافر وتتزوج وتحب وتكتب وتتحدى العمليات الجراحية والأمراض النسائية جرياً وراء الشهرة والمال واحلام السعادة في المجد العظيم!

وبقي سر سعادتها هو بالذات سر تعاستها! كان شقيقها الملياردير هو مثلها الأعلى، فأرادت ان تمشي على خطاه وان تقلده وأن تصبح مثله مشهورة، وثرية، ونجمة صالونات! وكانت تحبه بقدر ما كانت تحسده، وكانت تفخر به بقدر ما كانت تحقد على نفسها لأنها لم تصبح ...مثله!

وأرادت ان تسبح ضد التيار فلم تصل الى الشاطىء المقصود ولم تعد الى نقطة البداية التي خرجت منها! وكان المفروض ان تكون «حجازية» المسلك وصحراوية الطبع وشرقية الهوى، ولكنها عاشت في الاسكندرية وفي الهند وفي لبنان وفي باريس اكثر مما عاشت في وطنها الأصلي. ورغم

انهـا ابنـة طبيب وشقيقـة «مليـارديـر» وزوجـة رجال مجتمع واعمال ودبلوماسية، الا انها قررت ان تكون صحافية وان تكتب الروايات وان تنشر اخبار الموضة وان تُعلّق على صرعات الفن وأن تحرر مجلتها من باريس وتجمع موادها في مصر وتطبعها في مدريد وتوزعها من «ماربيا» او جنيف!

وأظنهـا قد نسيت ان بنـات الصحـراء، حتى بعـد ارتفاع اسعار البترول، لا يكتبن عن الحب ولا يطالبن بمساواة المرأة مع الرجل، ولا يخترعن الشعارات التي تنادي «بأن الدنيا حلوة لمن يعرف كيف يحياها، وأنها كالعلقم لمن لا يعرف كيف يحياها..»!

وكبرت، واستمرت تسبح ضد التيار! إن حياة بيروت ـ بكل صخبها وضجيجها ـ تبقى غريبة عن طبيعة بنت الصحراء! وقد تكسب المرأة من حياة بيروت الشيء الكثير مقابل ان تخسر ـ ايضاً ـ الشيء الكثير. لقد تمنت «سميحة» لنفسها اشياء كثيرة ولم تنجح بواحد منها. ارادت ان تُعلّم «الشرقية» دروس السعادة في بيتها، ولكنها فشلت في ان تحقق هذه السعـادة لنفسهـا او لبيتها. كانت حياتها غريبة عن كتاباتها. وكانت مقالاتها بعيدة عن حقائق أيامها واحتارت في تحديد مهنتها. هل هي صحافية أم هي أديبة أم هي قصصية أم هي رائدة في دنيا الموضة أم هي مُعلّمة لبنات حواء في مفهوم الحب والحياة، أم هي ناشرة أم هي زوجة وأم، أم هي سيدة اعمال؟!

وكانت مخلصة في مفهوم معنى الأمومة عندها! ولكنها عجزت عن ان ترغم إبنها الوحيد على أن يحبها! لقد استمرت تناديه في مقالاتها ولكنه لم يقرأ ولم يسمع ولم يجب! لقد كرهت الأب وأحبت إبنه الذي هو ابنها، ولكن الابن لم يكره أباه ولم يحبها! وعندما ماتت بقي الأبن مع أبيه ولم يحضر الجنازة! لقد رفض ان يزورها حيّة ورفض ان يرعى مسيرة مجلتها بعد موتها! وكان الأبن يقوم بدور «شعرة معاوية» بين أبيه وخاله، وكلاهما «مليارديـر»، وكلاهما مشهور ولكن موت الأم قطع الشعرة، وانحاز الإبن الى جانب أبيه وانقطعت العلاقة نهائياً بين الأبن والأب من جهة، وبين الخال من جهة اخرى!

قالت لي ان زواجهـا الأول كان من ابن الجـيران! كانت تسكن مع عائلتها في الاسكندرية وكان هو يعمل مع اخوته في شركة تنقل القوارب الصغيرة بين الشاطىء الاسكندري والبواخر الراسية في عرض البحر. وكـانـوا يسمّون هذا النوع من العمل «بالبامبوطة» حيث يقوم القارب الصغير بنقل بعض الخضروات والفواكه الى ركاب البواخر الكبيرة مقابل الحصول من الملاحين او المسؤولين في تلك البواخر على بعض زجاجات الخمر وبعض علب السجائر. وكان والد زوجها ـ كما قالت لي ـ يعمل في حقل التدريس بعد أن تخرج من مدرسة التعليم العليا وأصبح مُعلماً الزاميـاً. ولكن زواجها من إبن الجيران لم يدم طويلاً حيث تم الطلاق بينهمـا بعد ان رزقت منه بطفل واحد وبعد ان اشترك ذلك الزوج مع شقيقهـا المليـاردير في أعمال تجارية واسعة انتهت باتهامه من جانب الشقيق باختلاس مائة ألف دولار، وتزوير شيك مصرفي بقيمة هذا المبلغ!

ولعلها أرادت ان تكيد له عند المسؤولين في بلده، فاتهمته بتهريب العملة الى خارج البلاد، وحملت معها ما يثبت تلك التهمة! وصدر الامر باعتقال الزوج الذي كان موجوداً في الخارج، فقرر عدم العودة الى وطنه واختار الإقامة بين لندن وباريس!

ومضت فتـرة من الزمن ليست طويلة! وتزوجت «سميحة» من ابن خالتهـا الدبلوماسي، وأصبحت زوجة سفير عربي تتنقل معه بين الهند وبـيروت وتـركيـا، الى ان بدأ بينهما الخلاف، وانتهى الزواج الثاني، كالزواج الاول، بالطلاق..!

وعاشت في بيروت ولم تعد الى وطنها الاصلي! وقررت ان تصدر مجلة نسـائيـة تتولى الاشراف عليها بنفسها، ولكن حرب لبنان في منتصف السبعينات لم تترك لها خياراً، فرحلت الى مصر!

وفي القـاهـرة، دعاها الصحافي «علي امين»، وكان صديقاً لأسرتها، لمرافقتـه الى حفـل كوكتيل في دار السفارة اللبنانية! وهناك تعرفت الى الملحق الإعلامي في السفارة المذكورة وكان شاباً وسيماً يصغرها بأكثر من خمس عشرة سنة، فوقعت في حبه، وتظاهر هو بأنه قد وقع في حبها، إذ لم تكد تغادر القاهرة في أول رحلة لها الى باريس حتى كان الملحق

الاعلامي المذكور يستقيل من عمله ويلحق بها الى شقتها التي تملكها في العاصمة الفرنسية!

وفي مدينة «كان»، وعلى الشاطىء الفرنسي، أُستدعي المأذون الشرعي من لندن للمجيء فوراً الى قصر «الملياردير» وعلى طائرته الخاصة، لكي يعقد قران «سميحة» على الشاب اللبناني الذي استقال من عمله وأصبح موظفاً في شركات صهره الملياردير العربي الشهير في لندن وباريس ومدريد.

ولكن، ما زالت سميحــة بنت الصحراء تسبح ضد التيار! لقد وقع الطلاق الأول، ثم وقع الطلاق الثاني، ثم وقع الزواج الخطأ من شاب في عمر ابنها، ثم انتقلت المجلة من بيروت الى مصر، ومن مصر الى ميلانو، ومن ميلانو الى مدريد، وتاهت «سميحة» في محاولة العثور على هويتها الجديدة وهل تبقى صحافية كما كانت حتى اليوم، أم تتحول الى «سيدة أعمال» كما يريد لها زوجها الشاب ان تكون؟!

وانتصرت رغبة الزوج، وأصبحت «سميحة» مزيجاً من الصحافة ومن العمــل معاً! لقد تعمد زوجها ان يدخلها الى دنيا الأعمال لكي تصبح «الجسر» الذي يعبر منه الى أخيها الملياردير!. ورغم ان حياتها الجديدة في عقــد الصفقــات التجــاريــة ومزاولة أعمال الشركات والسمسرة قد أكسبتهــا الكثــير من المال ومكنتها من شراء القصور المختلفة في قلب مدريد، وقلب باريس، وعلى الشاطىء الفرنسي، الا أنها لم تكن تدري أن انغماسها في حياة العمل مع السماح لزوجها بالانطلاق وراء المغامرات التجارية لن يؤثر على نجاحها كصحافية فحسب، وانما سيؤثر ايضاً على صميم زواجها وسيدق المسمار الأخير في نعش ذلك الزواج..!

وهكذا كان..

وفي مكتبــه التجــاري المخصص لعقد الصفقات وعقد الاجتماعات واصطياد الزبائن، وقع الزوج في حب سكرتيرته الإسبانية الحسناء!

وكانت الضربة الأولى..

وبدأ الزوج يتغيب عن منزل الزوجية بحجة الجري وراء الاعمال! وكثــرت اسفــاره الى امــيركا وباريس تحت ستار الحرص على حضور

الاجتماعات! واصبح يحجز جناحاً خاصاً بأسمه في فنادق «جورج الخامس»، ووالدورف أستوريا، و «ماديسون»، وعلى مدار ايام السنة ومعللاً ذلك باحتياجه المستمر الى التنقل الدائم والتواجد الشخصي في اكثر من عاصمة دولية وفي اكثر من فندق واحد بسبب زحمة الاشغال! واصبحت «سميحة» تبحث عن زوجها فلا تجده! وعندما لعب الفار في «عبّها» ـ كما يقولون ـ توجهت الى مكتب زوجها وأشتبكت في خناقات علنية مع جميع السكرتيرات العاملات في المكتب، فأغمي على بعضهن، واستقال بعضهن، وطردت بعضهن، ثم عادت الى مكتبها الذي يقع في المبنى نفسه وهي تلعن وتسبّ وتهدد وتشتم سنسفيل جدود زوجها المسافر دائما في مهمات مستعجلة!

وهكذا جاءت الضربة الثانية عندما رفض الزوج أن يسمح لزوجته بالاعتداء على طاقم بنات السكرتيرية، وراح يشكوها لشقيقها ويدس عليها عند اخيها الآخر ويغمز من طرف خفي بأن «سميحة» تشكو من انهيار عصبي، وانها بصدد الاستسلام للمُسكنات الطبية وغير الطبية، وأن تصرفاتها العصبية بسبب الغيرة وحب السيطرة ستعرقل اعمال الزوج وتسبب للشركات التي يملكها أخوها «الملياردير» خسائر مالية باهظة!

وأحست ««سميحة» بأن زوجها قد بدأ يتحداها، فقررت ان تنتصر عليه من خلال محاولاتها المتكررة لإقناع شقيقها «الملياردير» بأن يختارها في منصب نائب الرئيس العام لشركاته في لندن ومدريد ومصر! وقالت «سميحة» لشقيقها «الملياردير» بأنه إذا اختارها نائبة له فإن زوجها سيعود اليها، وانها ستكون على بيّنة من جميع الرحلات التي يقوم بها الى الخارج، وانها ستكون في مركز يسمح لها بالمحاسبة والتفتيش وتدقيق الحسابات ومراقبة الموظفات مما يضع حداً لهذا التحدي الذي يظهره لها زوجها فلا يملك عندئذ سوى ان يعود اليها راكعاً مستسلماً!

وكانت الضربة الثالثة .

اذ ان «سميحة» ـ في غمرة هوسها وحبها وثورتها على زوجها ـ نسيت ان شقيقها يضع مصلحته في العمل قبل اي شيء آخر، وانه يحب المال

اكثر مما يحب شقيقته، وانه لا يرى في صهره الشاب مجرد زوج لشقيقته وانما يجد فيه موظفاً يقوم بعمله على احسن وجه، ويخدم مصلحة الشركة بكل جد وإخلاص، ويأتي بالعقود التي لم يقدر عليها من قبله أحد، ويغزو الجهات الرسمية التي عجز عنها كثيرون غيره، وانه ـ فوق كل ذلك ـ شاب هادىء الأعصاب، أنيق المظهر، يجيد اللغات الانجليزية والفرنسية والعربية والإسبانية، وقد أثبت مع الأيام صدق ولائه لصهره «الملياردير» مع حسن خدماته للشركة وتعاونه مع بقية الزملاء والموظفين فيها، وان هذا الشاب اللبناني يتكلم العربية بلهجة لبنانية بيروتية خاصة اذا سمعها «الملياردير» شعر بالطرب الزائد وأخذته النشوة، وسقطت عنه كل همومه واحزانه! لذا، فان «الملياردير» عندما قرر ان يلبي طلبات شقيقته «سميحة» ويمنحها لقب نائبه الرئيس العام للشركات، لم ينس ان يمنح زوجها لقب المدير التنفيذي العام للشركة، ويضاعف من تقديره له وتقرّبه منه وعطفه عليه.. واعتزازه بخدماته!

وعندما أحس الشاب المذكور بأن صهره «الملياردير» يوليه كل هذه الثقة، وأن نقمة زوجته عليه لم تؤثر على محبة شقيقها له، قرر ان يمضي في طريق التحدي حتى آخره، وأن يضرب عرض الحائط باحتجاجات زوجته، وتهديداتها، وسخطها!. لقد سمعته يقول لي في ساعة ثورة ضد تصرفات زوجته «سميحة» المملوءة دوماً بالخناقات والسباب: «..أنا لم اكترث عندما وضعتني اكبر دولة عربية بترولية على قائمتها السوداء، ومنعتني من دخول بلدها، فهل سأهتم لصراخ امرأة كل قيمتها أنها شقيقة رجل غني؟!»

وبالفعل، فقد أثبت هذا الشاب ان في استطاعته ان يصمد أمام عناد زوجته، وان يحطم لها جبروتها، فأوعز الى الفتاة التي يحبها وتعمل معه في الشركة ان تقدم استقالتها من عملها وتتفرغ لاستقبال المفاجأة السعيدة التي اعدها لها، ثم راح يواصل رحلاته المتكررة الى اميركا وايران والقاهرة دون ان يسأل زوجته او يخبرها او يسأل عنها او يكترث لسؤالها..

وجن جنون «سميحة» وقررت ان تطعن زوجها في صميم عمله وان

تفسد عليه برامج أسفاره فقررت ان تقيم حفلة عيد ميلادها الخمسين في احد نوادي «مونت كارلو» وطلبت من أخيها «الملياردير» ان يأمر زوجها بأن يقطع زيارته التي كان يقوم بها الى فنزويلا والمكسيك وان يعود فوراً الى «مونت كارلو» لحضور حفل عيد ميلاد زوجته.!

ودعي الى الحفلة معظم الذين يحملون الألقاب من عائلات «رومانوف» و «هبسبرغ»، مع الذين يملكون الملايين في بنوك مونت كارلو! وامتلأت قاعات النادي بباقات الورد. وتبارت خمس فرق موسيقية في العزف حتى مطلع الفجر! وارتدى الحضور لباس السهرة! واكتمل العقد لولا غياب الزوج الشاب الذي لم يحضر من فنزويلا للاشتراك في حفلة عيد ميلاد زوجته!

وامتد الحفل الى الساعة الثالثة صباحاً! وفي الساعة الثالثة والنصف حضر الزوج في سيارته الرولز رويس قادماً بالطائرة من نيويورك وبالسيارة من مطار نيس! وفي تلك الدقيقة بالضبط، كانت سميحة تبكي! قلت لها ان شقيقها قد حجز لها جناح الملوك في «فندق دي باري» لكي تقضي ليلتها مع زوجها العائد اليها في ليلة عيدها. فهزت رأسها، ثم هزت كتفيها وقالت لي انها ستطرده من غرفتها اذا وجدته امامها! قلت لها ان شقيقها «الملياردير» سينتصر لزوجها ضدها إن هي أصرت على عدم المصالحة معه! قالت. «سأحارب زوجي وأحارب اخي اذا انتصر له»! قلت لها ان اختلافك مع زوجك امام اعين الناس وفي ليلة عيدك سيؤثر على سمعتك، ويضر بسمعة أخيك، وينال من كرامة زوجك، ولا يخدم أسم الشركات التي يملكها شقيقك ويعمل بها زوجك وتستفيد منها عائلتك! قالت ان احداً لم يقتل سمعة أخي بقدر ما قتلها بنفسه! اما زوجي واما الشركات واما سمعتي، فكلها لا تهمني! قلت لها ان عليها عدم الاستهانة بقدرة زوجها على المناورة بحيث يجعلها تبدو في صورة المعتدية بينما يظهر هو في صورة الضحية فيكسب عطف شقيقها عليه، ويضمن حقد شقيقها عليها! قالت اذا شعرتُ بأن شقيقي سينتصر لزوجي ضدي، فسأركب الطائرة غداً وأسافر الى المملكة وأشكو أخي الى الملك! قلت لها انك تلعبين بالنار! قالت: «بل سأحرق بها اعدائي كلهم. انني انتقم

لكرامتي! ان زوجي الذي انتشلته من الرصيف واصبح بفضلي من أصحاب الملايين قد قرر ان يطعنني وأحب سكرتيرته من ورائي وأفسد بيني وبين أخي وشوّه سمعتي وخانني! ان شقيقي لن يتخلى عني لحساب هذا الزوج الوغد!! »

وكانت الضربة الرابعة .

ففي صباح اليوم التالي، جاء الزوج الى الجناح الملكي الذي تسكن فيه زوجته بفندق «دي باري» بمونت كارلو، لكي يهنئها بعيد ميلادها ويصلح ما أفسده الزمن بينهما، اذ به يراها تخرج من باب الأسانسور وعلى فمها ابتسامة صفراء وهي تقول له متسائلة

ـ هل انت قادم لزيارتي ؟

واجاب: نعم!

قالت وهي تشدّه من يده وراءها:

ـ اذن تعال معي!

وخرجا معاً من الباب الرئيسي حيث كانت سيارتها الرولز بانتظارها، فركبت في المقعد الخلفي، وعندما حاول زوجها ان يتبعها للجلوس بجانبها امرته بأن يجلس بجانب السائق وهي تأمر «مصطفى» السائق ان يمضي بهما الى.. «كان»!

وفي الطريق دار بينهما الحوار التالي.

قال لها بلا مقدمات لماذا لا يضعان قواعد جديدة لحياتهما الزوجية بحيث يترك كل واحد منهما للآخر حرية العيش وحرية التصرف على الوجه الذي يريده.؟ مستحيل لماذا؟ لماذا لا نحاول؟

وأجابته: هل تعني انك ستسمح لي بعد اليوم بالسهر والرقص والبحث عن الرجل الذي يعجبني مقابل ان اتركك تمضي في خداعك لي وتعيش مع عشيقتك السكرتيرة الاسبانية!

قال وصوته كعادته خافتاً ومؤدباً:

ـ انا ليس لي عشيقة! وقصة السكرتيرة مجرد افتراء!

قالت: أنت مدين لي بكل شيء. انا خلقتك من العدم. انا اخترتك لكي تكون سكرتيراً لي او مرافقاً في رحلاتي.. أليس كذلك؟

فقاطعها قائلا .
- ولكنني اصبحت زوجك! ولا يحق للزوجة ان تعامل زوجها وكأنه مرافقها أو سكرتيرها!
قالت: انت بدوني لم تكن شيئاً! انا وحدي فتحتُ لك ابواب العمل وضمنت لك النجاح والثروة.!
اجابها: ولكني مدين ايضاً لجهدي ولكفاءتي ولقدرتي في العمل! إن شقيقك هو اول من يشهد لي بذلك!
قالت: ان شقيقي هو عقدتك النفسية الكبرى! انك تحاول أن تقلده وان تجاريه وأن تلبس كما يلبس وتنفق كما ينفق وتسهر كما يسهر. لماذا لا تترك اهلي في حالهم؟ لماذا تزجّ بأنفك في شؤونهم؟ لماذا لا تحاول ان تكون نفسك فقط؟ إنني لا أتصل بأحد من افراد عائلتك فلماذا تصرّ على الاتصال بأفراد عائلتي!؟
اجابها:
- إن ظروف العمل هي التي ترغمني على الاتصال بشقيقك!
قالت: ولكنه لا يريد منك ان تتصل به مطلقاً!
قال: هل تسمحين لي بأن اسأله في هذا الموضوع؟
قالت: وهل تريد أن تقول بأنك لا تُصدق كلامي؟! انا لا اسمح لأمثالك بالشك في صحة كلمة واحدة من أقوالي! ان الرجل الكاذب لا يحق له ان يطعن في صدق الزوجة! وانت رجل كاذب! لقد أقسمتَ لشقيقي وبخط يدك أن لا تخونني، ثم خنتني! وأقسمتَ خطياً بأن ليس في حياتك أي امرأة. ثم تبين للناس ان في حياتك السكرتيرة الاسبانية التي كانت تعمل معك في مكتب شقيقي بمدريد! ثم اقسمت لي ولشقيقي وعلى مسمع ومرأى من «فلان» وكتبتَ بخط يدك ان تراعي ظروفي وتخدم صحتي، وتخلص لي، وتلازمني بكل أمانة ووفاء واستقامة، واذ بك تتركني وحيدة للامراض والعلل وللعمليات الجراحية وتطير بين القارات الخمس بحثاً عن المال والوجاهة والمتعة والحرية! إنك آخر من يحق له التحدث عن الكلام الصادق أو الشك في كلام الآخرين! انت آخر من يحق له التغني بالاخلاق الحميدة او التحدث عن معاني الوفاء والولاء! انت رجل بلا

حافز ولا ضمير. وانا أريد ان انهي علاقتي بك.. فوراً!

الى هنا، وكانت سيارة الرولز المتجهة الى «كان»، قد خرجت من حدود بلدية «مونت كارلو»، ووصلت الى ناصية الشارع الذي يقوم على جانبه الايمن كاراج كبير يبيع البنزين.. وقطع الشوكولاته.. ودفاتر.. وأوراق.. وطوابع بريد.. وسجائر!

وصرخت «سميحة» وهي تدق على كتف السائق من الخلف.

ـ قف عندك يا مصطفى!

ووقف «مصطفى» امام الكاراج الكبير! وقالت له «سميحة» ان ينزل ويشتري لها من داخل الكاراج دفتراً كبيراً يحتوي على أوراق تصلح لكتابة الرسائل

وعندما عاد «مصطفى» وبيده الدفتر المطلوب، جلس وراء مقود السيارة وهو ينتظر أوامر سيدته فسمع صوتها تأمره بأن يكمل الرحلة الى «كان»..!

ولم تكد السيارة تقطع مائة متر، حتى قالت «سميحة» لزوجها تسأله وهو ما زال في مقعده بجوار السائق، وبكل سخرية:

ـ هل معك قلم حبر يا باشمهندس؟

وعندما أجابها بالإيجاب، قالت له وهي ترمي بالدفتر من الخلف لكي يسقط بين رجليه

ـ اكتب يا استاذ هذا الكلام الذي سأمليه عليك الآن. هل تسمعني؟ خذ قلمك واكتب. اكتب.. انا فلان الفلاني قد طلقت زوجتي فلانة بنت فلان طلاقاً مبرماً لا نكوص فيه ولا رجعة عنه، وقد برأتها من جميع التزاماتها المالية وليس لدي ما أدعي به عليها، والله على ما أقول شهيد!

وكتب الزوج ما أمرته به زوجته وعندما توقف عن الكتابة، طلبت منه ان يعطي الورقة المكتوبة الى السائق «مصطفى» لكي يشهد عليها بتوقيعه. وبعد ان وضع «مصطفى» توقيعه على ورقة الطلاق، وكان قد توقف لحظة عن قيادة السيارة، ثم عاد اليها لكي يستأنف الرحلة، سمع صوت الزوجة تقول له وكأنها تصرخ به أن يوقف السيارة:

ـ انتظر يا مصطفى!

ثم دقت على كتف زوجها الجالس في المقعد الأمامي وقالت له بلهجة الأمر

ـ اسمع يا استاذ! الآن عليك أن تفتح الباب الذي يقع على يسارك، وان تنزل من السيارة، عفواً، اعني ان تنزل من سيارتي وتكمل رحلتك الى «كان» مشياً على قدميك او وراء راكب موتوسيكل.!

وكالرجل المذهول الفاقد الوعي، مدّ الزوج يده الى الباب المجاور له، وفتحه، ونزل من السيارة وهو يكاد لا يصدق ما سمع وما رأى وما جرى له !

وعندئذ، قالت «سميحة» للسائق مصطفى، ان يكمل المشوار الى مدينة «كان»!

وجاءت الضربة الخامسة..

فقد ظنت «سميحة» ان شقيقها عندما يبلغه خبر الطلاق سيأمر بطرد زوجها السابق من جميع شركاته ويرمي به من فوق عمارته بالدور السادس والأربعين في الشارع الخامس بمدينة نيويورك!

ولم تكن تعلم أن رجال الأعمال، وخاصة أصحاب المليارات منهم، انما يعيشون بلا قلوب ولا عواطف، وان إرتباطاتهم في العمل وجنيْ الأرباح تفوق في أهميتها كل وشائج القربى وكل صلات الدم المشترك مع أقاربهم أو شقيقاتهم!

وبقي الشقيق الملياردير يتعامل مع صهره السابق في السر، بعد ان كان يلتقي به ويتعامل معه في العلانية! فقد طلبت منه «سميحة» أن يطرد هذا الزوج الخائن. ولكنه رفض! وطلبت منه أن يأمره بتسديد ديونه المستحقة لزوجته وشريكته السابقة. ولكنه رفض! وطلبت منه أن يأخذ منه مكتبه الذي يجلس فيه بالعاصمة الاسبانية، ولكنه رفض! وقالت لي «سميحة» انها ستكتب لشقيقها رسالة تطلب منه فيها ان يختار بين حلّين: إما أن ينفذ طلباتها وينتقم لها من مطلقها، واما أنها ستنتحر بعد ان تكتب رسالة وتنشرها في مجلتها «تضع فيها مسؤولية الانتحار على شقيقها المذكور بالذات!»

وكانت الضربة السادسة!

فلا شقيقها اكترث لرسالتها، ولا مطلقها إبتعد عن شريكه «الملياردير» ولا هي انتحرت!

وقالت لي انها ستسافر الى «المملكة» وتشكو شقيقها لملك بلدها؟! ولكنها عدلت عن السفر عندما قيل لها ان أمامها المحاكم والقضاء للفصل في مثل هذه الأمور..

وبعد اقل من عام واحد، اعلن الزوج السابق موعد زواجه الجديد من سكرتيرته الاسبانية الحسناء، ووزع بطاقات الدعوة.

وقررت «سميحة» ان ترد على هذا التحدي عمليا، وذلك بأن تروي بقلمها قصتها مع زوجها المذكور وتنشرها في مجلتها النسائية المعروفة.

وفي ذلك الشهر، شهر يناير، من عام ١٩٨٥، صدرت مجلة نسائية «شرقية» عربية وبداخلها قصة مثيرة بعنوان «الزائر» بقلم «سميحة رئيسة التحرير»، تقول فيها عن زوجها الذي طلقته، وبالحرف الواحد.

«.. رأت فيه شعاعاً يمكن أن يضيء لو أمتدت اليه يد المساعدة، فقد وجدت انه لا ينقصه الذكاء واللباقة ولكن تنقصه الثقة بالنفس! وقررت ان تقف الى جانبه وتؤكد فيه الثقة وتوقظ فيه العزيمة وتحيي فيه الامل وتدفع فيه المقدرة والطموح! وتغيرت حياته خلال اعوام قليلة! واستطاع ان يخرج من القوقعة التي كان حبيساً بداخلها.. وتم الزواج وعاشت في سعادة وهناء فترة من الزمن لدرجة تصورت معها ان الزمان قد غفل عنها.. ولكنها عندما امتدت اليها يد لتهزها أفاقت على الصدمة المروّعة.. لقد أغمضت عينيها فلم تشاهد حقيقة ما يجري حولها.. كان الحب «وسيلة». وكان الأمان ستاراً يسدله أمام عينيها حتى لا تدري حقيقة ما يجري من وراء هذا الستار، وعندما انتهى من عملية الاستيلاء على كل ما لديها من اموال وجواهر كان أول ما فكر فيه ان يحطم الرابطة الزوجية بعنف وقسوة.. لم يكن هذا العنف في صدامه معها، وانما كان عنفه وقسوته في ان تدرك من تصرفاته المعلنة والصريحة انه قد اهان أنوثتها وانه قد انصرف عنها الى غيرها.!»

ثم تقول له في مكان آخر من مقالاتها وقصصها

«.. إن ابشع ما في الظلم ان يقع من إنسان نجده بدلًا من ان يُقبّل

اليد التي امتدت اليه بالإحسان والمعاونة، ينحني عليها لكي يعضّها.!»

ثم تقول له:

«.. إن الانسان الذي يقع عليه الظلم، يجب ان يُسلّم امره لله وهو على يقين من انه لا يمكن ان يمضي المظلوم من هذه الحياة قبل ان يشهد مصرع ظالمه..»

وبعد فترة من الزمن لم تزد عن شهرين كتبت تقول له في احدى مقالاتها:

«.. ليس صحيحاً ان الانسان الذي يعيش بلا قلب، وبالتالي بلا صدق يمكن ان يجني كثيراً من ثمار السعادة، حتى ولو كانت أموال الدنيا كلها بين يديه وتحت قدميه.. ذلك انه عندما يفقد قلبه فانه يفقد إنسانيته، بل انه يفقد آدميته، ومن ثم فلا يبقى منه شيء..»!

ثم تصرخ به قائلة وكأنها الأم التي تنصح

«.. الحب يُضيف الى شبابك سنوات والى رصيدك صداقات، اما الحقد فانه يأكل صاحبه قبل ان يأكل الآخرين..»

ثم راحت تدعو الله ان ينتقم لها منه، فتقول

«.. اللهم اجعلني من اصحاب العمل الطيب، والقول الصالح، والقلب النظيف، اما أصحاب السيئات فأنت الذي تجازي كل انسان بعمله، وانت وحدك صاحب العدل، يا رب!..»

.. وايضاً ها هي تدعوه لكي يعود الى حبه الاول لها وأن يخاف ربه.

«.. قد يرى بعض الناس ان الحب شيء صغير يجوز مبادلته بأشياء أكبر وأهم مثل الثراء والشهرة والمتعة، ولكنهم لن يلبثوا ان يكتشفوا انهم قد أضاعوا أجمل وأروع وأهم ما في حياة الانسان من أجل أوهام كاذبة أو من اجل احلام زائفة! وأهم من ذلك أن الذي تعوّد ان يزرع الحب لا يمكن ان يخون ولا يستطيع ان يحقد ولا يقدر ان يخدع! ومن يزرع خيراً فلا يجني الا خيراً، ومن يزرع شراً فلا يلومن الا نفسه عندما يجني حصاد الشرور مضاعفة! ومن كان الله في قلبه فلا تخف منه، ومن كان الله في عقله فلا تخف عليه، ومن كان الله معه، فمن عليه.؟!»

ولكن صاحبنا لم يقرأ ولم يكترث ولم يرد ولم يعد اليها.!

عندئذ، قررت «بنت الصحراء»، ان تكون اكثر جرأة وان تكتب أكثر وضوحاً وأن تسمي الأشياء بأسمائها، فراحت في قصتها «الزائر» تقول عنه

«.. لقد اتخذ «منها» سُلّماً يصعد فوقه الى أهدافه وطموحاته.! لقد اكتشفت ذات مرة وهي تعبر الردهة الى غرفة مكتبها أنه على علاقة باحدى فتيات السكرتيرية.. علاقة تسمح له بأن يمد يده لكي يربت على خد السكرتيرة وهو يغمز بعينه. فتجاهلت ذلك ولكنها في نفس اللحظة اتخذت قراراً بأن لا تدعه يكون أكثر مما هو فيه الآن.. حتى ولو قدّر لحياتها ان تستمر، فإنها لن تتيح لمثله ان يحقق ما يريد على حساب حبها وعلى حساب غفلتها..»

ثم تعود لكي تذكّره بفضلها عليه فتقول على صفحات مجلتها الشهيرة

«.. نسي انه لولاها ولولا عملها ما كان هو في هذه الحياة التي يعيشها الآن، والتي يرفل في نعيمها وخيراتها! نسي انه لم يعطها الإحساس بالأمان حتى تفكر في ان تضحي بكل شيء من اجل الرجل الذي تحبه! لقد وصلت به الأمور الى ان يدسّ لها شخصيا في الشركة سواء بالنسبة لمن تعمل معهم او بالنسبة للمركز الرئيسي! وفي الوقت المناسب وضعت يدها على كل شيء في مجال العمل. طردت فتاة السكرتيرية التي عرّت موقفها وموقف زوجها امام كل الموظفين..!»

ثم تصف «سميحة» مواقف الاصطدام بينها وبين زوجها فتقول في قصتها «الزائر».

«... قالت له بنفس اللهجة الحادة: أرجوك ان تخرج من بيتي فانني لم أعد اتصوّر لك مكاناً فيه بعد اليوم! فأجابها بنفس الرقة الزائفة. ما هذا الذي تقولينه يا حبيبتي؟؟ لا بد انك متعبة! استريحي الآن وسوف نتحدث في المساء! فقالت له. «لن استريح ابداً حتى تخرج من هذا البيت!» عندئذ بدأ الخوف يتسلل الى قلبه. هل جاء الوقت الذي يجب عليه ان يخرج فيه مطروداً من الجنة لأنه لم يكن أميناً ولم يكن صادقاً ولم يكن مخلصاً؟ لقد كان امامه طريق النور ولكنه القى بذلك من وراء

ظهره، واتجهت عيناه الى الثمرة المحرّمة! ان تكوينه هو الذي يفرض عليه هذا الاتجاه! ان هناك نماذج تفضل ان تأكل ما يتناثر من الموائد على ان تجلس الى المائدة وتأكل أطايب الطعام! ابداً، لن تفتح ابواب قلبها امامه من جديد فقد اعطته ألف فرصة وفرصة ومن المؤكد ان مثله لن يتغير ابداً! لقد تأكد لديها ان الطبع يغلب التطبّع، ومثله لا تفيد فيه نصيحة ولا تنفعه موعظة او عبرة!..»

ثم ها هي تصفه بكلمات جارحة فتقول عنه

«.. في الصباح كان «عبد المجيد» ـ وهذا هو الاسم المستعار الذي أطلقته «سميحة» على زوجها السابق في قصتها بعنوان «الزائر» ـ قد ارتدى وجهاً آخر. لقد استعاد تلك الصورة الطيبة التي كان يظهر بها احياناً وكأنها قناع يرتديه ليخدع به الآخرين..!»

ثم تقول عنه وهي تصف قرار طردها له من بيتها

« . لقد اصبح عليه ان يعود من حيث جاء! وهذا هو الوقت الذي يجب عليه ان يفعل. انه وقت لم يتوقعه ولم يختره. ولذا فقد أصابه الارتباك وأخفض رأسه وهو يقول لها · «سأفعل كل ما تأمرين به، سأحمل ملابسي وأخرج..»

« .. قالت: بل تخرج فوراً وسوف أرسل اليك ملابسك حيث تكون! قال بلهجة الاعتذار والخنوع: عيب يا «صابرين» ـ و «صابرين» هو الاسم الذي اعطته «سميحة» لنفسها في قصتها بعنوان «الزائر» ـ ارجوك يا «صابرين»! لا يجوز لمثلك أن تستخدم مثل هذا الاسلوب انت؟»

«.... ورفضت ان ترى انهياره، فتركته في وقفته، وذهبت الى غرفتها ثم اكتشفت فيما بعد انه قد قضى الساعات في جمع كل الأشياء الثمينة التي يمكن ان يأخذها معه والتي يستطيع ان يستفيد بها في المستقبل! لقد جرّب حياة من نوع جديد وعاش فيها بضع سنين ولم يعد على استعداد لأن يتراجع ويرتد الى ما كان فيه من قبل ان تتزوجه!!»

وهكذا قالت «سميحة» كل ما كانت تتمنى ان تقوله عن زوجها الذي سمح لنفسه ان يدوس انوثتها ويطعن كرامتها ويخونها مع احدى بنات السكرتيرية، ثم يتزوجها!

ولكن ذلك كله، كل القصص، وكل المواعظ، وكل الحكم، وكل الكلام المر والكلام الحلو، لم يؤثر قيد أنمله على زوجها الشاب الذي كان قد تزوج من فتاته وخرج نهائياً من حياة «سميحة» ولن يفكر بالعودة اليها! لقد حمل لي هذا الزوج ذات يوم نسخاً من «المجلة» التي كانت زوجته السابقة ـ «سميحة» ـ تنشر فيها قصصها عنه وتملؤها بالطعن فيه وتذكّره بماضيه «البسيط» وكيف انها أنقذته من «الوحل»، وجاءت به من «الرصيف»، وخلقته من لا شيء، ومنحته الشهرة والمال والإسم والسعادة فقابلها بالجحود والكفر، وقال لي وهو يبتسم بكل هدوء

ـ هل قرأت قصة «سميحة» عن حياتي معها.؟

وعندما اجبته بالإيجاب، سألني

ـ وهل يجوز لها ان تكتب مثل هذا الكلام الرخيص عني؟

ولم اجب.!

فقد كنت اعلم ان «سميحة» بقيت تحب زوجها الشاب حتى النهاية! وكنت أعلم ان خيبة أملها في الحصول على أية مساعدة معنوية أو عطف ادبي من شقيقها «الملياردير» قد جعلها تضاعف من حبها لذلك الزوج وتتمنى ان تعود اليه! وكنتُ أعلم أنها كانت تظن بأن زواج ذلك الشاب من السكرتيرة الاسبانية لن يُعمّر طويلاً، وأنه سيُعلن طلاقه منها بعد مضي وقت قصير وكنت اعلم كذلك انها تقضي الساعات الطوال وهي جالسة بجانب جهاز التلفون في منزلها بالقاهرة بانتظار ان يدق الجرس وتسمع صوت مطلقها وهو يزف اليها بشرى طلاقه من زوجته الاسبانية وعودته اليها..!

هكذا كانت «سميحة» تعيش في الأوهام والخيالات! هكذا كانت تفهم حدود الزواج والطلاق! هكذا كانت تؤمن بالحب وبمعجزاته! هكذا كانت دوماً تعيش في الحسابات الخاطئة فتتلقى الضربات بلا انقطاع. اجل! لقد دق جرس التلفون ـ فعلاً ـ في شقتها بمصر، وكان المتحدث يحمل اليها خبراً ليس فيه من السلوى لها، بقدر ما كان فيه من الشجن والألم والعذاب! لقد كانت تنتظر من يقول لها بأن زوجها السابق قد طلق زوجته واذا بالمتحدث يخبرها ان الزوجة الاسبانية تنتظر من ذلك الزوج

الشاب، مولوداً في الربيع المقبل!

وانهارت سميحة.!

وتأكدت بأن زوجها الذي حطم حياتها لن يعود اليها.. وان شقيقها «المليارديرِ»، لن يقف معها أو يؤيدها ضد ذلك الزوج المستهتر اللعوب، وان الضربات الست التي انهمرت فوق رأسها خلال السنوات الست الماضية قد قضت عليها نهائيا!

وقيل انها انتحرت.؟.

وقيل ان شريانا في رأسها قد انفجر قبيل منتصف الليل!

وقيل ان آثار عملية جراحية حديثة أجرتها في وجهها قد انفجرت، وقضت عليها بعد نزيف حاد مفاجيء!

وكما عاشت ضائعة بين وطنها وغربتها، وبين طموحها وامكاناتها، وبين زوجها وشقيقها، وبين ما هي فيه وما تتمنى ان تصبح وتكون، وبين قلبها وعقلها، وبين شخصيتها الصحافية ودورها كسيدة أعمال... كذلك انهت حياتها في ضياع وشكوك وألف سؤال وسؤال؟

وكأنّ قرّاء مجلتها «السبعون ألفاً»، قد اعتذروا عن الاشتراك في تشييع جثمانها الى مقره الأخير، فلم يظهر منهم في ذلك اليوم اكثر من «سبعين» شخص فقط لم يكن من بينهم ابنها، ولا زوجها الأخير، ولا معظم أشقائها..!

لقد أرادت «سميحة» ان تكون الشمعة التي تبعث النور في كل بيت من بيوت الشرق الاوسط، ولكنها فشلت في ان تمنع الظلام من ان يخيم على منزلها، وعلى حياتها!

وماتت وهي تسأل عن الطبيب.. أين الطبيب؟؟ أين الطبيب؟

ولفظت أنفاسها وخادمها السوداني الوحيد في البيت يكرر جوابه على سؤالها ويقول لها وهي تغمض عينيها وتدخل في النزع الاخير:

ـ الدكتور زمانه جاي يا ستي! زمانه جاي!

التاسعة

الوطنية جنون.. وجنان!

متى يكــون العمــر كله.. وطن؟ ومتى يتحــوّل الحب كله الى وطن، ويصبح الأمل كله هو الوطن، ويذوب معنى البيت، والزوج، والولد، في معنى الوطن؟

ومتى تصغر الدنيا في عيني من لا وطن له، فلا يقدر ان يرى شيئاً، ولا يقدر ان يحس شيئاً، ولا يقدر ان يكسب شيئاً أو يخسر شيئاً او يفرح لشيء او يحزن لشيء او يعيش لشيء، او يموت من أجل شيء إلا... لوطنه وبوطنه؟

ومتى؟

متى يصبح مقياس الحب هو نفسه مقياس الوطنية، ويصبح الحبيب المطلوب هو الوطني المطلوب، ويصبح الزوج الأمثل هو الوطني الأمثل، وتتحول الاسرة في عين المرأة الى كتيبة جنود، ويصبح المنزل في خيال الأم ميدان حرب ؟!

ومتى.؟

متى تتضاءل كنوز الدنيا أمام الزوجة فتتحول عندها الى صيحات ثأر، وتنكمش اموال قارون أمام الانسان لكي تصبح عنده أنّات شعب وتتســاوى قصــور الخلفــاء والســلاطين مع خيــام المشردين، وتتحول الطائرات الخاصة او اليخوت المذهبة الى كهوف صخرية خالية الا من الكرامة، وخاوية إلّا من الإيمان، وفقيرة إلا من غنى النفس!؟

متى.؟ متى؟

إنها الساعة التي يفقد فيها المرء وطنه فيضيع المرء ويضيع الوطن معاً..!

إنهــا ساعة الهجرة، او «الخروج»، او عبور النهر الى المجهول، أو

ركوب السفن الى التشرد، او افتقاد الأهل والأصول والجذور حيث لا أهل ولا أصول، ولا جذور!

هكذا بالضبط، ما جرى معها..

إنها بنت بلدي.! جزء من اهلي! بعض قضيتي وبعض نكبتي!

فيها من «الناصرة» صفاء الناصري، وفيها من «رام الله»، شموخ الجبل، وفيها من القدس ألف مسحة وألف قبلة تركها لها ألف نبيّ وألف رسول وألف خليفة وألف وليّ وصالح ومُبشر على مدى الألفي سنة الماضية، فعمّرت روحها بالقبلات السماوية، وغمرت قلبها بالتحيات الرسولية، وملأت نفسها بأنفاس الأولياء، وتنعمت بالدروس الغالية، والتعاليم الصادقة وأصبحت تتيه فخراً بأصالة الوطن، وتمشي كالملكات في مواكب العزّ!

إنها بنت وطني.!

وبنات وطني لسن كبقية البنات! ان كل واحدة منهن أسطورة من الأساطير، تتنقل كالماء، وكالهواء، وتنتشر كالكلام المتداول بين الشيوخ والاطفال، وتعيش على ألسنة الأمهات في ليالي الشتاء، ويسمع عنها كل الناس، ويحفظ اخبارها كل البشر، ولكن أحداً لا يقرأ عنها حرفاً، ولا يبصر لها صورة، ولا يراها مكتوبة في ورق ملوّن، ولا يتمتع بأخبارها منشورة على شكل روايات، لأن الأسطورة ألتي تروي قصة شخص او قصة مكان بدأت في الأصل مجرد شائعة عن قديس يأتي بالمعجزات، أو عن شخص يقوم بما هو فوق طاقة الانسان، او عن ظاهرة طبيعية وعجيبة لا يملك في تفسيرها بشر، وهذا هو سر بقائها في نطاق الاسطورة التي تنأى بجوهرها عن ان تتحول الى واقع، وترفض لخيالها السماوي ان ينحط الى مستوى الأرض.!

و «بنت بلدي» الأسطورة، عاشت مثل هذا النوع من الأساطير! وهي كما ولدت، بقيت مُلك المكان الذي أبصرت فوق ترابه النور. لقد رحلت وتغربت وتعذبت وتشردت، وبقيت اسطورة ناصرية ومقدسية! وحملت الف جنسية من ألف بلد، وبقيت كما أرادت، مجرد فلاحة من قرى بلدها! وعاشت في ألف جوّ ومع ألف دوّارة وداخل ألف زوبعة وبركان،

واستمرت تنطق «القاف» بلهجة «الناصريين» وتنطق «الألف» بعذوبة أهل «رام الله» وتحب اكلة «المُسخّن» وتشتهي طبق الخروف المحشي بالرز، وتحن الى جلسة مع الأهل تحت أشجار الصنوبر عند ساعات الغروب!

الله الله يا اسطورة بلدي كم فيك من خيال الأساطير ومن جمالها ومن وفرة احداثها وكثرة مفاجآتها! هل صحيح أنك ولدت في «الناصرة» وترعرعت في «بيت لحم»، على عكس ما نعرفه عن «الناصري» الذي ولد في بيت لحم وترعرع في الناصرة؟؟ إن المسيحي القديم الدي كان اسمه «الناصري» او اليهودي المسيحي الذي كان يرى في عيسى بن مريم شخص «المسيح»، كان كل منهما يستمد روحانيته، ويتنسّم صفاءه، وينشد قوته من أرض «الناصرة» ومن هوائها! كانت «الناصرة» أقل شأنا وأصغر مقاماً من أن ينتسب اليها او يحمل أسمها أي كبير! الى أن جاءها «الناصري».. فكبرت به، وعظم بها وتلاشت الأسطورة القائلة «بأن الناصرة لا تنبت الرجال». تماماً، كما سقطت ـ من بعدها ـ الكذبة الشائعة بأن الناصرة لا تنبت.. «النساء»! لقد استحقت بنت الناصرة لقب «السيدة» الناصرية! وقبلها، استحقت الامبراطورة «مود» او «ماتيلدا» ابنة هنري الأول ملك انجلترا وزوجة هنري الخامس الالماني لقب «سيدة انجلترا وسيدة النورماندي!» وعندما عاشت هذه «الناصرية» بضع سنوات من حياتها على شواطىء بحيرة «ليمان» في سويسرا، كان الناس من اهلها ومن اصدقائها يتذكرون تلك الاسطورة التاريخية عن «سيدة البحيرة» التي عاشت وسط الامواج محاطة بالحراس والخدم والفرسان، ويتغنى بها في شعره السير «وولتر سكوت»..!

ترى لماذا أستبق الاحداث، ولماذا لا أروي القصة من اولها؟

كانت الناصرة هي بلدة «أمها»، ولكن الطفلة التي لم تحب حياة الناصرة ولم تطق البقاء فيها قد بدأت تثور على نفسها وعلى من حولها. وكان طبيعياً ان يبدأ الصراع العائلي بين طبيعة الابوين من جهة، وطبيعة الطفلة المتمردة من جهة اخرى. وحتى اواسط الخمسينات استمر هذا الصراع العائلي بينهم مما دفع المسؤولين عن مدرسة «الطفلة» ـ وقد

كبرت وأصبحت في العاشرة من عمرها ـ الى ادخالها في مدرسة «رهبانية» ألمانية في القدس مشهورة بأنظمتها القاسية وقوانينها الصارمة.. لعل وعسى؟!

وقالت لي وهي تصف حياتها في تلك الفترة:

ـ كانت هذه المدرسة بمثابة نقطة التحول في حياتي! لقد وجدتُ فيها الفرصة الذهبية لكي أعرف حقيقة نفسي، وأستغل كل ما كنت أملكه من ميول وذكاء ومقدرة، فقد كنت أحب العمل وأحب الانتاج وأحب الاكل الطيب وأحب حياة الراهبات! وقد اعطتني حياتي هناك فرصة لكي أنسى رواسب المرارة التي ذقتها خلال حياتي مع أبي والذي كان مدمناً لأنواع من الملذات الجانبية التي أرهقت صحته بالمرض وأرهقت جيبه بالفقر وأرهقت أفراد عائلته بالديون والمشاحنات! وكانت أمي تصبر على الأسى ولا تضج بالشكوى. وكنت انصحها ـ رغم سني المبكرة ـ بأن عليها ان لا تدع أي رجل ـ حتى ولو كان هذا الرجل هو زوجها ـ ان يستبد بها أو يقسو عليها أو يسرق منها شخصيتها أو يستغل طيبة قلبها! كنت اشعر بأن الزوجة الطيبة هبة من السماء ولا حق للزوج بأن يعتدي عليها من خلال ان يترك شروره تنتصر على عنصرها الأصيل أو طبعها الخيِّر. لعل مثل هذا الشعور الانثوي قد لازمني طيلة سنوات عمري فسمح لي بأن لا أرضخ لأرادة شرّ مصدرها أي رجل، ولا أنحني أمام جبروت رجل حتى ولو كان زوجي، ولا اسمح للفساد أن يتغلب على ضعفي كامرأة! ولعل هذا بالذات ما جعلني أتزوج لأكثر من مرة، وأبدل منزل الزوجية هرباً من أنانية الرجل وتسلطه! لقد قلتُ لأمي وأنا ما زلتُ دون السابعة بأنني لن أسمح لشيء اسمه الحب أو الزواج او البيت او «العِشرة» بأن يحطم شخصيتي أو يسلمني لارادة غيري. وبقيتُ مع حياة الراهبات الى ان اشترى عمي الموجود في اميركا فندقاً في مدينة «رام الله» وطلب من والدي ان يتصرف بأدارته فقرر الوالد ان يترك «الناصرة» وان يأخذنا معه الى مدينة رام الله..!

واستمرت تقول لي وهي تفتح صفحة اخرى في دفتر عمرها:

«... كانت «رام الله» شيئاً جديداً بالنسبة لي. لقد نسيتُ فيها قسوة

«النـاصرة» لكي انعم برفاهية هذه البلدة الهانئة. الناس في «رام الله» يسهرون وينظمون الشعر ويطلقون النكات ويضحكون ويكسبون كثيراً! حتى طبيعة أبي تغيرت! لقد اكتسب من خلال عمله الجديد ثقافة جديدة بدّلت كثـيرا من شخصيته ومن طباعه. وحياتي في فندق أبي أعطتني الراحـة والرفـاهيـة وسهـولة العيش. الخـدم كانوا حولنا بالعشرات! والضيـوف معنـا بلا انقطاع.. والحفلات مستمرة. وأدخلوني مدرسة «الفـرنـدز» المجاورة لمنزلنا وللفندق. وخلال فقرة وجيزة استطعتُ أن أصبح نجمة المدرسة في ميدان الرياضة والخطابة والحفلات! ولبستُ الشورت! وتسللتُ الى حقول «المشمش» و «العنب» لكي أقطف الثمر من على الشجـر المتـرامي أمامي بلا حارس ولا رقيب! وركبتُ البسكليت! وأصبح اسمي على لسان الناس محاطاً بألف تقدير وألف محبة وألف سؤال! وشعر الاهل من خلال تصرفاتي بأنهم أمام فتاة طيبة بقدر ما هي متحررة، وأن ابنتهم جريئة بقدر ما هي صادقة، وأن في عروقي الكثير من دمـاء النقمـة والثـورة والانطلاق، بقدر ما في دمي الكثير من الصفاء والامانة والاعتزاز بالنفس والتمسك.. بالأرض وبالشرف وبفلسطين!..»

وبعد دقيقة من الصمت، قالت وقد تبدلت نبرة صوتها من الفرح كله الى الألم كله والى الحزن كُله:

ـ وفجأة سقط كل شيء عندما تلاشى العمل في الفندق واختفى الزبائن وانصرف أبي الى ممارسة هواياته القديمة التي سبق لها وأرهقت صحته بالمرض وأرهقت جيبه بالفقر وأرهقت افراد عائلته بالديون والمشاحنات! وبدأنا نمر في أزمة مالية لا ترحم. وعجزت أمي عن ان تشتري لي الفستان الذي اعتدتُ أن ألبسه في المدرسة فرحت اصنعه بيدي وأجمع أطرافه بالإبرة والخيط تحت ضوء سراج «الكاز» في ليالي الشتاء الباردة! وكنت رغم ذلك أحـلى البنـات شكلاً وأناقة! والتحقت بمدرسة خاصة لتعليم الخيـاطة. كما التحقت بمنظمة سياسية سرية كان رئيسها الاعلى على صلة الود والقربى مع بعض أفراد عائلتي. وتجزأت طاقاتي بين البحث عن لقمة العيش، بشرف، وبين البحث عن شرف الوطن الضائع، بسرية ونظام وتصميم.. وذكاء!

وقبل ان تسترسل في كلامها سمعتها تسألني قائلة لي:

ـ ولماذا لا تسألني ماذا جرى بعد ذلك.؟

ولم اسألها! بل تركتها ترد بنفسها على سؤالها وتقول لي:

ـ وفجأة، جاءت حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، ودخل الجيش الاسرائيلي الى أطراف «رام الله». وعلى الفور حملتُ حقيبتي وركبت حماراً كنا نملكه ونتركه في حديقة الفندق، وغادرت أهلي ومنزلي باتجاه «أريحا» للوصول الى الاردن.!

وعادت تردد روايتها وتقول بأصرار:

ـ نعم ! ركبت الحمار وورائي حقيبتي والساعة تقارب الخامسة صباحاً، وشمس حزيران (يونيو) توشك ان تظهر في الافق واتجهتُ صوب «القدس» ومنها الى «الغور».. فالنهر.. فالنزوح فالغربة فالتشرد.. والضياع.!

وهنا، بدأ الحديث يأخذ شكل الأساطير، وبدأت الاسماء تختفي وتحل محلها الألغاز؟ ولم تعد محدثتي تسمح لي بالسؤال عن التفاصيل الدقيقة المتعلقة بمجرى الأحداث. هكذا هي حال الاساطير. احاديثها مأخوذة عنها! في «الحديث» الاسطورة كثير من «الانسانة» الاسطورة! وما ألذ حديث الاساطير عندما تكون صاحبتها اسطورة مثلها.! لقد أصبح كلامها يتّسم بالأحاجي، وأصبح ضمير المتكلم او ضمير الغائب يحل محل اسم الاول ولقب الثاني.! «هو؟ أنا!. هم؟. هي.!» لا بأس لولا أني سألتها: «وماذا جرى «للاسطورة» بعد وصولها الى «عمان» قادمة من بقية ارضها، وبقية وطنها؟ ومن لها في عمّان؟ وماذ كان بعد عمّان؟ والى أين مضت «الأسطورة».؟ الى اين؟»

قالت: ولم يكن في جيبي بعد وصولي الى «عمان» سوى مائة دولار! وكنت قد اخبرت أمي قبل فراقنا بأني أعتزم السفر الى اميركا بعد حصولي على تأشيرة الدخول من القنصلية الأميركية في عمان. فاذا تعذّر عليّ ذلك سأكمل سفري من الأردن الى بيروت وألتحق هناك بكلية التمريض الأميركية!

وسألتها وكأني اقاطعها او اقطع عليها تسلسل الحديث:

- ولكني لا أفهم لماذا كل هذه السرعة في «الهروب» من أرض الوطن ومغـادرة «رام الله» بمجـرد وصـول القـوات الإسرائيليـة الى الضفة الغربية؟؟ هل يهرب الانسان من وطنه؟!!

وبدأت علامات الحزن ترسم ذاتها فوق هذا الوجه الاسمر الجميل عنـدمـا ارادت ان توفر عليّ مشقة التفكير فقالت وبلا لف ولا دوران، وجراح أمسها مرتسمة فوق عينيها:

- لو استطعت ان أنسى نفسي، لبادر الناس الى تذكيري بها! ولو قدرت ان أدفن الشهور القليلة من عمري التي سبقت حرب حزيران (يونيو) من عام ١٩٦٧، لتبرع العشرات من اهل «رام الله» بنبش هذه الشهور وعرضها أمام الناس! ألم أقل لك بأني انتسبتُ الى منظمة سياسية سرية عندما انتسبتُ الى مدرسة لتعليم الخياطة؟ عفواً سيدي فقد كذبت عليك! انهـا لم تكن منـظمة سياسية وانما كانت منظمة ثورية، أو، إن اردت الحقيقة، كان اسمها: «منظمة فدائية لتحرير فلسطين!»

ثم قالت:

- «عمّو جورج».. هو الذي كان وراء انخراطي في صفوف الحركة! هل تعرف «عمّو جورج»... أو الدكتور «جورج»!؟ كم أنا مدينة لهذا الرجل بكل نبضة حب عشتها من أجل بلدي! انه «استاذ» قبل ان يكون فدائياً او ثورياً او زعيماً! لقد علمني من خلال الحديث والنقاش والحوار كيف أعشق تراب وطني وكيف أكره أعدائي وكيف أقوم بواجبي تجاه أهلي وكيف لا أنسى الصديق ولا أنسى العدو!؟ وقد انتشر هذا النبأ في كل مكان. وكثرت زيارات «الدكتور جورج» لمنزلنا. وفرحنا به كلنا! وكان رأينا جميعاً أننا نُنظم أنفسنا لكي لا ننسى «الناصرة» التي ضاعت، ولكي نزرع حبة الزيتون التي ستصبح شجرة وتحمل ثمراً ولو بعد عشرات السنين! ولم نشعر بأي حرج! ولم نحسب حساب أحد! البلد بلدنا! والأهل أهلنا! والمعركة - بالتالي - هي معركتنا. ورحنا ننشىء الفروع، ونُنظم القيادات، ونسجل الأسماء، ونوزع المنشورات، ثم نجلس عند وقت الغروب تحت اشجـار الزيتون في بستان الفندق نتطلع صوب الساحل البعيد حيث تتـلألأ أمـامنـا أنوار «يافا»، والنبي «روبين»، والبحر الازرق، ونجدّد

العهد، ونردّد القسم، ونترك «يافا» البعيدة أمامنا تنام في رعاية السماء بانتظار يوم اللقاء.!

ومرة اخرى، جاء دور السكوت الحزين.!

فسألتها ضاحكاً او شبه ضاحك:

ـ حدثيني.. كيف كان مشوارك على «الحمار» بين «رام الله» والنهر في ذلك اليوم الأسود؟

ولكنها، «هي»، لم تضحك! بل لعلها بكت! فقد رأيت النظرات تلمع في عينيها. وسمعت بحة الألم تستبد بصوتها. وأحسست وكأنها تنوح. وقالت بصوت خافت وذبيح:

ـ في طريق الآلام لم اكن وحدي! كان معي وحولي وأمامي عشرات الآلاف من سكان المخيمات ومعسكرات اللاجئين! وكان يومنا كيوم الحشر. وكانت أنّات الاطفال تختلط ببكاء الشيوخ! ولم نتعب من المشي. ولا من حرارة الجو. ولا من العطش. وانما تعبنا من اليأس! فقد عشنا منذ عام ١٩٤٨ حتى ١٩٦٧ ونحن نتطلع صوب شواطىء يافا ونستعد ليوم العودة. واذ بالأمل يتحطم، واذ بالعودة تتلاشى، واذ بنا نهرب شرقاً كالمنهزمين المحطمين بدلاً من أن نمشي غرباً كالمنتصرين الفاتحين والمحررين! وآه وألف آه من ذلك اليوم الذليل الذي شبعنا فيه بكاءً وتظلماً ودعاء! وآه كم استمطرنا اللعنات على العرب وعلى زعماء العرب! وآه كم تسابقنا في جر الاتهامات لكل من هو عربي! وآه كم سمحنا لمصوري صحف العالم بالتقاط صورنا ونحن «نمشي، ونبكي، ونشكو، ونحكي»، والعدسات تضيء في وجوهنا، والطائرات تُحلق فوقنا، والعرق ـ عرق العار والهزيمة ـ يتصبّب من اجسامنا، والألم يهدّنا، وغبار الطريق يلفح عيوننا، وفراق الأهل يحرق قلوبنا..

ولم تستطع ان تكمل حديثها لي...

ولم أستطع ان أسمع منها المزيد عن ذلك اليوم الاسود.

لقد راحت ترجوني بأن لا ادخل معها في التفاصيل ولا انبش لها السواد الذي مرّ، ولا اسألها عما لا طاقة لها في الاجابة عليه! فقد وصل بها المقام الى «عمّان»، وراحت الى دار القنصلية الأميركية وحصلت على

تأشيرة الدخول الى اميركا، وتبرّع أحد مواطني «رام الله» من أصدقاء والدهـا في «عمـان» واشترى لها تذكرة الطائرة الى بيروت! وطارت من الاردن الى لبنان، وراحت تبحث عن قريبة لها لكي تقيم عندها بانتظار الوصول الى قرار تحدد معه خطواتها القادمة.. والمتعثرة!

ترى: هل تحولت الى لاجئة؟؟ هل تخلّت نهائياً عن الوطن؟!

نعم! ولم يكن في ذهنها مُطلقاً ان تعود الى رام الله بعد اليوم! لم تعد رام الله بالنسبة اليها أرض الوطن، وانما اصبحت ـ بعد حرب حزيران (يـونيو) ـ ارض السجن والعذاب والقهر! إن «رام الله» لا تتسع لها، وللوجـود الإسرائيـلي معهـا! إمـا نحن وإمـا هم!... امـا سيادتنا او سيادتهم!.. إما لنا أو لهم!

وفي عمان، التقت بأحد زملائها القدامى من أيام مدرسة «الفرندز»، الذي عرّفها بدوره على الشاب «فاروق...» الذي كان في زيارة خاطفة الى بيروت يعود بعدها الى مقر عمله في احدى عواصم هذا الشرق.

وكان «فاروق» يمتّ اليها بصلة بعيدة عن طريق والدتها. وكانت تعرف اهله ويعرف اهلها. وكان طبيعياً ان يسألها عن سبب وجودها في بيروت، وعن برنامج تنقلاتها في المستقبل، كما كان طبيعياً ان تجيبه بأنها قد خرجت من أرض «الضفة» وجاءت الى بيروت في طريق سفرها الى أميركا للاقامة مع عمّها هناك!

وقال لها «فاروق» على الفور:

ـ ولماذا السفر الى اميركا؟؟ ولماذا هذه المخاطرة والذهاب الى عمك الذي قد يكون مشغولاً عنك بأهله وأعماله هناك؟ ولماذا لا تسافرين معي الى مقر عملي وتنضمين كأبنتي الى بناتي الخمس وتعيشين معنا كواحدة منّا، ولك الخيار في العمل معي بالمكتب مقابل راتب يكفل لك الحياة الهانئة والعيش الرغيد؟

وفاضت الدموع من عينيها، وراحت تجهش بالبكاء كالأطفال!

وسحبهـا «فـاروق» من يدهـا، ومشى معهـا الى اول مكتب للطيران واشترى لها بطاقة الطائرة الى ذلك البلد الأسطوري البعيد، وقال لها وهو يودعها ويشجعها:

ـ غداً نلتقي في المطار في الساعة العاشرة للسفر معاً الى حيث تنتظرك زوجتي.. وبناتها الخمس.. ومكتب للسياحة!

وسافرت إبنة «الناصرة» الى ذلك البلد الصحراوي..!

وكانت طيلة ساعات الرحلة تفكر وهي في الطائرة ببلدها وبأهلها.. وتبكي.

وقال لها «فاروق» وكان يجلس بجانبها في الطائرة:

ـ إن البلد «الصحراوي» مليء بالعقود الماسية، والجواهر الغالية.. ومن يدري فقد يكون من نصيبك ان تتزوجي شابا أسطورياً.. يهديك الخواتم المرصعة بالياقوت، ويزيّن صدرك بالاحجار الكريمة.. وتصبحين مثله، صاحبة لقب وسلطان... واسطورة!

وابتسمت «هي» رغم أنفها وأشارت الى خاتم صغير كانت تلبسه في أحد اصابعها وقالت وهي تضغط على حروف كلماتها وكأنها تكذب

ـ هذا الخاتم كان يملكه أحد «الأمراء» وقد أهداه الى والدتي التي قامت بأهدائه لي..! ولو ان الخاتم!. ولكن..! إنه..!

وفعلاً، كانت تكذب! بل لعلها كانت تحلم! بل لعلها كانت تؤكد بالوعد لنفسها بأن هناك طابوراً من الشبان الاثرياء، وأبناء الحكام، وأصحاب الالقاب، ينتظرها في المطار! وقد يخطفها أحدهم! وقد يحاول اغتصابها، ولكنها ستقاوم.! وقد يحاولون شراءها ولكنها ليست للبيع! وقد يحاولون تخويفها او الضغط عليها، ولكنها لم تعد تخاف احداً ولا يخيفها احد! لقد علمتها احداث حزيران (يونيو) ان تواجه الأسى والتعب والجوع والمرض وتنتصر عليها جميعاً! انها ذاهبة الى ذلك البلد «الصحراوي» في زيارة قصيرة، هدفها أن تجمع بعض المال لكي تشتري تذكرة الطائرة ثم تسافر الى اميركا للانضمام الى عائلة عمها. انها لم تترك هضاب «رام الله» بحثاً عن اللذات في هضاب الصحراء؟ انها ليست جائعة حياة، ولا جائعة جنس، ولا جائعة ألقاب! إن ثمن يوم واحد من ايام عمرها، يساوي مال الدنيا بأسرها. ان عليها أن تُثبت لنفسها ولأهلها وللناس من حولها أن الارض «المقدسة» لا تنبت الا القديسات... وأن الذين عايشوا

النسور في جبال «رام الله» لا يخافون ذئاب الصحراء، ولا يخدعهم بريق الذهب!

والتحقت بوظيفة في سفارة أجنبية راتبها مائتي دولار، كانت ترسل نصفها الى أمها «الأسيرة» تحت الإحتلال، وتنفق الباقي على نفسها وعلى طعامها... وثيابها... وكتبها!

وقررت ان لا تحضر سهرة واحدة، ولا تلبّي دعوة للعشاء، ولا تبقى خارج منزلها بعد غروب الشمس! وكانت صديقاتها يجئن لزيارتها في منزل «فاروق» فتحدثهن عن حرب حزيران (يونيو)، وهجرة الناس، وعذاب الشبان، واعتقال الرجال، ودعاء الأطفال، وصيحات الوطن! كانت تعيش مأتم بلدها في خارج بلدها! والبعيد عن المأتم اكثر تفجعاً به وبكاءاً عليه من الذي بداخله..!

وذات يوم، جاء لزيارتها صديق «لفاروق».. اسمه «محمد»..! وكان يحمل معه دعوة لها، «ولفاروق»، وللعائلة لحضور حفلة عشاء كان يقيمها في منزله المطل على الشاطىء بمناسبة أحد الأعياد الدينية!

وحاولت هي ان تعتذر لولا ان «فاروق» وزوجته اقنعاها بضرورة الذهاب معهما للحفل المذكور على أن لا تطول السهرة، وتكون العودة الى المنزل بعد الانتهاء من تناول طعام العشاء، مباشرة! ورضخت «الناصرية» لرغبة صديقيها، وذهبت معهما وفي سيارة فاروق الى دار «محمد».. المطلة على البحر في ذلك البلد الأسطوري!

وأحست «الناصرية» وسط الحفل بأنها امرأة غريبة لا علاقة لها بهؤلاء الناس ولا بأفراحهم ولا ببذخهم ولا بطعامهم! وانزوت في إحدى زوايا الصالون الكبير. وراحت ترقب وجوه الحاضرين من بعيد! ثم تطلعت حولها ووجدت خزانة زجاجية مملوءة رفوفها بالكتب فمدت يدها وسحبت كتابا من بينها كانت حروف عنوانه المحفورة على الغلاف بالانجليزية تقول بأنه يروي «قصص البترول وأثره على «الحضارة» في العالم!.»

وفجأة، وبينما هي مستغرقة في استعراض صفحات الكتاب، اذ بها موجودة وجهاً لوجه، أمام «الشبح الكبير» بلحمه وشحمه!

والأشباح، كما هو معروف لا علامة لها الا المفاجآت، ولا اسم لها إلا

السلطان، ولا حاجب أمامها إلا الموت، ولا رادع لها إلا الله..

«الأشباح».. كالمطر، وكالسحاب، وكالزوابع، وكالبراكين، وكالزلازل، وكالفيضانات، وكالكوارث، تأتي بلا استئذان، وتهبط على الإنسان بلا مقدمات، ولا يعرف الناس خبر مجيئها الا بعد انتهاء.. الزيارة!

و «الأشباح» «كالأساطير» تعشق المبالغة والتطرّف والتهويل في كل شيء. فصول حبها مجبولة بالحرائق. وفصول زواجها معجونة بالمفارقات! والأشباح، معروفة بجرأتها ومشهورة بكياستها، ومحمودة لقدرتها على كسب القلوب وغزو العذارى ومحاولة شراء الناس!

ورفعت «الناصرية» رأسها عن الكتاب المفتوح بين يديها لكي ترد تحية المساء على الصوت الذي بادرها بالتحية. وشعرت بهول الموقف. وتذكرت وصايا أمها لها في مثل هذه الحالات وقررت ان تجمع كل أطراف شجاعتها لكي تنتصر على نفسها أولاً، ثم تنتصر على «الشبح»، ثانياً! وسألت «الشبح»، باستخفاف عن اسمه! ولكن «الاشباح» ترفض ان تكون مجهولة عند الناس! والناس عادة لا يسألون «الاشباح» عن اسمائها! وقال لها «الشبح» ان أخبار حرب حزيران (يونيو) قد أثارت العرب، وأقلقت «المسلمين»، وأحزنت البشرية، وأنه إنما جاء في هذا الوقت اليها ـ الى «الناصرية» ـ لعلمه بأنها تقاسي في صميمها آلام هذه الحرب، وتكتوي بنيرانها، وأنه يرجو.. من صميم قلبه.. ان تكون «الناصرية».. بخير وسعادة وهناء وراحة بال!

وانتفضت «الناصرية» كمن مسّها سلك كهربائي وصرخت في وجه «الشبح»، قائلة له باستخفاف شديد وهي تسأله وكأنها تقرّعه:

ـ أنا لم أسمعك؟! نعم؟! ماذا قلت!؟ هل سألتني ان كنت مبسوطة؟؟ نعم يا سيدي أنا مبسوطة! هل تعرف لماذا؟ لأن الحرب كشفت العرب على حقيقتهم وعرّتهم أمام العالم، وأسقطت عن وجوههم القناع المزيّف وألحقت بهم الخزي والعار الى يوم القيامة! هل تريد ان تتأكد من أنني مبسوطة؟ اسمع يا سيدي قصتي في دقيقة واحدة: أنا فلاحة من الناصرة جئت مع أهلي الى «رام الله» هرباً من ذل اليهود واذ باليهود يلحقون بنا الى «رام الله» ويجعلونني أركب «الحمار» وأحمل الشنطة وأهرب الى نهر

الأردن! هل تعرف لماذا قررت ان أهرب؟ لأني كنت تلميذة فدائية لأستاذ فدائي اسمه: «الدكتور جورج..» وكان يُعلمني مع العشرات غيري كيف نتدرب كيف نحقد وكيف نقاتل وكيف نقتل وكيف ننتصر! وكنا نستعد للتسلل غرباً صوب «الحدود» مع اسرائيل لكي نؤدي واجبنا الوطني وننتقم لأهلنا الأسرى في مدينة «الناصرة». ولكن «خيبة» العرب في حرب حزيران (يونيو) جعلتنا نتسلل «شرقاً» الى الاردن هرباً من حراب اليهود! أين كنتم أنتم يا سيدي في ذلك الوقت؟ ألم يأتكم خبر هؤلاء اللاجئين المشردين الذين هربوا من معسكراتهم تحت وابل النيران الاسرائيلية في ثاني أيام الحرب؟؟ أنا كنت واحدة من بينهم! أنا ركبت «الحمار» وقضيت «١٢» ساعة تحت حرارة الشمس بلا طعام، ولا ماء، ولا ملجأ، حتى وصلت «الجسر» لأنجو من إرهاب اسرائيل! إن تلك الحرب كانت مجرد مسرحية ولكنها مكشوفة، وغير مُسلّية، وباهظة التكاليف، وسيئة الاخراج، وضعيفة التمثيل! وقد جرت العادة في مصر ان يُعبّر الجمهور عن سخطه على الرواية السخيفة او التي لا تعجبه بأن يصعد البعض الى خشبة المسرح ويعتدي على الممثلين بالضرب! من يدري يا سيدي متى سيجيء الوقت الذي سيقدر فيه شعب فلسطين ان يُعرب عن رأيه الصريح في «رواية» حرب حزيران (يونيو) ويفعل مع زعماء العرب ما اعتاد ان يفعله جمهور المسرح المصري مع الممثلين الفاشلين وفي الروايات السخيفة؟!..

وكانت «الناصرية» تتكلم بينما كانت «الأشباح» أمامها، تبتسم وتسمع ولا ترد !

واستمرت «الناصرية» تقول:

ـ لقد تركتمونا للشيطان! وحتى الشياطين كانت أرحم علينا من جيوش عربية لا تحارب، ومدافع عربية لا تضرب، وطائرات عربية لا تظهر، ووعود عربية لا تتحقق! لقد تركتمونا ـ مع مقدساتنا ـ نسقط بلا كرامة ولا شرف..! لقد ضاعت الأرض وتشرّد الأهل بلا حرب ولا دماء ولا شهداء! وكانت حرب يونيو افدح الحروب واغلاها على الفلسطينيين ولكنها كانت أرخص الحروب وأتفهها على العرب، وعند العرب! وماذا

تريدني أن أقول يا سيدي؟ انني أكاد احقد على نفسي لأنني لم أمت، فكم يكون مدى حقدي عليكم أنتم ابطال الرواية وأصحاب الهزيمة وسبب العار!؟

وعندما حدق «الشبح» في وجه الناصرية وجد فيه كل علائم الحقد الممزوج بالحزن والألم! ولكن عندما حدّقت «الناصرية» في وجه «الشبح» وجدت فيه كل علائم الحب الممزوج بالإجلال والتقدير، والاعجاب.. والاستغفار، ايضا!

وكما يحدث في الأساطير وفي الروايات حيث تصبح «الأشباح» طرفاً في اكثر من حوار، وفي اكثر من قرار، كذلك حدث لـ «الناصرية» عندما رضيت بالزواج من «شبحها» الصحراوي!

لقد تزوجها لأنه أحبها. ترى لماذا تزوجته؟!

قالت:

ومن خلال زواجي معه، تجمعت بين أصابع يدي معظم مفاتيح السلطة في ذلك البلد الصحراوي! ولم أعد افكر في نفسي بقدر ما رحت أفكر في أهل بلدي الذين جرّتهم الاقدار للمجيء - قبلي وبعدي - الى ذلك البلد طلباً لكسب العيش! وكان بعضهم يسعى وراء تأشيرة دخول، ولا يحصل عليها. وكان بعضهم يتمنى الحصول على «اذن عمل» فلا يجده! وكان بعضهم يجاهد من أجل تأمين تأشيرة «إقامة» فلا يفز بها! ومن خلال مفاتيح السلطة المتوفرة لي حصل الآلاف من اهل بلدي على تأشيرات الدخول، وعلى اذونات العمل وعلى تأشيرات إقامة، وعلى «الرعاية» الرسمية المطلوبة! لقد عجزت شخصياً عن ان أخدم شعب بلدي في داخل بلده، فقررت ان اخدمه في المنفى! لقد زادني الزواج حُباً لبلدي، وضاعف من تعلقي بأهلي، ومنحني قوة سحرية جعلتني اشعر بقدرتي على ان احقق «الاشياء» التي لم استطع ان احققها في «رام الله» والتي تعلمتها من استاذي الدكتور.. «جورج» ان الجهاد من اجل الوطن ليس كله بُندقية! والثورة الحقيقية ليست كلها تسلّل وأعمال نسف! و «القضية» ليست كلها أرض بقدر ما هي أرض.. وشعب! لقد كان همي أن احافظ على معنى «الإنسان»، وكرامة «الانسان» وروح «الانسان» في

داخل المواطن المنفيّ مثلي الى دنيا الصحراء! ولست بحاجة لكي اؤكد بأن انصرافي الكُليّ الى استغلال زواجي لخدمة بلدي وأهلي قد صرفني تماماً عن الاهتمام بالامور الكلاسيكية التي تشغل بال المرأة وتسعى للحصول عليها، كالجواهر والمال والثياب والفرو وإنجاب الأطفال! وعندما وجدت بأنني قد أديت مهمتي وأنهيت رسالتي ولم يعد عندي ما أقدمه، حملت نفسي وتسللت الى خارج الحدود بعد ان تركت ورائي كل شيء: الجواهر، والثياب، والمال.! أما الاطفال فلم اتركهم لأنني لم أنجب واحداً منهم بسبب ما يخصني او يتعلق بي من «جنسية» رفعتها الأديان كلها الى مرتبة القداسة، وأبت «العروبة» الا ان تلهو بها وتستخفّ بكرامتها وتطحن اهلها حتى الموت!

* * *

ورحلت الناصرية الى اميركا.!

ثم عادت الى سويسرا..

ثم استقرت على شاطىء بحر بيروت.

ثم انتهى بها المطاف على شاطىء نهر التايمز.. بلندن!

وما زالت شابة. وما زالت جميلة. وما زالت تتمتع بأحلى عينين واعذب ابتسامة وأروع قامة بين نساء بلدها.

وما زالت تحن الى «رام الله»، وتتحدث عن «الناصرة»، وتحب حياة «الأساطير» وتشتاق الى أكلة «المسخّن» وحياة الفقر!

وما زال وطنها يسأل عنها ويفتقدها! وما زال شعبها يذكرها قائلاً:

- إن قصتها.. هذه «الناصرية».. لم تكتب بعد! بكل الاسرار، وكل الاسماء، وكل الادوار، وكل الألقاب، وكل النتائج والمفاجآت.

متى وأين، وكيف نقدر ان نكتب قصة «الناصرية»، كاملة!؟

العاشرة

المرأة التي لم تتعلم في كمبردج
كيف "تبقى".. ملكة ؟!

وفي هذا العام فقط وجدت نفسي على أبواب العيد أسعى

لأهتز من الحقيقة وهاربة منها ... فإنني لم أخطئ تركونا بين الحياة

الأبرار ليست الحياة ترى الأمم تتسابق لك الخير والتسامح

ولكن قدر لي أن أعيش مع اليهود وأنعم معانقة حيث الحياة

زاخرة لا بمعاني التسامح والتآخي فحسب بل بمعاني الألم البشري

في أسمى صوره.

... لقد كتب لي هذا العام أن أحج الى القدس بالرغم من أن

مكة كانت تناديني وكتب لي أن أطهر روحي وتنطق في مهد

الأنبياء. فهنا في هذا البلد الحبيب انجلت لي حقيقة النفس البشرية

وبدأت أفهم الدور الغريب الذي أسند إليها في هذه الحياة

في صراعها بين الخير والشر ... فهنا في هذه البلد العزيزة ... أم القداسة

لا زلت رأيت بشراً في أدنى الصفات وآخرين يتحلون بأنبلها.

هنا شاهدت الظلم والخداع والعدوان وهنا أيضا وجدت

الصبر والايمان. هنا رأيت الشر اليهودي يتسلط على حياة قوم

أبرياء فيحيلها إلى جحيم من القهر ... رأيت بريق الانتقام والكراهية

يلمع في عيني راهب كرس حياته لإنسانية تجعل العدوان يخضع

بالسلم والسكينة ورأيت أمة بأسرها بلا مستقبل ودولة لي

سري في رجعة الرب التي تحول بين البشر وبين الكفر!

رأيت في القدس بلد الايمان والهدى آيات قوم لو

أصابت غيرهم لما نكبوا بها ويلات تركتهم على وجه الأرض كافرين

بكل القيم ولعنتهم نقمة على بقية البشر الذين تجاهلوا آلامهم

وكتبت دنيا لي بخط يدها عن القدس الرسالة التالية

سألني الزعيم العربي «عوني عبد الهادي» بعد حفلة غداء أقامها في سفارة بلاده بالقاهرة على شرفها في أول الخمسينات:

ـ كيف وجدت.. أميرتنا؟!

وأجبته وأنا أنظر صوبها بكل إحترام ومحبة:

ـ ليتها تصبح.. ملكتنا..!

وكنت أعلم أنها من تلك الأسرة المسلمة العريقة التي تعيش على امجاد التاريخ. وكنت أعلم أنها درست في جامعة «كمبردج» ونالت منها شهادة الماجستير في الأدب الانجليزي. وكنت أعلم أنها تسكن في ضاحية «المعادي» مع والدتها وعمها. أما والدها فقد كان في عالم آخر! وكنت أعلم أنها فتاة طموحة، ومتواضعة، وتقود سيارتها «الأوبل» الصغيرة الزرقاء بنفسها. وأنها ـ قبل ذلك وفوق ذلك ـ تحب الصحافة وتعشق الأخبار، ولا تخشى الأضواء ولا تخاف من كلام الناس!

وكانت تأتي برفقة والدتها الى بيروت كلما استطاعت ان تحصل على إجازة قصيرة من عملها كأستاذة أدب انجليزي في جامعة القاهرة. ومن عادة الناس المجيء الى بيروت للنزهة او الراحة او السهر او شراء الملبوسات الجديدة، أما هي فقد كانت تأتي الى بيروت لكي «تحكي» عن.. فلسطين!

وأبادر وأعترف بأني اضعف الناس قلباً وأرقهم عاطفة عندما اجد نفسي إما اتحدث عن فلسطين او استمع لمن يحدثني عنها! ولعل هذه السيدة ـ وليكن اسمها في هذه المرة «السيدة الهاشمية» قد عرفت عني مثل هذا الضعف حيث راحت تمطرني بكل كتاب جديد يصدر عن قضية فلسطين، وتكتب لي في رسائل خاصة تعليقاتها المسهبة حول كل مقال

كنت اكتبه عن فلسطين، وتسألني عن طريق التلفون بين القاهرة وبيروت عن آخر أخبار فلسطين، الى ان حانت اللحظة التي سمعتها تقول لي في لقاء جمعنا في بيروت:

ـ لماذا لا نسافر الى القدس ونزور المسجد الأقصى ونلتقي بالأهل هناك؟!

وركبنا طائرة «الشرق الاوسط» من بيروت الى مطار «قلندية» بجوار القدس.

وكانت معنا والدتها.

وعندما وصلنا الى القدس، قالت لي «الهاشمية» ان علينا الذهاب رأساً الى الحرم الشريف، لأداء صلاة العصر، وزيارة قبر الملك الكبير «الحسين بن علي» ـ ملك الثورة العربية ضد الأتراك ـ لا لأنه جدّها الأكبر فحسب، بل لأنه ـ في نظرها ـ رمز الإرادة العربية في الثورة على الظلم والدعوة الى الحرية والعمل من اجل الوحدة مما جعله يدفع الثمن الفادح ويعيش غريباً في منفاه حتى وفاته.

وكنت أعجب لهذه الفتاة «الهاشمية» التي تكره الأتراك رغم ان والدتها من اصل تركي، وتتحدث بلهجة مصرية رغم كونها حجازية، وتحب السياسة والأخبار وقضية فلسطين رغم انها.. أميرة! وعندما عدنا من زيارة الحرم الشريف، وكانت الساعة قد بلغت الخامسة مساء أصرت «الهاشمية» على ان نذهب لزيارة مدينة «نابلس» للتعرف على صرحين شامخين معروفين في عاصمة جبل النار: صناعة الصابون النابلسي، والالتقاء بالشاعرة فدوى طوقان!

وأحسست بأن «الهاشمية» تريد ان تسمع كل شيء، وأن تعرف كل شيء، وان تقابل كل الناس! كانت تمشي في شوارع القدس وكأنها تُصلي في الجامع! وكانت تسمع صوت الأذان.. فتبكي! وكانت تمد يدها وتتحسس حجارة الجدران القديمة في طريق الحرم وتتحدث اليها وكأنها تسألها عن الملوك والأنبياء الذين مرّوا أمامها على مدى التاريخ! وكانت تتنقل كالفراشة من «بيت لحم» الى «الخليل»، ومن رام الله الى «جنين»، ومن أريحا الى البحر الميت، ولا تكاد تنتهي من زيارة مدينة حتى تسأل

عن مدينة اخرى، ولا يكاد ينقضي برنامج الرحلة في اليوم حتى تبدأ في اعداد برنامج اليوم التالي! لقد أصرت على ان تصعد درجات السلالم الطويلة فوق سور القدس وان تطل على الجزء المحتل من المدينة وان ترى اليهود من بعيد وهم يمشون في شوارع العرب ويسكنون في بيوت العرب ويتصرفون بأملاك العرب، ثم ركبنا السيارة وسافرنا الى قرية «عمواس» حيث وقعت أشد المعارك بين الاردن واسرائيل في حرب عام ١٩٤٨، ثم مررنا بمدينة «طولكرم»، وحدود المثلث العربي الضائع، ومدينة «قلقيلية» وسهول بيارات البرتقال المسلوبة، وكل هذا، وكانت الهاشمية تُحدق في الارض جيداً، وتلتقط الصور الفوتوغرافية، وتسأل الفلاحين عن احوالهم، وتسجل ما يحلو لها من أفكار، فلما عدنا الى القدس كانت «الهاشمية» قد ملأت جعبتها من أخبار فلسطين، وملأت صدرها من هواء فلسطين، وملأت قلبها بحب فلسطين..!

ولم يخطر ببال «الهاشمية» ان تكون أميرة أو تحمل لقباً. كان يكفيها ان تحب والدتها. وأن تقرأ الكتب. وان تسمع فريد الاطرش. وان تتحدث عن فلسطين! وكانت حياتها نموذجاً لحياة الاستاذة المحاضرة التي عشقت الكتاب ونسيت نفسها. وما اكثر المرات التي كانت «الهاشمية» تقود سيارتها في الليل وتنسى ان تفتح النور الامامي، وما اكثر ما غادرت «الهاشمية» منزلها في النهار ونسيت ان تضع مفتاح المنزل في حقيبتها! لم تكن «الهاشمية» بوهيمية في أخلاقها، ولكنها ـ قطعاً ـ كانت بوهيمية في طباعها! لم تكترث للزينة او للثياب أو للجواهر او للموضة او للعطر، بقدر ما اكترثت للتحليل النفسي، والدراسة الادبية والعرض التاريخي والحقائق المحيطة بالموضوع. كانت حياتها مجرد محاضرة مستمرة.. قد تتنوع مواضيع المحاضرة، وتتعدد موادها، ولكنها تبقى مجرد «محاضرة» في مقدمتها وأسلوبها وتقسيمها وخاتمتها!

وكانت «الهاشمية» موزعة القلب في حُبها لعشيرتها في الاردن، وتعلقها بأهلها في بغداد! كانت تسأل الناس عن أخبار «الأقارب» في بغداد، ولكنها كانت تحدث الناس عن أخبار الأقارب في عمان!! وعندما احتفلت بغداد بتتويج مليكها الفتى في اليوم الذي كانت الاردن تحتفل فيه بتتويج

«الحسين»، احتارت «الهاشمية» الى اين تذهب، وأي من الاحتفالين تختار. قالت لي لو أنها ذهبت الى بغداد ولم تذهب الى عمان، لغضب عليها أهلها في الاردن. ولو أنها طارت الى «عمان» وحضرت تتويج الملك فيها ولم تذهب الى بغداد لأغضبت «الوصي» وعائلته. ولذا فقد بقيت «الهاشمية» في منزلها «بالمعادي» ولم تحضر تتويج الحسين ولا تتويج فيصل! كانت نزعتها الهاشمية لا تسمح لها بحق التفضيل بين أفراد الأسرة الهاشمية! كانت تحب عائلتها كأسرة ومجموع وتاريخ، لا كأفراد ولا كحكام!

وعندما سافر «صلاح سالم» ـ عضو مجلس قيادة ثورة ٢٣ يوليو الى العراق في اول لقاء مهم بين قادة العراق وقادة الثورة المصرية، وكان ذلك في صيف عام ١٩٥٤، طلب مني أن ارافقه في تلك الزيارة التاريخية وأن أزيل من طريقه بعض «الصخور» التي قد تكون موجودة عن قصد لكي تمنع الوصول الى أي تفاهم عسكري او سياسي بين العراق ومصر حول مستقبل التعاون في الدفاع العربي المشترك. فقد كنت صديقاً لنوري السعيد، ولفاضل الجمالي، ولجميل المدفعي. كما كان الأمير «عبد الإله» لا يحمل لي الا المودة والاحترام. وعندما وصلنا الى بغداد قيل لنا ان «الوصي» والحكومة ونوري السعيد قد سافروا الى الشمال وانهم ينتظروننا في مصيف «سرسنك» على الحدود الإيرانية التركية حيث تدور المفاوضات.

وسافرنا الى «سرسنك»، ونزلنا في الضيافة الرسمية. وبدأت المباحثات. وكان «صلاح سالم» يصحو من النوم مبكراً، ويزورني في غرفتي بالفندق وينقل لي ما دار في الجلسة السابقة باستثناء الكلمات العراقية التي وردت على السنة «الوصي» أو نوري السعيد ولم يتمكن من فهمها، وباستثناء المواضيع التي كان التعب او المرض او اختلاف اللهجات لا يساعده على ان يتذكرها او يعيدها لي! وكان صلاح سالم حريصاً على ان يسمع رأيي في كلامه وعما اذا كانت المباحثات تسير في اتجاه النجاح أم في اتجاه الفشل، وعما اذا كان «نوري السعيد» يريد ـ حقاً ـ تحقيق التفاهم مع مصر أم أنه يناور ويساوم «ويتكتك» ويلعب

ورقة الوقت؟ وكان صعباً عليّ ان اعطي الرأي المطلوب مني في مواضيع لم تكتمل كلماتها ولم نفهم مضمونها! كان «نوري» مثلاً يردد كلمة «ممنون» ألف مرة لكي يعرب عن استعداده للخدمة وللتعاون! بينما كان صلاح يفهم الكلمة المذكورة بمعناها المصري العام الذي يدلّ على انشراح صاحبها وامتنانه. وكان الوصي يردد كلمة «ايش دعوى؟» و «هيتشي!» «وفَد زمال» ـ أي واحد حمار! ـ فيحسب «صلاح» ان الأمير يتحدث أمامه باللغَة الكردية، التي لا يعرف منها «صلاح» حرفاً واحداً! وسألني «صلاح» وقد اوشك أن ينفد صبره ويكفر بالعرب وبالعراق وباللهجات التي لا يفهم منها شيئا، عما اذا كانت هناك وسيلة اتمكن بها من ان اعرف ـ بالضبط ـ ماذا يدور داخل الجلسات لكي اساعده على فهمها، واستخراج المعاني المطلوبة عنها. وعندما سألت «الهاشمية» وكانت قد جاءت الى «سرسنك» ونزلت ضيفة في القصر الملكي ـ عن رأيها في الحل وماذا يمكنني او يمكننا ان نقوم به، اذا بها تخبرني بأنها تقوم بتسجيل كل وقائع الجلسات بنفسها، وانها تسمع كل حرف يتردد في المفاوضات عن طريق وقوفها وراء الستارة المخملية الكبيرة التي تفصل بين الصالون الرئيسي وقاعة الجلسات داخل مبنى القصر الملكي دون ان يراها احد!

فقط لا غير..

وراحت «الهاشمية» تزودني يومياً بنصوص محاضر جلسات المباحثات بين الوفدين المصري والعراقي، وهي مكتوبة بخط يدها ومبوّبة حسب المواضيع ومفصلة بكل ما دار بين الجانبين من حوار، وأسئلة، وشروح.! وسألتها يومذاك عن سر اهتمامها بتسجيل وقائع الجلسات بمثل هذه الصورة الدقيقة، فأجابت دون تردد بأنها حريصة جدا على ان يسود التفاهم بين مصر الثورة وبين العراق من أجل.. فلسطين ومن أجل القدس!

لقد كانت فلسطين هي هاجسها ومصدر قلقها وموضع حبها! وكنت أخاف عليها من كل هذا الحب. فقد اختلطت هاشميتها بعروبتها بمصريتها بحجازيتها.. بفلسطينيتها، وخلقت منها انموذجاً فريداً في

الاعتزاز بالإسلام والفخر بالمنبت، والزهو بالأصل والجذور! وكنت أشعر دوماً بأنها قد تضيع «يوما ما» في غمرة هذه المشاعر المتفجرة. ولم تعد تهتم بعملها في تدريس الأدب الانجليزي لتلامذة جامعة القاهرة بقدر اهتمامها في السؤال عن آخر قصائد «فدوى طوقان» وآخر نكات قدري طوقان وآخر اخبار المظاهرات في شوارع القدس والخليل! وعندما جاء «الملك..» لزيارة مصر في أول زيارة له لجمال عبد الناصر، كنت حريصاً على ان اكون بين المستقبلين في مطار القاهرة. ورأيت خال الملك ـ يرحمه الله ـ يدنو مني ويهمس قائلاً بأن الملك سيزور «الهاشمية» في منزلها «بالمعادي» لكي يباحثها في امور كثيرة من بينها ان يعرف رأيها إن كانت تقبل به زوجاً لها او تقبل أن تكون.. زوجته! وقد أسعدتني المفاجأة فعلاً لأني رأيت فيها تحقيقاً لآمال «الهاشمية» في ان تمزج بقية عمرها... ببقية فلسطين، وان تتزوج ملكاً يضم في مملكته نصف فلسطين، وان تعيش على حدود البلد الذي أحبته وبين الشعب الذي افتخرت به وعطفت عليه وتبنت آلامه وآماله! ولم استطع ان أحبس هذا السر طويلا في صدري بل توجهت الى دار «أخبار اليوم» حيث كنت أعمل في تلك الفترة، ودخلت على زميلي «هيكل» في مكتبه بالدور الثاني، وكان يومذاك يعمل رئيسا لتحرير مجلة «آخر ساعة» وقلت له وأنا أسرد له الخبر:

ـ لقد اخترت لك صورة الغلاف للعدد المقبل من مجلة «آخر ساعة»..!

وقبل ان يسألني «هيكل» عن التفاصيل، قلت له مستطرداً:

ـ انها صورة فلانة.. او «الهاشمية» التي سيخطبها «الملك».. في مساء الغد.!

ورفع «هيكل» سماعة التلفون ونقل الخبر للرئيس عبد الناصر. وعندما تقابل «الملك».. مع عبد الناصر في اليوم التالي وأخبره بقراره على ان يخطب «الهاشمية»، تظاهر الرئيس بأنه يسمع الخبر لأول مرة، وانها «مفاجأة» عظيمة.. وقام بمعانقة الملك وتهنئته و..ألف مبروك!

وصدر عدد «آخر ساعة» وفيه عشر صفحات كاملة عن خطوبة «الهاشمية» لقريبها.. الملك الشاب!

ولعل «هيكل» شعر باهتمام الرئيس المصرى بالأمر، فطلب مني أن

اسـاهم شخصيـاً بكتابة أكثر من مقال وأكثر من خبر واكثر من سرد تاريخي عن «الهاشمية» والملك بدون ان اضع اسمي على حرف منها. كان المهم ان يشعر الخطيبان بمدى فرحة مصر بمثل هذه الخطوبة، كما كان يهم عبد الناصر ان يدخل الى قلب الملك من باب هذه الفرحة الخاصة سيما وان العروس كانت تسكن في مصر، وكان الكثيرون يعتبرونها مصرية.

وحان موعد الزفاف، وسافرت «الهاشمية» الى وطنها الجديد!

وغنى «فريد الأطرش» في الحفل الساهر الذي اقيم لهذه المناسبة عدة أغان من بينها اغنيته الجديدة.. يومذاك: «ما قال لي وقلت له.. ومال لي وملت له.. يا عوازل فلفلوا..»!

وفهم الناس بين الحاضرين من هم «العوازل» المطلوب منهم ان «يفلفلوا»!

وكان الملك في أوج السعادة. وكانت «الهاشمية» في قمة الجمال. وعدت بعدها الى مقر اقامتي في بيروت وانا ادعو الله ان يسعد «الهاشمية» وان يبعد عنها «العوازل» ويحميها من براكين.. فلسطين! لقد سمعتها ذات يوم تقـول لي، بأنها عندما تتزوج وتسكن في «عمان» ستتفرغ لدراسة أحـوال البلد وقضـايـا اهله وخاصة الفلسطينيين، لأنها تؤمن بعظمة العنصر الفلسـطيني وبقدرته على العمل الجاد والخدمة المثمرة، وكان عمرها يومذاك لا يزيد عن السادسة والعشرين، وكانت تجيد التحدث بأكثـر من خمس لغات من بينها الاسبانية والتركية! وكانت تحلم بأن ترعى مشروع بناء جامعة اردنية تكون بمثابة مشعل النور الذي يسطع تحت سمـاء الاردن ويسـاير مواكب العلم والثقافة في أوروبا وأميركا! وكـانت تؤمن بالوعي الحضـاري، وبالوطنية المثقفة، وبالقومية النيرة، وبالمواطنية المُتعلمة البعيدة عن التعصب والانانية والجهل والارتجال. وكان لقبها آخر ما يهمها، وكان شعورها بالواجب اول همومها. وكانت تعيش في عمان وقلبها في «القدس»! وكانت تراعي أصول البروتوكول وفي قلبها ثورة تتأجج ضد البروتوكول وضد التقاليد! وكان الناس يحبونها ويهتفون بحياتها، وكانت هي تتمنى ان تلتقي مع الناس وترعى شؤونهم

وتخدم حياتهم! وكانت تنادي بأن حبّ الناس لها انما هو ولاء الناس لزوجها ومليكها. وكانت تؤكد لأصدقائها ولصديقاتها بأن لا حجاب يقف بينها وبينهم، ولا فاصل يبعد بينها وبينهم، وانها تفخر كونها حجازية أصيلة، كريمة هاشمي أصيل، وحفيدة هاشمي أصيل، وليست ـ مثل «ناهدة» مثلا ـ التي جاءت الى البلاد مع امها الجارية وعملت كممرضة في خدمة احدى بنات الملك «المؤسس» ثم ـ وبعد ان قويت واشتد عودها ـ عمدت الى كسب النفوذ وفرض الهيمنة وجمع المال وخرق القانون وإفساد العرش والإساءة الى الملك!

كانت «الهاشمية» على ثقة من نفسها ومن اسمها ومن قدرتها على ان تملأ الفراغ وأن تخدم العرش وأن ترعى أحزان فلسطين.

ولكن فلسطين، القضية والنكبة، بقيت كالنار المتأججة، التي تحرق كل من يقترب منها او يحاول معالجتها، سلباً كان ام ايجاباً!

وكانت فلسطين هي المحرقة التي التهمت «الحسين بن علي» وقذفت به الى جزيرة قبرص، وكانت هي المحرقة التي قضت من بعده على ألف زعيم عربي، وألف سياسي أوروبي، وألف قائد معاصر، وألف نائب وحاكم منذ مطلع القرن الحالي، مروراً بهتلر، والحاج أمين وعبد الناصر حتى الملك فيصل واحمد الشقيري! وهكذا كان طبيعياً ان يبدأ الدس ضد «الهاشمية» تحت ستار حماستها لفلسطين، وحبها للفلسطينيين، وممارستها للسياسة التي تتعلق بفلسطين، واختلاطها بأهل الضفة، وزيارتها للقدس ونابلس ورام الله!

لا احد في تلك البلاد أراد للهاشمية ان تحب فلسطين او أن تتحدث عن فلسطين او ان تزور فلسطين أو أن تشغل بالها بهموم فلسطين وأهل فلسطين.

وجاءت عملية طرد «جلوب باشا» من الاردن، وارتفعت هامة «الهاشمية» يومذاك الى عنان السماء! إن «الهاشمية» تنادي ان الأرض لأهلها، وأن جيش الأردن للاردنيين وحدهم، وأن قيادة جيش الأردن يجب ان تبقى قيادة عربية خالصة، وقادرة على ان تمسح العار عن أرض

القداسات وتحرر فلسطين من الكافرين الطغاة وتعيد للمسلمين عزتهم وشرفهم.

وعندما رحت أكتب تقاريري الصحفية عن طرد «جلوب» وأنشرها في صحف «اخبار اليوم» القاهرية، كانت «الهاشمية» هي أشرف وأصدق وأنبل مندوبة توافيني بأدق التفاصيل عن الدور البطل الذي قام به الملك الشاب في تخليص بلاده من مؤامرات مثل هذا العسكري الاستعماري الداهية! وكنت أتلقى رسائلها يومياً بالطائرة المتوجهة من بلادها الى بيروت، وأكتب مضمونها في الليل ثم ابعث بها في صورة ريبورتاج صحفي على الطائرة المصرية المسافرة من بيروت الى القاهرة. وكان ملايين القراء في مصر يتحدثون عن تلك التقارير ويشيدون بدقة اخبارها وخطورة ما تضمنته من أسرار. وكانت «الهاشمية» تقرأ تلك الأخبار منشورة في صحف مصر فلا تملك إلا ان تهنيء نفسها على انها الصحافية الأولى التي أثبتت - لنفسها على الأقل - ان الوفاء والمجد والاخلاص والوطنية قادرة كلها على ان تجعل من الملكات الناجحات، صحافيات ناجحات..! كانت تشعر بالسعادة لانها قدرت ان تنتقم - ولو ضمن حدودها وإمكاناتها - من الذين سلّموا اللد والرملة من امثال جلوب باشا.. ولاش باشا.. و «برودهيرست».. الى العدو، وتظاهروا بالولاء للعروبة والاسلام بينما هم اشد الناس عداوة للمسلمين وللعرب!

وذات يوم، وصل الى القاهرة صديقي الراحل «عبد المنعم...» وهو يحمل لـ «الهاشمية» الرسالة التي لا تتمناها ولا تشتهي استلامها أية زوجة..

وبللت حسراتها ودموعها اوراق تلك الرسالة وهي تقرأها.

وبكى معها، صديقي الراحل الشاعر.. «عبد المنعم»..!!

ولم يتغير لديها او عندها شيء! وبقي وفاؤها لبلدها سيداً ووحيداً! وبقيت الصورة الكبيرة «للسيد الكبير» تزين في منزلها صدر الصالون الكبير! واستمرت «الهاشمية» تتمسك بصلابة عودها الهاشمي وتحن الى اخبار ذلك البلد الذي أحببته لذاته أولاً، ولأنه الجار الأول لأرض فلسطين، ثانياً.

وجاءت حرب الأيام الستة، وخرجت «الهاشمية» الى ميادين القتال للعمل كممرضة متطوعة.

وقالت «غولدا مائير» ذات يوم انها لا تعرف ان هناك شعباً اسمه «الفلسطينيون»، وأدلت بتصريح سياسي لجريدة «الصنداي تايمس» اللندنية زعمت فيه ان ليس هناك ما يسمى بالوجود العربي.. وليس هناك ما تسمى بالوحدة العربية! وأرادت الهاشمية ان ترد على أكاذيب «غولدا مائير» بصورة عملية من خلال عمل فني وأدبي كبير تثبت فيه للعالم وجود الفن العربي والأدب العربي والتطريز العربي والرسم العربي والعمارة العربية.! وبدأت تخطط لإنشاء معهد كبير يحتوي على جميع هذه الفنون الجميلة ولكن احلامها الكبيرة تحطمت على صخرة الانانية العربية والشكوك الرسمية! وتقلص البرنامج الضخم الى مجرد «حانوت» صغير لبيع المنتوجات الشرقية، لم يلبث ان أعلن إفلاسه بسبب سوء ادارة السيدة حرم ذلك السفير البريطاني السابق التي كانت تتولى مهمة الاشراف المباشر عليه أثناء غياب صاحبته الأصلية.

وبقيت «الهاشمية» على إصرارها العنيد في حُبها للفلسطينيين والاعتقاد الراسخ بأنهم ضحايا الظلم الاستعماري الذي أصابهم!

وجاءت أحداث الأردن في عام ١٩٧٠ وضاعفت من إصرارها وعنادها.. وإيمانها!

وبدأت اسرائيل تزرع المستوطنات في شرق الارض المحتلة، وفي غربها، مع اصدار القوانين الجائرة بهدف طرد الفلسطيني من بلده وتفريغ الوطن من اصحابه، وكانت الهاشمية تنزف دماً!

وعندما عجزت عن أن تحرر الأرض الفلسطينية،

وعندما فشلت في ان تنقذ الشعب الفلسطيني،

وعندما استبدت بها الضربات، وهاجمتها نوبات المرض، وهدتها آلام التشرد والضياع...

وعندما لم تستطع ان تعطي حبيبتها الخالدة، «فلسطين»، حُباً جديداً ممزوجاً بالدم والعرق والأمل والحياة،

عند ذلك..

لبت «الهاشمية» نداء قلبها، وتزوجت شاباً من أرض فلسطين!

وقد يكون صحيحاً، ان طموحات والدتها وحبها للعظمة وجريها وراء الألقاب، كل هذا جعلها تتمنى لأبنتها «الهاشمية» ان تتزوج من امير هاشمي، كالأمـير عبد الإله، وصي العراق، مثلا، او أحد أفراد العائلة الهاشمية في الاردن او في العراق. ولكن ـ ويشهد الله ـ ان «الهاشمية» نفسها، وفي صميم ذاتها، لم تضعف امام اي لقب، ولم تركع امام أي صولجان، ولم تفقد لحظة واحدة من حبها للقدس، او هوسها بفلسطين!

كانت الالقاب في حياتها مجرد وسيلة من اجل غاية، وكانت غايتها منذ ان تخرجت من كمبردج وعادت الى ارض الوطن هي ان تعود فلسطين الى اهلها، ويعود الاهل الى.. فلسطين.

ومن عادة الجامعات الانجليزية ان تدرب أبناءها على الصبر، وتعلمهم فن السيطرة على أعصابهم، وتغرس في نفوسهم مزايا الهدوء والاستقرار.

وكـذلك فان من تقاليد جامعات انجلترا، وخاصة جامعة اكسفورد وزميلتهـا جامعـة كمبردج، تعليم تلامذتها فنون طلاء الكلمات باللون الدبلوماسي، والتحدث بلغة الانجليز في لهجة خاصة، والتظاهر المستمر ببعض الغيبوبة الذهنية او السذاجة الفكرية التي تخفي وراءها العمق والمكر والدهاء.

ولكن جامعة كمبردج، وقد منحت «الهاشمية» ارقى درجات العلم، لم تستطع ان تدمغها بالطابع المميز الذي يجعلها تمارس فن النفاق لكي تصبح مؤدبة، او تتحدث بلغة الأحاجي لكي تصبح دبلوماسية، او تجنح الى اللهجة «الاكسفوردية» في اخراجها حروف كلماتها الانجليزية لكي تبدو.. مثقفة!

وكذلك، فان «كمبردج» قد عجزت عن ان ترغم تلميذتها الهاشمية على الصبر المؤذي او الهدوء المزيف!

ولذا ـ فقد بقيت الهاشمية تنزف ـ كما ولدتها أمها ـ ثورة متأججة في حبها لوطنها وأهلها وشعبها، وفي كراهيتها لليهود!

ولم تعرف الجاتو، بقدر ما أحبت الكنافة!

ولم تركب الرولز رويس، بقدر ما أحبت سيارات «الفيات» والفولكس فاغن!

ولم تختزن الجواهر والحلى، ولم تلبسها، بقدر ما ارتدت حذاء «الصندل» وأحبت الفساتين القديمة موديل ١٩١٠!

ولم تفكر بزيارة شواطىء ايطاليا، او منتزهات فرنسا لقضاء عطلة الصيف، وانما ركبت سيارتها وذهبت الى مدينة «نابلس» لزيارة قدري طوقان وفدوى طوقان وشراء بعض اطباق الكنافة النابلسية وتوزيعها على الاصدقاء والمحبين!

ولم تسأل عن أغلى أنواع العطور، او أغلى أنواع صابون التواليت، او أغلى الزيوتات الصالحة للمكياج! كانت تستعمل الصابون النابلسي، وتغسل وجهها بالزيت الفلسطيني القادم اليها من مدينة صديقها «كمال ناصر» في مدينة «بير زيت» بالضفة الغربية المحتلة!

وقد احبت أرقى الالحان الكلاسيكية عند «موزار»، و «فاغنر»، و «بتهوفن». ولكنها بقيت «تدندن» عندما يهزها الطرب باغنيات عبد الوهاب، وأم كلثوم، وفريد الأطرش!

.. وما زالت على حالها بعد أن ضاع الزوج وضاع اللقب، وضاع النفوذ، وضاعت الآمال!

ولم يتغير فيها شيء سوى اختفاء تلك الابتسامة التي كانت تزين وجهها في اواسط الخمسينات والستينات..!

لقد غابت تلك الابتسامة ولم تعد. بانتظار ان تعود.. القدس! تماماً..

كما غابت من بعدها، ابتسامة أخرى، لإنسانة أخرى، كانت ـ مثل الهاشمية ـ تحمل لقباً وتحمل امالاً!

وكان اسمها: علياء الحسين!

وقد سقطت بها الطائرة في يوم عاصف ممطر ومجنون وقضت عليها!

وتساءلت وأنا أزور قبر «علياء» فوق ذلك الجبل المطل على جبال القدس البعيدة، كيف يمكن لمثل هذه الشابة ان تركب طائرة الهليكوبتر في مثل ذلك الجو المجنون وتذهب في رحلة ما الى الجنوب لكي تؤدي عملا يتعلق بواجبات الملكة؟!

ولم أكن بحاجة الى جواب! فقد كان معروفاً ان «علياء» انما قامت برحلتهـا الأخـيرة لكي تؤدي واجبـاً إنسـانيـاً تقـوم فيه بزيارة أحد المستشفيات تلبية لاستغاثة مستعجلة تلقتها من أحد المرضى.

وهكذا دفعت ملكة عربية حياتها ثمناً للقيام بواجبها الإنساني!

وكان شاعر ألمانيا العبقري، «غوته» يقول في بعض أشعاره: «تسألني بعد هذا ما هو واجبك؟ أجيبك ان الواجب هو ما يطلبه منك.. الواجب!» وكان دوق «ولنجتون» يكرر دائماً قوله: «إن طريق الواجب هو طريق الشرف»!

ومن مميزات الشرف ان يعيش على الحب:

حب الوطن، وحب الواجب.

وان يكون الانسان مستعداً لأن يدفع ثمن هذا الحب:

من لقبه وبيته وحياته الزوجية.

ومن حياته!

* * *

وبعد..

وفي عام ١٩٥٤، وفي غمـرة فرحة المسلمين بعيد الأضحى المبارك، والناس وقوفاً على عرفات وصلتني منها السطور التالية التي لا تتحدث عن «العيد» فحسب وانما تتحدث عن بلدي... عن القدس الخالدة!

قالت لي «الهاشمية» في رسالتها الخاصة:

«... وهكـذا هلَّ علينا يوم العيد! وفي هذا العام فقط، وجدت نفسي أسعى باحثة عن الحقيقة لا هاربة منها! اذ أنني لم أُصطفى لكي أكون بين الحجـاج الأبـرار لبيت الله الحرام لأرى الأمم تتسابق الى الخير والتسـامح، ولكن قُدر لي ان أعيش هذا العيد وان أفهم حقائقه حيث الحيـاة زاخرة لا بمعاني التسامح والتآخي فحسب، بل بمعاني الألم البشري في أقسى وأسمى صوره...!»

«... لقد كُتب لي في هذا العيد وفي هذا العام ان أحج الى «القدس»

بالرغم من ان مكة كانت تناديني! وقد كتب لي ان تُصهر روحي وتتطهر في مهد الأنبياء. فهنا في هذا البلد المجيد، انجلت لي حقيقة النفس البشرية وبدأتُ افهم الدور الغريب الذي أسند اليها في هذه الحياة وفي صراعها بين الخير والشر. فهنا في هذه البلدة العزيزة، أم الحقائق الأزلية رأيت بشراً في أدنى الصفات وآخرين يتحلون بأنبلها! هنا شاهدت الظلم والخداع والعدوان، وهنا أيضاً، وجدتُ الصبر والايمان. هنا رأيت الشر اليهودي يتسلط على حياة قوم أبرياء فيحيلها الى جحيم من الحقد: رأيتُ بريق الأنتقام والكراهية يلمعان في عيني «راهب» كرس حياته للانسانية فجعله العدوان يكفر بالسلم والمسالمة. ورأيت أمة بأسرها بلا مستقبل، ولا أمل، سوى في رحمة الرب التي تحول بين البشر وبين الكفر..!»

«.. لقد رأيتُ في القدس بلد الإيمان والهداة إيمان قوم لو أصاب غيرهم ما نكبوا به من ويلات لتركتهم على وجه الأرض كافرين بكل القيم، ولبعثتهم نقمة على بقية البشر الذين تجاهلوا آلامهم واستخفوا بنكبتهم وجبنوا أمام ندائهم بل انتهكوا حرمات ايمانهم، ولكنهم ظلوا بعد أعوام هي كدهر من النكبة أقوى جهاداً وأصدق إيماناً..'»

وأنهت «الهاشمية»، الرضيّة، المرضيّة، رسالتها لي عن القدس منذ «٣٥» سنة بالكلمات العاطفية التالية:

«... فإلى مكة تتجه الوجوه والأفئدة في هذا العيد باحثة عن الغفران. والى القدس تسعى القلوب باحثة عن الإيمان. فسلام على القدس يوم انبثق فيها نور الحقائق والأديان، وسلام عليها يوم استشهدت، وسلام عليها يوم تُبعث حية.!»

التوقيع «....»

وهكذا عاشت وكتبت وأحبت، تلك الهاشمية!



فهرس الأعلام

أ

ب

محتويات الكتاب



ناصر الدين النشاشيبي

- من مواليد القدس وخريجي الجامعة الأميركية في بيروت في السياسة والأدب العربي.
- عضو المكتب العربي التابع للجامعة العربية عام ١٩٤٥
- مراسل صحيفة « المصري » في حرب فلسطين عام ٤٧ - ١٩٤٨.
- معلّق سياسي في الإذاعة الفلسطينية عام ١٩٤٦.
- رئيس التشريفات والمستشار الأول للملك عبد الله في بلاط الأردن عام ١٩٤٩ - ١٩٥١.
- مدير عام الإذاعة الأردنية ١٩٥٢
- مدير مكاتب دار « أخبار اليوم » في الشرق الأوسط من ١٩٥٣ الى ١٩٥٨ وكبير مراسليها.
- رئيس تحرير جريدة « الجمهورية » القاهرية ١٩٥٩ سفير متجوّل للجامعة العربية ١٩٦٥
- مندوب « الأهرام » [illegible] في أوروبا ١٩٦٧.
- صدر له أكثر من ٢٨ [illegible] والسياسة، والرحلات [illegible] عن قضية العرب الكبرى: [illegible]
- زار معظم عواصم [illegible] الشعبية والإتحاد السو[illegible] وايران. وصادق - عن [illegible] وعمل مع الرئيس ج[illegible] لتحرير جريدة « الجمهور[illegible] من عشر سنوات.
- يعيش حالياً في أوروبا [illegible] بين لندن وجينيف.

نساء من الشرق الأوسط

السياسة إسمها إمرأة

بلغة تجمع الشاعري الى الواقعي، والمأساوي الى الفكه يروي الكاتب الكبير ناصر الدين النشاشيبي، في كتابه هذا، فصولاً من حياة نساء عربيات اشتهرن - كل منهن لسبب - وكان لهن فضلاً عن الشهرة المال والجمال والجاه، والمكانة الاجتماعية والسياسية البارزة.

وقد برع الكاتب في رسم صوره القلمية عن تلك النساء بأسلوب شيق، ومن خلال حبكة قصصية رائعة تأخذ بمجامع القلوب وتكشف أدق الأسرار.

الحب، السياسة، الجاسوسية، الاغتيال، الخيانة، والوفاء. كل هذا عنوانه: السياسة اسمها امرأة.

السياسة إسمها إمرأة

